سوسيولوجيا الفكر الإسلامى

طور الإنهيار (٤)

الفكر التاريخى

د. محمود إسماعيل

دار مصر المحروسة

سوسيولوجيا الفكر الإسلامى
طور الانهيار (٤)
الفكر التاريخى

الكتاب: سوسيولوجيا الفكر الإسلامى طور الانهيار (٤) الفكر التاريخى

المؤلف: د. محمود إسماعيل

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠٠٥

الناشر: دار مصر المحروسة

المدير العام: خالد زغلول

مدير النشر والتوزيع: يحيى إسماعيل

المراجعة اللغوية: محمد القزاز

الغلاف: علاء قابيل

رقم الإيداع بدار الكتب: ٢١٩٨ / ٢٠٠٥

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر دار مصر المحروسة

١٣ شارع قولة إمتداد محمد محمود - عابدين - القاهرة

تليفون - فاكس : ٣٩٦٠٥٠٠

d_misr _ elmahrosa @ hotmail . com

الآراء الواردة بهذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن دار مصر المحروسة

يحظر إعادة النشر أو الاقتباس إلا بإذن كتابى من الناشر أو الإشارة إلى المصدر

سوسيولوجيا الفكر الإسلامى

طور الانهيار (٤)

الفكر التاريخى

د. محمود إسماعيل

المحتويات

مقدمة : ٧

مدخل : الخصائص العامة للفكر التاريخى ١١

المبحث الأول : الفكر التاريخى فى قلب العالم الإسلامى ٢٧

أولا : فى العراق ٢٩

ثانيا : فى الشام ٥٨

ثالثا : فى مصر ٨١

رابعا : فى اليمن والحجاز ١٠٦

المبحث الثانى : الفكر التاريخى فى المشرق الإسلامى ١٢٧

أولا : قبل سقوط الخلافة العباسية ١٢٩

ثانيا : فى العصر المغولى ١٣٩

المبحث الثالث : الفكر التاريخى فى الغرب الإسلامى ١٥٣

أولا : فى بلاد المغرب ١٥٧

ثانيا : فى الأندلس ١٨٥

الببليوغرافيا ٢٠٥

مقدمة

يعرض هذا السفر للفكر التاريخى الإسلامى خلال عصر سيادة الاقطاع العسكرى؛ من منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن العاشر الهجريين؛ موضوعا، ومنهجا، ورؤية. وقد اعتمدنا فى مرجعيتنا إلى أمهات المصادر -وما أكثرها - التى تعاملنا معها فى دراسة المشروع بكافة جوانبه خصوصا مقدماتها التى تكشف عن التعريف بمؤلفيها وتوضح منهجياتهم ورؤاهم؛ مع ملاحظة ما انطوت عليه من مبالغات ومثاليات.

كما اعتمدنا على جهود بعض الدارسين المحدثين. مثل شاكر مصطفى وعباس العزاوى. اللذين قاما بجهد مشكور فى حصر مؤرخى العصر وقدما إحصاء ببليوغرافيا لمؤلفاتهم المعروفة والمفقودة. صحيح أن حظ هذين الإنجازين من الدرس والبحث والتحليل والتعليل جد محدود؛ ولكن حسبهما تقديم سجل واف. فى صورة تراجم. لمؤلفى العصر تعاملنا معه كمادة خام أولية، أمعنا فيها النظر وأعدنا تصيفها ودرسها لخدمة الموضوع.

كما أفدنا من المنهج «السميوطيقى» فى دراسة التواريخ المفقودة للكشف عن دلالاتها المعرفية فى ضوء الإحاطة بثقافة العصر عموما، ومسيرة الفكر التاريخى على نحو خاص.

أفدنا بالمثل من عدد كبير من الرسائل الجامعية خصوصا ما تعلق؛ منها بالدراسات المصدرية من قبل دراسيها؛ كما لم نهمل دراسات محققى المصادر الأصلية فى مقدمات ما حققوا من مؤلفات؛ والتعامل معها بحذر وحيطة؛ إذ كثيرا ما انطوت على مبالغات ومجازفات. كذا الإفادة من دراسات الكثيرين الذين اهتموا بالفكر التاريخى؛ سواء أكانوا عربا أم مستشرقين، وتعاملنا معها أيضا تعاملا نقديا.

على أن جل مادتنا التاريخية استقيناها من مصادرها الأصلية، وصححنا من خلالها الكثير من التقويمات الخاطئة للدارسين المحدثين.

إعتمادا على هذه المصادر جميعا؛ قمنا بتوظيف معلوماتها فى خدمة موضوع الدراسة وفق منهج قوامه الآتى :

أولا : تقسيم الموضوع إجرائيا إلى دوائر ثلاث كبرى: هى قلب العالم الإسلامى، ومشرقه، ومغربه، بهدف تيسير دراسة الموضوع خلال فترة زمانية طويلة؛ ونطاق مكانى شاسع يضم العالم الإسلامى برمته.

ثانيا : التعريف بالمؤرخين فيما تعلق بوظائفهم وانتماءاتهم المذهبية ووضعهم الطبقى وثقافتهم العامة؛ لما لذلك من تأثير فى كتاباتهم. كما قمنا بتصنيف للموضوعات حسب الأجناس والأنواع الخاصة بالكتابات التاريخية المعروفة؛ بهدف رصد ما استجد من موضوعات، وما بقى منها موروثا عن العصر السابق، وما اندثر فى عصر الدراسة. ثم تناولنا مرجعيات المؤرخين ومصادرهم التى اعتمدوا عليها فى تواليفهم.

وأولينا اهتماما خاصا بالوقوف على مناهجهم ورؤاهم ومقاصدهم وغاياتهم. كما قمنا بتقويم حظ كل مؤرخ من الموضوعية والحياد أو التعصب والانحياز؛ وتقويم نتاج إنجازات مؤرخى العصر، بالوقوف على القواسم المشتركة والخصوصيات الإقليمية فى الدوائر الثلاث؛ باعتماد المنهج المقارن والخروج من ذلك كله بأحكام عامة.

ثالثا : إفراد دراسة «مجهرية» عن مؤرخ شهير فى كل إقليم من أقاليم الدوائر الثلاث؛ كأنموذج ومثال؛ بهدف التحقق من مصداقية الاحكام العامة.

رابعا : عولنا على المنهج المادى الجدلى التاريخى الذى يربط الفكر التاريخى بالثقافة العامة للعصر، كذا يربط بين هذه الثقافة وبين محيطها الاجتماعى الذى أفرزها.

وإذ نؤكد على جدة هذا الإنجاز وما تطلبه من جهد مضن؛ نرجو أن يفيد منه الباحثون والدراسون المتخصصون فى دراسة التاريخ الإسلامى، ونعول على قدرتهم فى تقويم هذا العمل ونقده؛ عسانا أن نفيد منه فى مراجعة ما شابه من قصور، وتصويب ما شانه من أخطاء.

والله ولى التوفيق

محمود إسماعيل

المنصورة فى ٢٠٠٣/٨/١٧

مدخل

الخصائص العامة للفكر التاريخى

سبق وعرضنا للفكر التاريخى فى طورى التكوين والازدهار، وأرجعنا النشأة «لمعطيات الصحوة البورجوازية الأولى» التى وقعت ما بين منتصف القرن الثانى ومنتصف القرن الثالث الهجريين، كما ربطنا الازدهار «بالصحوة البورجوازية الثانية» والاخيرة؛ التى حدثت ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس الهجريين، وأوضحنا ارتباط هذا الازدهار بالتطور الفكرى والثقافى العام؛ حيث ظهرت نخبة من المؤرخين العظام من امثال البيرونى ومسكويه وابن الصابىء وابن حيان وابن حيون وغيرهم ممن رسخوا قواعد العلم وطوروا مناهجه تحقيقا وتفسيرا؛ إلى حد ولوج باب التنظير وفلسفة التاريخ.

وبنفس المنهج وذات الرؤية؛ سنعالج الفكر التاريخى فى طور الانهيار بربط هذا الانهيار باضمحلال الفكر والثقافة عموما خلال عصر وصمه ووسمه ابن خلدون بعصر «الانحطاط»؛ كذا بربط هذا الانحطاط الفكرى والثقافى العام بمعطيات سوسيو ـ تاريخية.

وقد افردنا سفرا بكامله لاسباب وتجليات تدهور العلوم والفنون والآداب، سبقه سفر آخر عن الخلفية التاريخية للعالم الإسلامى خلال عصر «الاقطاع العسكرى» الذى بدأ حول منتصف القرن الخامس واستمر حتى أوائل القرن العاشر الهجريين.

ولاغضاضة فى الإحاطة بأسباب ومظاهر هذا التدهور اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا؛ ولو فى عجالة. أما عن الاسباب؛ فتكمن فى سيطرة قوى أجنبية على البحار وانتزاعها السيادة من القوى الإسلامية؛ الأمر الذى أفضى إلى كساد التجارة فى العالم الإسلامى، وما ترتب على ذلك من تقلص الموارد الاقتصادية والاضطراب السياسى. وهو أمر مهد لظهور قوى بدوية «طرفدارية» مهمشة اجتاحت سائر أقاليم العالم الإسلامى وقفزت إلى السلطة عن طريق الغلبة، واستعاضت عن الموارد الاقتصادية المفقودة بإقرار نظام الاقطاع العسكرى. وهو نظام اقتصادى منغلق ومنكفىء ترتبت عليه نتائج وبيلة على سائر الاصعدة.

فعلى الصعيد الاقتصادى؛ كرست قوى الانتاج للاستهلاك وليس للتصدير، فغدت الواردات اكبر من الصادرات؛ الأمر الذى عرض العالم الإسلامى للضائقات والأزمات الاقتصادية. ولم يكن امام النظم البدوية

العسكرية الحاكمة من مناص إلا زيادة هذه الموارد عن طريق الغزو، أو زيادة الضرائب والمغارم، أو تزييف العملة، أو المصادرات. وترتب على ذلك مزيد من الثورات الاجتماعية، وما تبعها من تخريب؛ الأمر الذى أدى إلى المزيد من التدهور فى قوى الإنتاج. فعلى صعيد الزراعة؛ أهملت شئون السقاية والرى، ونزح الكثيرون من المزراعين إلى المدن لامتهان الحرف والصناعات الأمر الذى أفضى إلى تدهور الإنتاج الزراعى.

كما تدهورت الصناعة بسبب زيادة المغارم والشطط فى جباية الضرائب وكبس ،العسكر للاحياء الصناعية بهدف السلب والنهب.

أما التجارة الداخلية؛ فقد كسدت بالمثل نتيجة تقلص الإنتاج الزراعى والصناعى واضطراب الأمن الداخلى، وارتفاع الاسعار.

كسدت التجارة الخارجية بالمثل من جراء هيمنة قوى أجنبية على البحار هددت النشاط التجارى؛ خصوصا بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ففقد العالم الإسلامى موارد مالية هائلة بفقدانه الهيمنة على «تجارة العبور». وتقلصت التجارة الخارجية واقتصرت على استيراد السلع الكمالية اللازمة لحياة الترف التى عاشتها الطبقة الحاكمة ومن دار فى فلكها.

وعلى الصعيد السياسى؛ شهد العالم الإسلامى نظما متسلطة «أوتوقراطية» وحكومات عسكرية كانت زعاماتها أصلا من الرقيق المجلوب الذى قفز إلى السلطة عن طريق الغلبة والقوة؛ كما هو حال النظم الحاكمة فى الهند وفى مصر والشام. وتفاقمت المشكلات السياسية نتيجة صراعات العصبات العسكرية الطامحة إلى السلطة. وأفضى الحال إلى التجزئه والفوضى السياسية والفشل الإدارى وتفاقم المشكلات الاقتصادية، الأمر الذى أفضى إلى تعاظم الهبات والانتزاءات والفتن التى قمعت بعنف وقسوة. وترتب على ذلك تعاظم ظاهرة الصعلكة والفتوة والعيارة والشطارة؛ بما أفضى إلى المزيد من الحروب الداخلية.

وعلى الصعيد العسكرى؛ لم توفق النظم العسكرية الحاكمة فى مواجهة الاخطار الخارجية؛ كغزوات المغول والخطر الصليبى فى الشام ومصر والاندلس وصقلية.

أما عن الجوانب الاجتماعية؛ فقد فشت روح الإقليمية والعنصرية

والطائفية بعد خلخلة البناء الطبقى. فقد تعاظمت الطبقة الأرستقراطية من الحكام وقواد الجند ورجال الجهاز الإدارى والمالى. أما الطبقة الوسطى فقد اختفت أو كادت؛ بعد انضمام شرائحها الموسرة إلى الطبقة العليا، وهبوط شرائحها المنتجة إلى طبقة العامة التى ازدادت اتساعا وشكلت السواد الأعظم من السكان، سواء من الأحرار أو من الرقيق الذى راجت تجارته فى ذلك العصر.

وعلى المستوى الفكرى والثقافى؛ تدهورت العلوم والفنون والآداب؛ بانهيار العمران؛ على حد تعبير ابن خلدون. وافتى فقهاء السلطة بتحريم العلوم الطبيعية والفلسفية والرياضية وتجريم المشتغلين بها. لذلك تعاظمت الاتجاهات النصية والغيبية على أنقاض العقلانية والتجريب؛ خصوصا بعد تعاظم الحركة الصوفية وانتشار الطرقية بشعوذاتها وخرافاتها. كما اختفت روح الإبداع والابتكار وشاع النقل والتقليد، واختزلت المعارف فى العلوم الدينية التى تحولت بدورها إلى مجرد شروح وملخصات.

تلك رؤية عامة موجزة عن الخلفية التاريخية والثقافية التى عكست سلبياتها على الفكر التاريخى.

لذلك كان من الطبيعى أن يعارك هذا النوع من المعرفة أزمة؛ باعتبار التاريخ جزءا من الثقافة العامة. وصدق من ذهب إلى أن «علم التاريخ الإسلامى ارتبط فى كل العصور بالتطور العام للحركة الفكرية» [1] وإذا أثبتنا تدهور الحركة الفكرية وأرجعناها إلى تدهور الواقع السوسيو اقتصادى والسوسيو سياسى؛ إنعكس هذا التدهور على الفكر التاريخى موضوعا ومنهجا ورؤية وغاية. وما نود تأكيده أن هذا التدهور كان عاما وشاملا فى جميع أرجاء العالم الإسلامى. لذلك أخطأ من صنف الفكر التاريخى على أساس وجود «مدارس» تختص كل منها بخصائص مميزة[2]، كذا حين ميز فى تاريخ تلك الفترة الزمنية بين عصرين مختلفين تميز الفكر التاريخى إبان كل منهما بسمات خاصة؛ العصر الأول يشمل الفترة الزمنية السابقة على سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ والعصر الثانى يمتد من تاريخ السقوط إلى اوائل القرن العاشر الهجرى[3].

---

(١) انظر: روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، الترجمة العربية، ص٤٥، بغداد١٩٦٤.

(٢) انظر: شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون، جـ١، ص٢٧٣، بيروت ١٩٨٣.

(٣) نفسه، جـ٣، ص٧٩، بيروت ١٩٩٠.

ويرجع هذا الخطأ ـ فى الحالين معا ـ إلى أخذ الباحث بتصنيف أحد المستشرقين الكلاسيكيين الذى عالج الفكر التاريخى بمعزل عن تاريخيته[1] وقد سبق لنا تبيان وحدة الصيرورة التاريخية والفكرية لتشمل سائر بلاد العالم الإسلامى من جهة، وتشمل أيضا الفترة الزمانية الممتدة ما بين منتصف القرن الخامس الهجرى واوائل القرن العاشر الهجرى أيضا بما يؤكد انتشار وذيوع ظاهرة التدهور فى الفكر التاريخى بالتبعية. وحسبنا ان هذا المستشرق اعترف بتلك الحقيقة ـ بما يدعم وجهة نظرنا ـ فى موضع آخر من كتابه؛ حين قال: «اتخذت جل المؤلفات التاريخية فى ذلك العهد ـ أى بعد سقوط الخلافة عام ٦٥٦هـ ـ نفس السبيل الذى توجهت إليه من قبل»[2].

ترجع هذه الاخطاء وغيرها - فى أحكام جل الدارسين للفكر التاريخى إلى إغفال «التاريخية»؛ وهو أمر سوف نتحاشاه فى توجهنا لدراسة الموضوع، ويتأسس هذا التوجه الجديد على عدة إجراءات نوجزها فيما يلى:

أولا : الاهتمام باستقصاء نوعية المهن التى امتهنها مؤرخو ذلك العصر، وتحديد من ارتبط منهم بالسلطة أو من اشتغل منهم بعلوم الحديث والفقه أو احترف الوراقة أو الطب أو التجارة أو غيرها.

ثانيا : الوقوف على مدى ثقافة هؤلاء المؤرخين من حيث الاتساع أو الانغلاق، كذا معرفة انتماءاتهم المذهبية وأوضاعهم الطبقية، ومدى تأثير ذلك كله فى توجهاتهم ومناهجهم ومقاصدهم من دراسة التاريخ.

ثالثا : تحديد أنواع وأجناس الكتابة التاريخية، من تواريخ عامة أو عالمية، أو تواريخ إقليمية، أو تواريخ مدن أو دول أو سير أو تراجم، كذا تبيان ما استحدث من موضوعات وما اختفى واندثر.

رابعا : معرفة الأصول المرجعية التى استقى منها المؤرخون معارفهم التارخية، من مشاهدة وعيان وسماع ورواية، واعتماد على الوثائق، أو نقل واقتباس من المصنفات التاريخية السابقة.

خامسا : الوقوف على المناهج التى عول عليها المؤرخون فى تصنيف

(١) انظر: جب: علم التاريخ ، الترجمة العربية ، ص ٨٩، بيروت ١٩٨١.

(٢) نفسه، ص ٨٩ ، ٩٠.

وتبويب تلك المادة التاريخية؛ سواء أكانت حولية أو فى صورة موضوعات متكاملة، أو الجمع بينهما معا فى منهج واحد، وكذا معرفة مواقفهم من الإسناد إثباتا أو إهمالا، واخيرا مدى تعويلهم على النقد، أو اللجوء إلى النقل دون روية أو فحص.

سادسا : محاولة تحديد اتجاهات التعليل والتفسير والتأويل؛ وتحديد الرؤى من حيث تأسيسها على العقل أو النقل أو اللاهوت أو الأساطير أو الخرافات.

سابعا : الوقوف على المقاصد والغايات التى توخاها المؤرخون من و راء كتاباتهم؛ ومعرفة ما إذا كانت معرفية قحة أو تعليمية أخلاقية أو تبريرية لسياسات الحكام، نظرا لتأثير تلك المقاصد فى تحديد منطلقات الكتابة التاريخية وتقدير مدى مصداقيتها.

ثامنا : دراسة أسلوب الكتابة التاريخية، من حيث كونها نثرا مرسلا أو مسجوعا بليغا أم ركيكا، كذا الاهتمام بآلية الاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية والشعر، وإثبات أقوال الحكماء ونصوص الوثائق ونحوها؛ تأسيسا على صدق مقولة العلاقة العضوية بين الشكل والمضمون.

تاسعا : معرفة مكانة علم التاريخ - فى هذا العصر - بين العلوم الأخرى، والوقوف على مدى تقديره أو تهميشه، ومقارنة تلك المكانة بما كانت عليه فى العصور السابقة، ومدى الإفادة من هذه العلوم ومعارفها فيما كتبه مؤرخو العصر من مصنفات.

عاشرا : تقويم نتاج الكتابة التاريخية؛ بالكشف عما إذا كانت ابداعا وابتكارات أو نقلا واجترارا أو تكرارا مسترشدين فى عملية التقويم والتثمين بمعطيات العصر السوسيورتاريخية والسوسيو - ثقافية.

أولا : تصنيف المؤرخين :

نلاحظ أن معظم مؤرخى العصر كانوا محدثين غلبوا الرواية على الدراية والسماع على العيان، بما يضفى طابعا دينيا على مناهجهم ورؤاهم. كما كان جل هؤلاء من المشتغلين بالدواوين أو مدرسين فى المدارس التى اهتمت أصلا بالعلوم الشرعية وعلى رأسها علم الحديث. كما شاع فى هذا العصر وجود مؤرخين من السلاطين والوزراء الذين

تعاطوا التاريخ من باب الهواية. بالمثل تعاظمت ظاهرة «مؤرخ السلطة» الذى كتب التاريخ بأمر الحاكم أو الوزير، أو على الأقل قدم تواريخه هدية للحاكم أو الوزير أو القائد طمعا فى المنح والإغداقات[1]. كما أقدم الاشراف العلويون على كتابة تواريخ مذهبهم وسير أعلامه بهدف الحفاظ على المذهب الشيعى الذى تعرض معتنقوه للبطش والاضطهاد. ولا غرو؛ فقد أعدمت وأحرقت الكثير من كتاباتهم ولم يبق منها إلا النذر اليسير. وينسحب الحال ذاته على مؤرخى الخوارج. وبديهى ان يشتغل الوراقون بكتابة التاريخ. وأحرز بعضهم أموالا وثر وات من جراء الاتجار بها؛ لذلك غلب الهدف التجارى على الهدف المعرفى فى الكثير مما صنفوه. ولعل هذا يفسر أيضا لماذا كتب التجار فى التاريخ من أجل الارتزاق بعد أن بارت بضاعتهم فى مجتمع سادته الإقطاعية.

ولانتشار التصوف فى المجتمعات الإسلامية؛ إشتغل بعض شيوخ المتصوفة بكتابة التاريخ الخاص بطرقهم الصوفية وتراجم اعلامها؛ وهى كتابات غلبت عليها الطابع المنقبى و غصت بالكرامات الخرافات.

واشتغل بعض النصارى خصوصا من الأطباء ورجال الدين بالكتابة فى التاريخ. وحوت كتابات الأطباء بعض موضوعات الفلسفة وعلوم الحكمة التى صودرت وجرمت فى هذا العصر . كما نحت كتابات البطاركة والقساوسة نحوا لاهوتيا كنسيا؛ إذ أرخ اصحابها فى الأصل للكنائس والاديرة، واحتفلوا بتسجيل أعمال آباء الكنيسة وأعلامها بهدف الحفاظ على تراثها فى عصر عمته روح التعصب واضطهاد الاقليات الدينية والمذهبية. ولم نعدم وجود مؤرخين من الفقهاء واللغويين والنحاة والأدباء والشعراء أرخوا لمعارفهم وسير أعلامها انطلاقا من نزعة ضيقة ورؤية منحازة وذوق عقيم فى التقويم والنقد، وغلب على تواريخ الفقهاء طابع التعصب للمذهب الفقهى تعبيرا عن تفشى ظاهرة الصراع بين فقهاء المذاهب الأربعة: بعد أن ذوت المذاهب والفرق الدينية السياسية والكلامية فى معظم أقاليم العالم الإسلامى.

ثانيا ثقافة المؤرخين :

غلبت الثقافة الدينية فى هذا العصر بعد تحريم العلوم الدنيوية وتجريم المشتغلين بها؛ وإن وجدت بعض فلولها خصوصا عند مؤرخى

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص ١٢٤، الإسكندرية ١٩٦٧.

الشيعة أو مؤرخى الكنيسة. كما وجدت نظم حاكمة فى الاطراف ـ مثل بلاد ما وراء النهر واليمن والأندلس ـ إتسمت ببصيص من الاستنارة فى عهود بعض حكامها، خففت من نزعة التعصب وغلواء الاضطهاد؛ فسمحوا بتداول قسط محدود من المعارف العلمية الموروثة عن العصر السابق. وكانت الغاية هى الإفادة من هذه المعارف فى أمور عملية، كما هو الحال بالنسبة للطب بهدف التداوى والعلاج، والفلك بهدف الإفادة منه فى مجال التنجيم ومعرفة المستقبل.

أما عن علم الحديث؛ فقد ساد ثقافة مؤرخى العصر لصلته بالتاريخ موضوعا ومنهجا [1] لذلك كان معظم مؤرخى العصر محدثين أصلا اشتغلوا بالتاريخ.

وبرغم تحريم علم الكلام؛ فقد نهل منه بعض مؤرخى السنة من الاشاعرة؛ بهدف مساجلة خصومهم من المعتزلة وأتباع المذهب الشيعى. ونظرا لتعاظم الخلافات الفقهية بين معتنقى المذاهب الاربعة؛ فقد اهتم المؤرخون الفقهاء بمذهبهم الأصلى والإحاطة بالمذاهب الأخرى المتنافسة والمتصارعة؛ بهدف المحاجاة والمساجلة وتوظيف المعارف الفقهية فى الصرعات السياسية والاجتماعية التى تعاظمت فى هذا العصر. وقد انتقل هذا الصراع بين المؤرخين حتى وصل إلى درجة تعرض المخالفين لمذهب الدولة الفقهى للبطش الاضطهاد؛ فهرب الكثيرون منهم إلى أقاليم أخرى تعتنق مذهبهم؛ حفاظا على أرواحهم وطموحا لنيل الحظوة عند حكامها.

وأحاط معظم المؤرخين بقدر من علوم اللغة والأدب، نثرا وشعرا للحاجة إليها فى التسجيل والتدوين. كما اهتم مؤرخو الصوفية بعلوم التصوف الذى شاع وانتشر فى سائر أرجاء العالم الإسلامى، حتى غلب على ثقافة العصر عند الخاصة والعامة على السواء.

خلاصة القول ؛ إن ثقافة مؤرخى هذا العصر كانت ضئيلة ضيقة الأفق إذا ما قيست بنظيرتها عند مؤرخى العصر السابق؛ وهو أمر سوف

---

(١) ياسر نور: التأثير المنهجى لعلوم الحديث في مناهج المؤرخين المحدثين، رسالة ماجستير- مخطوطة - كلية الآداب ،جامعة المنصوره، ص ١٢٣، المنصوره ١٩٩٩.

ينعكس سلبا على كتاباتهم موضوعا ومنهجا ورؤية، كذا على أسلوبهم فى الكتابة؛ إذ تقلصت الكتابة بالعربية بعد انتشار اللغة الفارسية فى الشرق الإسلامى، كما فشا اللحن والركاكة والصنعة اللفظية عند من دونوا مصنفاتهم التاريخية باللغة العربية [١] وإن شذت القاعدة نسبيا عند عدد ضئيل من المؤرخين الذين أجادوا العربية وجمعوا بينها وبين بعض اللغات الأخرى.

ثالثا : أجناس الكتابة التاريخية وموضوعاتها :

نلاحظ أن بعض هذه الأصناف انقرضت واختفت، وبعضها استجد واستحدث، وثالثها راج وانتشر وتعاظم كما؛ لا كيفا ومن الأجناس التى اختفت ؛ الكتابة عن القضاء والقضاة، والتأريخ للكتاب، وأخيرا الكتابة فى موضوع الخراج. وتفسير انقراض الكتابة فى القضاء يرجع إلى تفشى الظلم وانتهاك العدالة. كما ان إهمال الكتابة عن طبقة «الكتاب» راجع إلى تدهور مكانتهم السياسية والفكرية فأصبحوا مجرد موظفين إداريين[٢] ويفسر العزوف عن الكتابة فى «الخراج» إلى سياسة الشطط المالى والجبائى والخروج عن تعاليم الشرع؛ فيما نرى.

أما عن الموضوعات التى استحدثت، فأهمها ما يتعلق بالتدابير والنصائح والتوجيهات السياسية؛ بهدف تقديم الإرشاد والنصح لحكام طغاة؛ بعد إخفاق الثورات الاجتماعية وقمعها بعنف وقسوة، هذا فضلا عما قام به بعض الحكام من الكتابة فى هذا المجال؛ توعية وترشيدا لأبنائهمم من ولاة عهودهم؛ ليضمنوا لسلطانهم البقاء والاستمرار.

وثمة صنف آخر استجد واستحدث؛ وهو الكتابة فى سير الأمراء والوزراء وكبار قادة الجيوش خلال عصر تعاظم فيه نفوذ الوزراء؛ لقيامهم بالنصيب الأوفر فى إدارة وتسيير شئون دولهم؛ بعد انشغال الحكام بحياة الترف والدعة والانغماس فى الملاذ. لذلك اهتم المؤرخون بالتأريخ لهؤلاء الوزراء الكبار طمعا فى كسب ودهم ونيل عطاياهم أو اتقاء لشرورهم. كما اهتموا بسير القواد فى عصر مار بالصراعات والمعارك الداخلية والخارجية. عصر شأنه هكذا؛ دفع المؤرخين إلى

---

(١) جب :المرجع السابق، ص ٨٩.

(٢) شاكر مصطفى : المرجع السابق، جـ١، ص ٣١٩.

إرضــاء الحكام بالكتــابة فى «الأســمــار» و «الـوعظ» و «النوادر» و «العجائب» و«الغرائب»؛ بما يعكس تأثير الواقع الاجتماعى والثقافى فى الكتـابة التـاريخـيـة. كـذلك اسـتـحـدث المؤرخـون مـوضـوع التـاريخ فى «الديارات» وإبراز حياة ساكنيها؛ وهى حياة جمعت بين العبادة والنسك وبين التـهـتك والشـذوذ، كـذلك راجت الكتـابة فـى «الهـدايا والتـحـف»؛ مجـاراة لذيوع المفـاسـد الاجـتمـاعـيـة والسـيـاسـيـة. هـذا فـضـلا عن ذيوع الكتابة فى مـوضـوع الحـرب والسـلاح والفروسـية بما يتسق مع روح عصـر غص بالحروب الداخلية والخارجية (١).

أما عن الاجناس والموضوعات التى خملت واضمحلت فأهمها «التواريخ العـالمية». وهـذا راجـع ـ فيـمـا نرى ـ إلى تعـاظم ظاهـرة الاقليـمـيـة والمحليـة كنتيجة طبيعـيـة للتجـزئة السيـاسـيـة الناجـمة عن سيـادة النمط الاقطاعـى. هذا فـضـلا عـن تعـاظم الاخطار الخـارجـيـة من لدن قـوى أجنبـيـة غـازية؛ كالصليبيين والمغول فى الشرق والقوى النصـرانية من ا لنورمان و نصارى الأندلس فى الغـرب؛ الأمـر الذى افضـى إلى العزوف عن الاهتمام بأخبار القوى العالمية كموقف فكرى بعد العجز عن مواجهتها عسكريا لذلك ندرت الكتابة فى مجـال «التواريخ العـالمية» وشـاب مـا كتب فيها الكثير من المغالط والبـتـر(٢) والتـزييـف. ويرجـع ذلك أيضـا إلى قـصـور فى دائرة مـعـارف مؤرخى هـذا العصر كنتيجة منطقية لتدهور الفكر والثقافة بعامة، وكلها أمـور جـعلت المؤرخين ينقلون فى هـذا الصـدد عن مـؤلفـات السـابقين بأخطائها وطابعـهـا الخـرافـى والأسطورى. وأن كان مـن الإنصـاف التنوية ببـعض الكتـابات من لدن بعض المؤرخين الرسـمـيين النابهين الذين زاروا بعض أقـاليم «دار الحـرب» بهدف السفارة أو عقد اتفـاقات خـاصة بتداول التجارة (٣).

أمـا عـن الأجناس والموضـوعـات الموروثة عن العـصـر السـابق وتعـاظمت وتكاثرت فى هـذا العـصـر، فـأهـمهـا الاهـتمـام «بالتواريخ المحليـة»؛ كنتيـجـة منطقـيـة للـتـجـزئة الاقطاعـيـة والتـشـرذم السـيـاسـى، وتعـاظم النزعـات الاقليمية والنعرات العنصرية والتعصب الطائفى. لذلك تكاثر هذا الصنف من الكتابة التـاريخية وغلب عليه الاسـراف فى ذكر الفضائل والتفاخر إلى حد انتـحـال الاحـاديث، وتأويل آيات القرآن والاستـشـهـاد بأقـوال السلف

---

(١) نفسه، ص ٣١٢.

(٢) روزنتال: المرجع السابق، ص٢٠٤.

(٣) جب: المرجع السابق، ص ١٠٥.

لإظهار تميز الإقليم المكتوب عنه عن غيره من الأقاليم. [١]

ولنفس الأسباب وبذات الرؤية كثرت الكتابة فى «تواريخ المدن» بذكر فضائلها وميزاتها الجغرافية ومكانتها فى تاريخ العصور السالفة. وقد تضخمت تواريخ المدن نظرا لحشوها بالتراجم عن مشاهير أعيانها وفقهائها ومحدثيها وأدبائها وشعرائها وشيوخ متصوفيها. وينم ذلك عن تضاؤل نزعة الولاء للدولة واستبدالها بالانتماء للمدينة؛ خصوصا فى عصر تعرضت فيه المدن لأخطار الغزو والنهب والسلب.

وإذا كانت ثمة فائدة لهذا الصنف من الكتابة التاريخية، فتمثل فى وفرة المعلومات التى تناولت معالم المدينة من خطط وأسواق ومساجد وحمامات وربط.. الخ [٢]

إهتم مؤرخو العصر أيضا بالكتابة عن «الأسرات الحاكمة» بتوجيه من الحكام فى غالب الأحيان. وتبارى المؤرخون فى تمجيدها وتبرير سياساتها، اتقاء لشرور الحكام من ناحية، وطمعا فى إنعاماتهم وإغداقاتهم من ناحية اخرى [٣]. وتعاظمت هذه المؤلفات كما وحجما لحشوها بالتراجم فى الوفيات وسير المشاهير فى ميادين السياسية والأدب والعلم النقلى والشعراء. ومما يفت فى مصداقيتها كونها كتبت فى عهود الحكام؛ لذلك غصت بالرياء والملق والإسراف فى ذكر الفضائل والشيم والمآثر والتغاضى عن النقائص والمفاسد [٤]. كما افتقرت إلى الصدق والموضوعية؛ خصوصا أن بعضها كان من تأليف الحكام أنفسهم أو وزرائهم أو كتاب دواوينهم. كما افتقرت إلى الابداع والابتكار فكانت مسخا مشوشا محدود الفائدة. كما شاعت الكتابة عن «سير» الحكام والوزراء وقادة العسكر وشيوخ المتصوفة[٥] فى صورة تراجم مستقلة، أو فى خضم تراجم عامة أو فى التواريخ المحلية وتواريخ المدن، وحتى فى التواريخ العالمية. وإذ تعاظمت الكتابة عن سير الشعراء والعلماء؛ فلا يخلو ذلك من دلالة على تجاهل حكام طغاة اشتهروا بالجهل والظلم وسوء السيرة [٦]. أما الكتابة عن الفقهاء والمحدثين والمتصوفة، فتعكس المنظور

---

(١) عفت الشرقاوى: أدب التاريخ عند العرب، ٢٧٩ -٢٨٠، بيروت، د.ت.
(٢) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٢٣.
(٣) جب: المرجع السابق، ص ٩٩.
(٤) شاكر مصطفى :المرجع السابق، جـ١، ص ٣٦٦ - ٣٦٨ .
(٥) جب: المرجع السابق، ص ١١٢.
(٦) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ١، ص ٤٦٣ .

الدينى الغلاب على رؤية مؤرخى العصر؛ وفى انطوائها على الكرامات والخرافات والقصص والنوادر والغرائب؛ ما يؤشر أيضا على ضحالة الثقافة وسطحيتها (١) . وفى الاهتمام بالوفيات (٢) ما ينم عن تفشى نزعات الإحباط واليأس وفقدان الأمل فى الإصلاح والتغيير. ومع ذلك تنطوى هذه المصنفات على معلومات ذاخرة وثرية - برغم ضآلة قيمتها الفنية - تقدم صورة واضحة عن العصر ومدى ما وصل إليه من تدهور وانحطاط (٣).

افضى تعاظم الكتابة فى التراجم والسير إلى ظهور فن «المعاجم» التى شاعت فى هذا العصر؛ خصوصا فى بلاد الشام؛(٤) ومن اشهرها ما صنفه ابن خلكان وابن حجر وياقوت الحموى؛ حيث جرى تصنيفها وتبويبها على حروف الهجاء (٥).

ونظرا لتراكم المعارف التاريخية الموروثة عن العصور السابقة وصعوبة تصنيفها؛ ظهرت «الموسوعات»؛ التى لا تعبر عن ثقافة عريضة ومبدعة، بقدر ما تنم عن الجمع والنقل فى شتى ميادين المعرفة؛ دون تصنيف متسق أو تمحيص نقدى (٦) .

كما أفضى تفشى الجهل وخفوت الرغبة فى طلب العلم والقصور فى التأليف المبتكر؛ إلى تعاظم ظاهرة «التلخيص» التى لا تعبر بحال من الاحوال عن أدنى إبداع أو ابتكار؛ بل كانت الملخصات فى معظم الأحيان مخلة وعاجزة عن إيضاح ماحوته الأصول التى جرى تلخيصها (٧) . لذلك حمل ابن خلدون على هذه الظاهرة واعتبرها «مخلة بالعلم والتعليم».(٨)

خلاصة القول؛ إن أصناف الكتابة التاريخية رغم تنوعها وتعدد موضوعاتها؛ كانت فى التحليل الاخير معبرة عن تعاظم فى الكم؛ وضمور فى الكيف.

---

(١) نفسه، جـ٣، ص ١٥، بيروت ١٩٩٣.

(٢) مرجوليوث :دراسات عن المؤرخين العرب ، الترجمة العربية، ص ١٦٨، بيروت، د.ت .

(٣) جب : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٤) نفسه ، ص ١٠٢.

(٥) نفسه، ص ١٠٣ .

(٦) روزنتال: المرجع السابق، ص١٩٩، شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ ٣، ص٨١، بيروت ١٩٩٠.

(٧) آلدوميلى: العلم عند العرب، الترجمة العربية، ص ٥١٦، القاهرة ١٩٦٢.

(٨) ابن خلدون: المقدمة، ص ٥٣٢، القاهرة، د.ت .

رابعا : الإطار المرجعى :

تعددت مصادر المعرفة التاريخية وتنوعت ما بين النقل وشهادة العيان والسماع والمساءلة والوثائق وغيرها. إلا أن النقل شكل المرجعية الأساسية خصوصا؛ فيما يتعلق بالعصور السابقة وشاعت آفة السطو، حيث أدمجت أحيانا كتب بعينها ضمن ما كتبه المؤرخ دون أدنى إشارة - إلى حد ظهور مؤلفات تندد بتلك الظاهرة. ولعل فى ذلك ما يؤكد خطأ أحكام بعض الدارسين الذين بهروا بضخامة مصنفات هذا العصر؛ فاعتبروه عصر ازدهار فى الكتابة التاريخية. لقد كان النقل والاقتباس والسطو عادة لم يسلم منها حتى كبار المؤرخين؛ من أمثال ابن الأثير والمقريزى وابن خلدون. فما نقله مؤرخو العصر عن سابقيهم خلو من أية قيمة علمية؛ اللهم إلا الاحتفاظ بمنقولات سابقة مفقودة؛ لذلك أمكن معرفتها من خلال مؤلفات مؤرخى هذا العصر. كما احتفظوا أيضا بالكثير من الوثائق التى فقدت بالمثل يمكن التعويل عليها فى البحث والدرس التاريخى (١).

وبرغم تنديد ابن خلدون بهذه الظاهرة؛ لم يسلم نفسه من مغبتها؛ إذ اثبتنا فى دراسة سابقة كيف نقل من رسائل إخوان الصفا دون أن يشير إليها (٢).

يقول ابن خلدون (٣) عن هذه الظاهرة «ونقلها عنهم الكافة من حفظة النظر والغفلة عن القياس، ونقلوها هم أيضا كذلك من غير بحث ولا روية، واندرجت فى محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا»، وأرجع ذلك إلى «الجهل» من ناحية «والثقة بالناقلين» (٤) من ناحية أخرى. كما أرجعها بعض الدارسين المحدثين إلى تفشى آفة «التقليد» (٥) من ناحية ثالثة.

لقد وقف ابن خلدون على حقيقة عدم التحرى وانعدام النقد فيما نقل؛ بما يشى بعدم قيمة المنقول، كذا فطنته إلى عدم التصنيف والترتيب؛ الأمر الذى افضى إلى التخليط فى النهاية؛ وتلك حقيقة أكدها بعض الدارسين المحدثين.(٦) وإذا كان هناك تدخل ما يذكر للناقل؛ فليس إلا الاختيار والانتقاء.

---

(١) عفت الشرقاوى: المرجع السابق، ص٢٧٦.

(٢) انظر: محمود إسماعيل: نهاية اسطورة، القاهرة ٢٠٠٠.

(٣) المقدمة، ص٢٨.

(٤) نفسه، ص٣٨.

(٥) انظر: شاكر مصطفى : المرجع السابق جـ١، ص٢٧٤.

(٦) مرجوليوث: المرجع السابق، ص١٧٠.

أما بخصوص الاعتماد على الوثائق؛ فقد جرى التسليم بمصداقيتها أيضا؛ فذكرت وأثبتت فى كتب المؤرخين ممن اشتغلوا فى دواوين الدولة وجهازها الإدارى. وإذا كان لذلك من قيمة؛ فلا تعد إثباتها بعد أن فقدت أصولها.

أما عن المشاهدة والعيان؛ فتلك خاصية تميزت بها كتابات المؤرخين من الوزراء والحكام الذين شاركوا فى الأحداث السياسية أو المعارك الحربية.

وعول المؤرخون من أهل الحديث على «المساءلة» فى جمع الروايات ممن كانوا قريبى العهد من الأحداث والوقائع، وقد اتبعوا فى ذلك مناهج علم الحديث التى سوف نشير إليها بعد قليل.

كما اعتمد بعض مؤرخى العصر على «السماع»، وأثبتوا روايات من سمعوا عنهم، وسبقوها باصطلاحات مثل: «سمعت» و «حدثنى» و «أخبرنى» و «ابنأنى».... الخ (١)

خلاصة القول؛ إن مؤرخى هذا العصر جمعوا مادتهم العلمية من مصادر شتى ومظان متنوعة جرى التعويل عليها فى الكتابة التاريخية؛ لكن دون فحص أو نقد أدلى لها.

خامسا: المناهج:

تنوعت المناهج بتنوع المؤرخين الذين طبقوها فى دراسة التاريخ، دونما أدنى ابداع أو ابتكار. فمنهم من اتبع «النظام الحولى» بترتيب الوقائع والأحداث على حساب الأعوام والشهور والأيام.

ومنهم من سلك طريق السابقين فى عرض الأحداث فى صورة «موضوعات » لا تحفل بالتسلسل الكرونولوجى، ومنهم من جمع بين المنهجين؛ معا فرتبوا الموضوعات المدروسة وفق تسلسل وقائعها وأحداثها (٢).

ومن المؤرخين من اعتمد «الإسناد»؛ فذكر الرواية مثبتا سلسلة رواتها؛ خصوصا بالنسبة للمؤرخين المحدثين، ومنهم من اختصر السند

---

(١) ياسر نور: المرجع السابق، ص ٤٤، ٤٥

(٢) جب: المرجع السابق، ص٩١.

أو أجمله، ومنهم من أشار إلى مصادره فى مقدمة كتابه وأغفل السند كلية.

ولا يقف الإسناد دليلا صحة الرواية؛ فما أكثر ما انتحل من روايات اعتمدت على عنعنات مطولة . وفى كثير من الأحيان اهتم المؤرخون والمحدثون منهم خصوصا ، بالاسناد أكثر من الاهتمام بالمعنى؛ أى بالشكل على حساب المضمون؛ فاوردوا الخبر فى جملة واحدة وسلسلة رواته فى عدة سطور. يقول احدهم على سبيل المثال: «أخبرنى أبو الحسن محمد بن احمد بن رزق البزاز؛ قال : نبأنا جعفر الخالدى املاء؛ قال: رايت فى زمن ابى جعفر كبشا بدرهم»(١) وعند غيره وصل إثبات السند إلى نحو عشرة سطور بينما ذكرت الرواية فى سطر واحد(٢) ولعل هذا يفسر لماذا تضخمت المصنفات التاريخية فى هذا العصر وتعددت مجلداتها (٣) دون إبداع أو ابتكار. ولم يحفل مؤرخو العصر كثيرا بنقد «المتن» وفقا لمنهج الجرح والتعديل المتبع فى علم الحديث؛ اللهم إلا فى حالات نادرة. إذ قصر بعض المؤرخين توظيف هذا المنهج على «التمييز بين المقبول والمردود»(٤) . وصدق بعضهم رويات اسطورية أو خرافية لا لشىء إلا لصحة أسانيدها (٥) .

ولا غرو فقد آثر المؤرخون المحدثون نقل رواياتهم من علماء الحديث أكثر من اعتمادهم على المؤرخين، كما فضلوا روايات بعض المحدثين رغم خطئها على روايات المؤرخين رغم صدقها (٦) . وفى بعض الاحيان سوغوا الروايات الخاطئة رغم كذبها لانها - فى نظرهم - لا تخلو من فائدة فى مجال الإرشاد والوعظ. وفى كل الأحوال؛ جرى اعتماد الرواية الكاذبة لاستنادها إلى «التواتر» والذيوع (٧) .

ومن المتواتر منهجيا عند مؤرخى العصر؛ التدليل على صدق الاخبارбالاستشهاد بالقرآن الكريم والاحاديث النبوية واقوال السلف الصالح وشعر الشعراء، وليس عن طريق النقد المنهجى وفق القواعد التى عددها ابن خلدون مثل قياس الغائب علي الشاهد أو الاحتكام إلى طبائع

---

(١) انظر: الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد، جـ١، ص٧٠، القاهرة ١٩٣١.
(٢) انظر: على سبيل المثال:
ابن سيد الناس: عيون الآثر فى فنون المغازى وشمائل السير، ج٢، ص٣٧٤، القاهرة ١٣٥٦هـ.
(٣) انظر: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ١، ص٢٦١، دمشق ١٩٥١.
(٤) السخاوى: الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص٨٧، ٨٨، القاهرة ١٩٨٩.
(٥) انظر: ابن عبد البر: الدرر فى اختصار المغازى والسير، ص٦، القاهرة د.ت .
(٦) نفسه، جـ ٣، ص٣٦٥.
(٧) انظر: ابن حجر: الإصابة فى تمييز الصحابة، جـ٢، ص١٤٤، القاهرة ١٣٢٨هـ.

العمران ... الخ [1] وهى برغم أهميتها لم يأخذ بها ابن خلدون نفسه عندما الف كتاب «الحبر». خلاصة القول؛ أن مؤرخى هذا العصر اقتفوا منهجيا أثر سابقيهم دون أدنى إبداع أو ابتكار؛ بل منهم من عجز عن تطبيق هذه المناهج فيما صنف من مؤلفات.

سادسا : التعليل والتفسير :

إذا كان غياب «النقد» سمة أساسية فى كتابات مؤرخى العصر؛ فلم يكن ذلك إلا نتيجة لذيوع «التقليد». لقد تحول النقد إلى «الانتقاد» لكتابات الخصوم بهدف دحضها بالحق أو بالباطل. ونظرا لتدهور العلوم الدنيوية وتفشى الجهل [2] لم يعول المؤرخون على «السببية» فى تفسير الأحداث؛ قدر تعويلهم على التيولوجيا والأسطرة والخرافة فى معظم الأحيان .

لقد شاع رد العلل والاسباب إلى«العناية الإلهية» باعتبار وقائع التاريخ قدرا مقدورا، وليس فعاليات بشر. بل هى نتاج كرامات الأولياء ومعجزات الأقطاب عند المؤرخين المتصوفة [3] . وفى هذا الإطار جرى اعتبار الكوارث الطبيعية والنوازل والنكبات انتقاما إلهيا لخروج البشر عن جادة الشريعة.

كما جرى تقويم سياسات الحكام وأفعال البشر فى إطار العودة إلى صدر الإسلام باعتباره معيارا ماضويا ذهبيا تقاس عليه وقائع الحاضر، ولما كان هذا الحاضر تعيسا وغاصا بالظلم والجور والفساد؛ شاع عند مؤرخى العصر أن التغيير لن يتم إلا على يد «المهدى المنتظر» عند الشيعة و «الإمام المجدد» الذى يأتى على رأس كل قرن؛ كما هو الحال عند السنة و«قطب من أولياء الله» عند المتصوفة. لذلك اعتمد المؤرخون النبوءات والتنجيم فى استشراف آفاق المستقبل[4] كما جرى إحياء «الاسرائيليات» التى فسر بها القدماء وقائع التاريخ القديم؛ من اجل تفسير الحاضر الإسلامى آنذاك [5] وفى كل الاحوال؛ سادت فكرة «العناية الالهية»

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص٣٥.

(٢) ايف لاكوست: العلامة ابن خلدون، الترجمة العربية، ص١٨٥، بيروت د.ت.

(٣) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ١، ص٣٧٥.

(٤) آلدوميلى: المرجع السابق، ص٥٢٣.

(٥) روزنتال: ص٢٠٣.

باعتبارها حجر الزاوية فى تفسير الماضى وصياغة وقائع الحاضر واستشراف المستقبل [1].

أما من حاولوا ولوج باب التاريخ باعتباره نتاج فعاليات بشرية تحتاج إلى «النظر والتحقيق.. والعلم بكيفيات الوقائع واسبابها» [2] فقد تنوعت تفسيراتهم إلى حد التضارب والتناقض. فقد جمع ابن خلدون مثلا - بين التفسير المادى والتفسير البيولوجى، والتفسير الغيبى والتفسير المعرفى فى مقدمته، إلى جانب نظرات وضعية مستمدة من «أحوال العمران» [3] كما جمع بين قدرات العقل والاعتقاد فى السحر والشعوذة والخرافة [4]؛ فى نفس الكتاب.

وإذ فطن مؤرخ كالمقريزى - إلى أهمية الاقتصاد فى التعليل والتفسير فقد كان فى ذلك ناقلا عن استاذه ابن خلدون، كما نقل عنه غيبياته وتنجيماته؛ دون روية أو اعتبار.

خلاصة القول؛ إن الرؤية العلمية المستندة إلى «العلية» فى التعليل، والنظرة المادية المؤسسة على النزعة العقلية والتى كانت من انجاز مؤرخى العصور السابقة؛ ذوت تمأما واختفت فى هذاالعصر لتؤسس على أنقاضها تعليلات خرافية وتفسيرات ثيولوجية وبطولية وعنصرية واقليمية.

سابعا : المقاصد :

تنوعت مقاصد المؤرخين فى هذا العصر، وتعددت أهدافهم. وغالبا ما أشاروا إليها فى مقدمات كتبهم؛ وهى تدورحول غايات أخروية وأخرى دنيوية. تتمثل الأولى فى الظفر بثواب الآخرة، والثانية فى الموعظة والعبرة. إلا ان تلك الغايات المعلنة لا تعبر فى الغالب الاعم عن مقاصدهم المسكوت عنها. ولذلك فهى تفتقر إلى المصداقية [5] وإن صدق بعضهم فأعلن هدفه دون مواربة فى الإشادة بسياسة الحكام؛ حرصا على نوال عطاياه وجزيل نعمه.

---

(١) عفت الشرقاوى: المرجع السابق، ص٣٢٢، ايف لاكوست: الربع السابق ص ١٩٢، أحمد صبحى: فى فلسفة التاريخ، ص١٧٦، الاسكندرية ١٩٧٥.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص٦.

(٣) ألبان ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، من كونفشيوس إلى توينبى، الترجمة العربية، ص ٩٦، القاهرة ١٩٧٢.

(٤) انظر: المقدمة، ٥٣٧.

(٥) عفت الشرقاوى: المرجع السابق، ص٢٧٠.

أما عن الغايات الدينية المعلنة فتنطلق من قناعة بأن التاريخ خادم للدين [١] . فهو «علم الأخبار الخاصة بالانبياء والأولياء» قبل أن يكون اخبارا للملوك وسياساتهم وذكر الحوادث وأخبار الكرماء [٢].

كما يسرفون فى ذكر غايات أخلاقية وتعليمية؛ فيلحون على «المواعظ والاعتبار» - حتى فى عناوين كتبهم - بهدف غرس الفضائل واجتثاث الرذائل [٣] فهو إذن علم الهداية والرشد للحكام والرعية فى آن، ولا غرو فقد أشاد بعضهم بهذه الغاية التى هى «الوقوف على أسماء - من يؤرخ لهم - والبحث عن سيرهم وأحوالهم ليهتدى بهم» [٤] وفى نفس السياق كتب ابن الأثير مقدمة كتابه عن الصحابة وحدد هدفه «بمعرفة الإسلام وأهله للعبرة وإصلاح الأحوال» [٥].

لكن الهدف المضمر فى الغالب يكمن فى تحويل هذه المواعظ والعبر إلى تطويع الرعية للخضوع للحكام؛ وذلك بالالحاح على تصوير الحياة الدنيا على أنها «دار فناء» يجب التسليم باحوالها التى هى قدر مقدور، والانصياع لطاعة «أولى الامر» [٦]، وفى ذلك إرضاء للسلطان الذى لا يتقاعس عن الإغداق على المؤرخ، فيكفل له سبل العيش [٧] والمزيد من الجاه والثروة. وهذا يعنى أن جوهر الأهداف المستبطنة تكمن فى «الارتزاق». على ان عمومية هذه الظاهرة لا تنفى وجود بعض الاستثناءات التى لا تجب القاعدة؛ إذ وجد من المؤرخين من اشتغلوا بالتاريخ لأهداف معرفية قحة، كما كتب فيه بعضهم اشباعا لهواية وشغف خاص، وتوخت قلة هداية الحكام إلى سبيل الرشاد بالعبرة والموعظة الحسنة .

خلاصة القول، أن غايات المؤرخين عموما طبعت بطابع دينى؛ كستار يخفى مقاصد دنيوية.

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص١٥.

(٢) انظر: ابن أبى الربيع: سلوك المسالك فى تدبير الممالك، ص٤٦، القاهرة ١٣٢٩ هـ.

(٣) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ١، ص٣٣٠.

(٤) ابن عبد البر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، ص٤٠٠ المنصورة ١٩٦٨.

(٥) ابن الأثير: أسد الغابة فى معرفة الصحابة، جـ ١ ص ٥ بيروت د. ت.

(٦) عفت الشرقاوى: المرجع السابق، ص ٣٢٦.

(٧) روزنتال: المرجع السابق، ص٥٩.

ثامنا : اسلوب الكتابة:

شاع فى هذا العصر المبالغة فى الاهتمام بالأسلوب؛ حتى لو تم ذلك على حساب المعنى والمضمون. فغلبت الصنعة والزخرفة وجرى الاهتمام بالسجع والبديع إلى حد السخف والفجاجة [1] . كما اتبع البعض أسلوب النثر المرسل؛ الذى غلبت عليه الركاكة والتعقيد نتيجة قصور الفهم ومحدودية الثقافة [2]. وجرى توظيف الشعر فى دعم الخطاب؛ سواء أكان للغير أم من نظم المؤرخين أنفسهم. وفى كل الأحوال عبر ما كتب عن تفشى العجمة والعامية فى كتابات المؤرخين المتأخرين[3] كذا عن العناية بالشكل على حساب المضمون [4] ومع ذلك لانعدم وجود ثلة من المؤرخين الموهوبين فى مجال اللغة والبلاغة خصوصا من كتاب الدواوين [5].

خلاصة القول؛ أن اسلوب الكتابة التاريخية عموما شابه الغموض وشانته الصنعة؛ فعبر عن سقامة الصياغة، كما وشى بضحالة المضمون.

تاسعا : مكانة علم ا لتاريخ :

تدهورت مكانة علم التاريخ فى هذا العصر؛ إذ جرى تهميشه مذ حمل عليه الغزالى وأباحه من أجل الإمتاع والمؤانسة ليس إلا، ونفى عنه صفة العلم أصلا. وسار الفقهاء على نهجه ودعا بعضهم إلى تحريمه. لذلك أخطأ من قال إن علم التاريخ ترسخت قواعده واكتمل بناؤه فى هذا العصر [6].

والحق ان علم التاريخ فقد مكانته؛ إذ ضيق الحكام على المؤرخين ذوى النزاهة خشية انتقادهم. ولعل ذلك يفسر هجرة بعضهم إلى دول اخرى كما استمالوا المؤرخين عديمى الضمائر وسيئى السيرة فكفلوا لهم العيش الرغد؛ طالما تفانوا فى إظهار فضائلهم والصمت عن رذائلهم؛ بله وتحويل هذه الرذائل والمفاسد إلى مزايا ومآثر فى كثير من الأحيان.

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ١، ص٣٩٦.

(٢) جب: المرجع السابق، ص٩٥.

(٣) آلدوميلى: المرجع السابق، ص٨١.

(٤) مرجوليوث: المرجع السابق، ص١٦٨.

(٥) روزنتال: المرجع السابق، ص٢٣٧.

(٦) انظر: شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص٦، بيروت ١٩٩٣.

ولعل هذا يفسر حملة الفقهاء علي المؤرخين باعتبارهم منتحلين وضاعين علم التاريخ؛ باعتباره علم «الغيبة المذمومة». فقد وصف السبكى مؤرخى عصره بالجهل، وعلم التاريخ بالنميمة والارتياب [١] وقد انقسم الرأى حول تلك القضية، فالبعض حرمه، وأجازه البعض الآخر. وحتى الذين أجازوه نفوا عنه صفة العلم واعتبروه «فنا من فنون الحديث النبوى».

وحاول بعض مؤرخى العصر الدفاع عن مكانته ودحض حجج خصومه؛ كما هو الحال بالنسبة للسخاوى والكافيجى. أما السخاوى فقد عرف علم التاريخ بأنه «علم معرفة الوقت الذى تضبط به الأحوال» وحدد موضوعه فى «الإنسان والزمان»[٢] كما عدد فوائده باستعراض نصوص من التواريخ السابقة، وجلها تلح على المواعظ والاعتبار، وإصلاح أحوال الإنسان «فى أمر معاده ودينه وسريرته» [٣] كما نقل عن - ابن خلدون - فيما نظن، ما يتعلق بمعرفة «أسباب الدول وقيامها ثم سبب انقراضها» [٤] كما عرض مفاسد عصره التى لم يسلم المؤرخون من تبعاتها؛ إذ نعى عليهم التكالب فى «طلب الجاه والمال» وتورطهم فى كتابة سير الحكام؛ فلم يبق سوى الجهل وقلة الادب والتلفت للحكام» [٥] فأصبح التاريخ منبرا «لاغتياب الناس». ثم عرض لتأثير الخلافات الفقهية والكلامية سلبا على كتابات مؤرخى عصره [٦]؛ خصوصا ما شجر من صراع بين الاشاعرة والحنابلة. كذا عدد الشروط الواجبة ليكون المؤرخ مؤرخا؛ وهى فى اغلبها مستقاة من مقدمات كتب المؤرخين السابقين. كذا لتأثير آفه الطعن بالتكفير أو «التبديع» فى ميل مؤرخى عصره إلى «التقليد» خوفا وخشية [٧] ونداد بابن خلدون ونعى عليه تملقه للسلاطين والأمراء؛ كما ندد بالحافظ الذهبى الذى «أفرط على الأشاعرة ومدح فى المجسمة» [٨].

---

(١) انظر: السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، ص١٠٥، لندن ١٩٢٥.

(٢) راجع النص فى ملاحق كتاب «روزنتال» سالف الذكر، ص ٣٨٥.

(٣) نفسه، ص٤٠٠.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) نفسه، ص٤٥٠.

(٦) نفسه، ص٤٦٩.

(٧) نفسه، ص ٤٩٠.

(٨) نفسه، ص٤٩٩.

وفطن إلى حقيقة اضطهاد البارزين من مؤرخى عصره، وأوضح كيف أفضى إلمامهم بالأصول والمنطق والحكمة الفلسفية وآراء الأوائل ومجازات العقول؛ إلى امتهانهم ونكبتهم[١].

خلاصة القول؛ إن السخاوى فى دفاعة عن علم التاريخ أمام هجمة الفقهاء؛ قدم بطريقة غير مباشرة صورة بالغة التعبير عن تردى هذا العلم؛ بما يؤكد مصداقية ما ذهبنا إليه سلفا.

أما الكافيجى: فقد صنف كتابه «المختصر فى علم التاريخ» بهدف تأكيد علمية هذا العلم وتفنيد دعاوى منتقديه؛ على الرغم من أنه لم يكن مؤرخا أصلا [٢] ؛ فكان انشغاله بالتاريخ أمرا عرضيا إلى جانب كونه محدثا وفقيها، لذلك جاء عرضه مرتبكا وأفكاره غامضة حتى فى ذهنه[٣].

ففى تعريفه لعلم التاريخ؛ إستند إلى كتابات السلف؛ حيث قال : «هو علم يبحث فيه عن الزمان واحواله، وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته [٤]. ويعرف الزمان وفق معلومات فلكية تتسم بالسطحية. أما عن موضوع علم التاريخ؛ فهو عنده «أمور حادثة غريبة لا تخلو من مصالح وترغيب وتحذير وتنشيط وتثبيط ونصح واعتبار وبسط وانفعال ... ووقائعه متعلقة بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وكسائر أحداث من الأمور السماوية والأرضية من حدوث ملة وظهور دولة وزلزلة وطوفان وموتان إلى غير ذلك من الحوادث الهائلة العظام والأمور الهائلة الجسام[٥].

ويعكس هذا التعريف مدى ما ألححنا عليه من تدهور علم التاريخ فى هذا العصر موضوعا ومنهجا ورؤية وأسلوبا وغاية؛ بما يغنى عن البيان. وحسبنا أن نشير إلى اختزال مقاصد العلم فى «ضبط زمن المبدأ والمعاد وما ينهى على أحسن مايكون» [٦] كما يحدد الشروط الواجب توافرها فى المؤرخ؛ وهى نفس الشروط الخاصة بالمحدث [٧] . مما يؤكد حقيقة

(١) نفسه، ص٥٠٥.

(٢) روزنتال: المرجع السابق، ص ٣١٩.

(٣) نفسه، ص٣٢١.

(٤) انظر: الكافيجى: المختصر فى علم التاريخ - نص فى ملحق بكتاب «روزنتال» سالف الذكر، ص٣٢٧.

(٥) نفسه، ص٣٣٣.

(٦) نفسه، ص٣٣٤.

(٧) نفسه، ص ٣٣٦، ٣٣٧

ارتباط علم التاريخ فى هذا العصر بعلم الحديث؛ بعد أن كان قد تحرر منه فى العصر السابق. كما يحدد دور المؤرخ فى عبارة هولامية مبتسرة؛ إذ «هو ضبط الإنسان على وجه معتبر» (١) . ويؤكد الطابع الدينى باعتباره علم التاريخ شأنه فى ذلك شأن مؤرخى عصره (٢) ؛ كما لم ينعتق من الخرافة والشعوذة حين فتح باب التاريخ لتدوين الغرائب والعجائب التى تسربها خواطر أولو الألباب(٣) .

وفى هذا الصدد أفاض فى ذكر اسرائيليات مقتبسة عن الرواة الأوائل من أمثال وهب بن منبه وكعب الأحبار (٤) وبينما يسرف فى الاسناد بخصوص رواياتهم؛ يهمل الإسناد بخصوص الروايات المأخوذة عن المؤرخين ويجملها فى عبارة «وقال اهل التاريخ» (٥) كما ينقل عن القصص القرآنى مضيفا إليها معجزات من عندياته (٦). وفى عرضه لتاريخ صدر الإسلام؛ يقدم تلخيصا مبتسرا لا يشفى غليلا ولا يضيف جديدا (٧). ويبين مفهومه للعلم بأنه ليس إلا «وسيلة إلى الدار الاخرة (٨) ويلحق بذلك خرافات وشعوذات مثل «شرح العنقاء» (٩) .

تلك صورة موجزة لما و صل إليه علم التاريخ من تدهور؛ آثرنا إبرازها من خلال عرض وتحليل مضمون مؤلفى مؤرخين من مؤرخى العصر اعتبرهما بعض الدارسين من منظرى علم التاريخ. وهذا يقودنا إلى تقديم تقويم اولى مختصر؛ سوف يبرهنه العرض التالى المفصل فى الصفحات التالية.

عاشرا : تقويم عام:

إن الحكم بتدهور علم التاريخ فى عصر تسلط الإقطاعية العسكرية ينطلق من تدهور عام فى كل جوانب الحياة إبان هذه العصر، كما أثبتنا

---

(١) نفسه، ص٣٣٨.

(٢) نفسه، ص ٣٤٠.

(٣) نفسه، ص ٣٤٤.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) نفسه، ص٣٥٤.

(٦) نفسه، ص ٣٥٨.

(٧) نفسه، ص٣٦٠.

(٨) نفسه، ص٣٦٢.

(٩) نفسه، ص ٣٦٣.

فى المجلدات الثلاثة السابقة. لذلك لا يشكل هذا التدهور نغمة نشاز فى سياق منظومة الانحطاط العام والتام فى سائرجوانب المعرفة.

من مظاهر هذا التدهور؛ تضييق مجال علم التاريخ وعقم مناهجه وهزال مظانه وتدنى قيمة معارفه وثيولوجية تفسيره. وإذ أكد العرض السابق تلك الحقائق؛ فقد سبقنا إليها عدد كبير من الدراسين الثقاة. فقد ذكر «جرونباوم» أن الفضيلة اليتيمة للمعارف التاريخية فى هذا العصر لا تعد تقديم مادة تاريخية «خام» متنوعة ومختلطة ومضطربة يمكن بإخضاعها لمنهج البحث التاريخى استثمارها فى تقديم صورة عن تدهور الكتابة التاريخية؛ كمؤشر على تدهور ثقافى عام. كما ذكر غيره أن آفة «التقليد» سادت الفكر التاريخى؛ خصوصا فى مناهجه ورؤاه؛ وهو أمر بالغ الدلالة على انعدام الإبداع والابتكار [١] . وذهب ثالث إلى ان وفرة الكتابات التاريخية وتضخمها كما؛ تدل فى حد ذاتها على «ضآلة فى القيمة» وانعدام الابتكار [٢].

لذلك لم يخطىء من ذهب إلى حقيقة عدم إنجاب العالم الإسلامى مؤرخا حقيقيا بعد مكسويه [٣] ؛ باستثناء ابن خلدون. وأصبح معظم مؤرخى هذا العصر - فى نظر أحد الدراسين - إما حوليا جافا أو خطيبا مزوق الأسلوب» [٤] وفى نفس المعنى ذكر غيره «لم يوجد مؤرخ بعد ابن الصابىء» [٥]. وصدق ابن خلدون حين حكم على المعارف التاريخية فى عصره «بالتكرار» و «الاجترار» [٦]؛ فلم يقدم المؤرخون ثمة جديد إلا فى القليل النادر [٧] «فالعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة عن أحوال الاناس قريبة من احوال البهائم» [٨] . ومع ما ينطوى عليه هذا الحكم من قسوة؛ إلا أنه بالغ الدلالة على التدهور الذى كان نتيجة «لتدهور العمران» [٩] لذلك انحطت قيمة علم التاريخ فى هذا العصر فجرى تصنيفه فى مكانة بين الألغاز والأنساب [١٠]. على انه من الإنصاف التنويه

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص٨٤
(٢) جب: المرجع السابق، ص٩٤، ١٠٨.
(٣) انظر: مرجوليوث: المرجع السابق، ص١٦١.
(٤) نفسه، ص١٦٩.
(٥) انظر: روزنتال: المرجع السابق، ص ٥٨ .
(٦) انظر: المقدمة، ص ٥٣١.
(٧) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ٣، ص٦٧، القاهرة ١٩٦٢.
(٨) ابن خلدون: المقدمة ص ٨٣.
(٩) نفسه، ص٣٦٩.
(١٠) روزنتال: المرجع السابق، ص ٥ ٨.

بقيمة بعض التواريخ التى صنفها مؤرخون ينتمون إلى قوى المعارضة الشيعية [1] كذا بعض المؤلفات التى كتبت فى الأقاليم الأخرى مثل بلاد ما وراء النهر والأندلس؛ إذ كان بعض مؤرخيها أوسع أفقا وأرحب نظرة وأقل هوى [2].

تلك نظرة عامة عن خصائص الكتابة التاريخية خلال هذا العصر؛ نعول على بسطها وتفعيلها وتوثيقها وبرهنتها؛ حسب منهجنا الذى عالجنا وفقه الفكر التاريخى فى عصر الازدهار؛ إذ سنعالج الموضوع فى دوائر ثلاث؛ الأولى: خاصة بقلب العالم الإسلامى الذى يشمل بلاد العراق والشام ومصر وشبه جزيرة العرب، والثانية: تتعلق بالشرق الإسلامى؛ الذى يحوى بلاد فارس و ما وراء النهر والهند؛ والثالثة: خاصة بالغرب الإسلامى الذى يشمل بلاد المغرب والأندلس.

---

(١) نفسه، ص ١٩٩.

(٢) جب : المرجع السابق، ص٩٣.

المبحث الأول

الفكر التاريخى فى قلب العالم الإسلامى

أولا : فى العراق

فقد العراق مكانته الريادية فى الفكر التاريخى خلال عصر الإقطاعية العسكرية، وانتقل الثقل إلى الشام ومصر؛ ويرجع ذلك، فيما نرى إلى ابتلائه بحكومات ونظم بدوية عسكرية منذ منتصف القرن الخامس الهجرى؛ حيث توالت حكومات السلاجقة والخوارزميين الأتراك، ومن بعدهم المغول الذين قضوا على الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ . وهم فى الأصل من الرعاة البدو الإستبسيين الذين أوكلوا الإدارة إلى عناصر فارسية اسهمت فى زحزحة العروبة لصالح الحضارة الفارسية. وكان الغزو المغولى خصوصا بمثابة تخريب لعمران بلاد العراق؛ فاضطر علماؤها وشعراؤها وادباؤها إلى الهجرة إلى الشام ومصر؛ فأسهموا بدورهم فى انتقال ريادة الفكر إلى هذين الإقليمين على حساب العراق.

إذ نتيجة لسقوط الخلافة العباسية وتحول العراق إلى ولاية عادية تحكمها نظم بدوية عسكرية؛ فقدت البلاد مكانتها السياسية. وترتب على ذلك إغفال مؤرخيها للتاريخ السياسى والاهتمام بالجوانب الحضارية. ولعل هذا يفسر ضآلة ما كتب فى هذا العصر عن التواريخ العامة إذا ما قيس بما ألف من تواريخ محلية؛ خصوصا عن المدن. لقد تهاوى الولاء للأسرات الحاكمة وأصبح محصورا فى مدن العراق التى تعرضت للأخطار وتهددت بالدمار.

ونظرا لتغلغل الثقافة الفارسية والتركية؛ حرص مؤرخو العراق على الحفاظ على الهوية العربية؛ وذلك بالكتابة فى الأنساب. وكنتيجة لسيادة المذهب السنى؛ انصب اهتمام المؤرخين فى الكتابة عن المذاهب الفقهية الأربعة؛ فأرخوا لطبقات الفقهاء. ونظرا لتوالى الكوارث الطبيعية والاجتماعية جرى الاهتمام بها وما صاحبها من مجاعات وأوبئة.

وفى التاريخ السياسى؛ جرى الاحتفال بأدب السياسة؛ بغية ترشيد الحكام بدلا من التحريض على الثورة ضدهم؛ نظرا لبطشهم بحركات المعارضة بعنف ووحشية. كما اهتم المؤرخون بالتأريخ للتصوف والمتصوفة، بعد أن أصبح التصوف ثقافة العامة والخاصة على السواء. وبسبب تدهور العلم والثقافة شاعت الكتابة فى الغرائب والعجائب، كذا فى تدوين التراث الأدبى والفكرى المأزوم للحفاظ عليه من الاندثار.

تلك هى الموضوعات التى تمركزت حولها الكتابة التاريخية؛ نيتجة للمعطيات السوسيو - سياسية والسوسيو - ثقافية التى أشرنا إليها من قبل. أما عن منهج الكتابة التاريخية فكان إستمرار للطرائق القديمة دون أدنى إبداع أو إبتكار؛ بل جرى إحياء منهج أهل الحديث الذى كان قد ذوى فى عصر الازدهار.

وبخصوص المرجعية؛ تعاظمت ظاهرة النقل من كتابات السابقين دون نقد أو روية، كما جرى إثبات الوثائق من جانب المؤرخين الرسميين فى تواريخهم دون تمحيص أو تحليل. وانحصرت مقاصد المؤرخين وأهدافهم فى المواعظ والاعتبار فى الظاهر، والارتزاق فى الباطن، بحيث اختفت الغاية المعرفية القحة وانتفت تقريبا.

على أنه من الإنصاف التنويه بأن العصر شهد ثلة من المؤرخين ذوى المكانة نسبيا؛ خصوصا من الفرس الذين خدموا فى دواوين الدولة، أو من الشيعة الذين حافظوا على تقاليد الكتابة التاريخية ولو بقدر محدود.

تلك صورة عامة وموجزة عن تدهور الفكر التاريخى فى العراق.

على أن التأريخ الشافى لهذه الظاهرة؛ تعتوره الكثير من الصعاب منها.

أولا : تداخل الثقافات وسيطرة الفارسية منها على الثقافة العربية؛ الأمر الذى أسهم فى تضبيب رؤى المؤرخين ومواقفهم من السلطة التى كانت تركية أصلا، وفارسية ثقافة، وسط شعب عربى الأرومة؛ وهو أمر انعكس سلبا على الكتابة التاريخية فاتسمت بالتخليط والتناقض والمسخ.

ثانيا : برغم كثرة ما ألف وصنف من كتب ورسائل؛ إلا أن معظمها مفقود؛ بسبب تفاقم الصراعات السياسية وتعاظم الأخطار الخارجية. وحسبنا الإشارة إلى ما قام به المغول من إحراق الكتب والوثائق.

ثالثا: عدم استقرار معظم المؤرخين فى مواطنهم الأصلية، ونزوحهم من مكان إلى آخر، بحيث يصعب تحديد انتماء المؤرخ إلى موطن بعينه، والتمييز بين من هو عراقى أو غير عراقى.

لعل هذه الاسباب كانت من وراء ندرة دراسات المحدثين فى التأريخ للفكر التاريخى فى العراق؛ فضلا عن سمة التضارب والتناقض فى الأحكام بين الدارسين؛ بله فى أحكام الباحث الواحد؛ كما سنوضح فى

موضعه. فما كتبه المستشرقون جد محدود لا يشفى غليلا، وحسبنا أن ما كتبه «جب» و «روزنتال» لا يتعدى صفحات معدودات تقدم أحكاما عامة؛ دون برهان أو دليل. وما كتبه «مرجوليوث» لا يعدو كتابة تراجم لبعض مؤرخى العصر ليس إلا.

أما عن كتابات الدارسين العرب المحدثين فهى فى الغالب الأعم اجترار لما كتبه المستشرقون، أو مجرد سجل لتراجم المؤرخين مستخلص من كتب الطبقات؛ دون دراسة أو تحليل، ودون فهم لمجريات تاريخ العصر؛ لذلك اتسمت أحكامهم بالشطط. وحسبنا التنويه بأن معظمهم حكم بازدهار علم التاريخ فى العراق فى ذلك العصر؛ وهو حكم سنعرض له بالنقد فيما بعد، لذلك لا نبالغ إذا قلنا إن التأريخ لهذا الموضوع لم يكتب بعد.

وإذ نحاول كتابته؛ يمكن تبيان منهجنا على النحو التالى:

أولا : رؤية ما كتبه مؤرخو العصر من خلال تاريخ العصر نفسه؛ باعتباره عصر انهيار سياسى، وكساد إقتصادى، وخراب عمرانى، وصراع عنصرى على الصعيد الاجتماعى، وانحطاط فكرى؛ وهو ما اثبتناه فى المجلدات الثلاثة السابقة عن طور الانهيار.

ثانيا : الاهتمام بمقدمات الكثير من التواريخ المتاحة لمؤرخى العصر باعتبارها مؤشرا أوليا عن منهج المؤرخ ورؤيته والتى هى بدورها نتاج ثقافته ووضعيته الاجتماعية.

ثالثا : تقديم «تحليل دلالى» لعناوين وموضوعات المؤلفات المفقودة، وتعقب بعض ما نقل عنها فى تواليف المؤرخين اللاحقين.

رابعا : تقديم دراسة مجهرية لأحد مشاهير مؤرخى العصر؛ كأنموذج يعبر عن الخصائص العامة للكتابة التاريخية فى عصره، مع الاسترشاد بهذه الخصائص فى تحليل وتفسير كتابات هذا المؤرخ المختار.

خامسا : تناول مؤرخى العصر فى شمول يحتوى سيرة المؤرخ وأثر ثقافته فيما صنف وألف، وحصر الموضوعات التى كتبوا فيها، وتبيان مرجعياتهم فى استقاء المادة التاريخية، وتحديد المناهج والرؤى والوقوف على المقاصد والغايات التى استهدفتها الكتابة التاريخية، وابراز مكانة علم التاريخ بين العلوم الأخرى، وتقويم نتاج ذلك كله فى النهاية فى ضوء منهجنا المتبع ورؤيتنا الخاصة.

بخصوص أجناس الكتابة التاريخية وموضوعاتها؛ نلاحظ ندرة ما كتب فى «التاريخ العالمى»؛[1] وذلك لضعف الخلافة ثم سقوطها من ناحية، وضحالة ثقافة المؤرخين ومحدودية رؤيتهم من ناحية أخرى.

ويعد كتاب «الكامل» لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) أهم ما كتب فى هذا المجال[2]، وبرغم شهرة هذا الكتاب فقد نقلت الأجزاء السبعة الأولى منه من تاريخ الطبرى [3] حتى ما حواه من أساطير وخرافات بخصوص التاريخ القديم. وصنف أبو الفرج بن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) كتاب «المنتظم فى تواريخ الملوك والأمم» فى عشرة مجلدات؛ وهو أقل احتواء للاساطير والاسرائيليات من مؤلف ابن الاثير؛ نظرا لاتساع دائرة ثقافة ابن الجوزى. لكن يعاب عليه قلة المعلومات عن التاريخ العالمى؛ إذ يتمحور حول تاريخ بغداد تقريبا [4] . ومع ذلك فهو ثرى المادة فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى؛ إذ يحوى معلومات ضافية عن ثورات العوام ضد السلطنة السلجوقية [5] فضلا عن حضارة العراق وثقافته [6] أما ما كتب عن التاريخ الاسلامى العام؛ فكان أكثر عددا وأكبر قيمة؛ إذ يعكس ما ألف فيه أمانى الشعب العراقى فى إحياء مكانة بغداد فى ظل خلافة قوية توحد أقاليم العالم الإسلامى بعد تمزقة وتشرذمه. لذلك اهتم مؤرخو هذا الجنس بتاريخ صدر الإسلام؛ باعتباره عصرا ذهبيا يجب إحياؤه. وفى هذا المجال صنف ابن الساعى (ت ٦٣٧هـ) كتاب «الجامع المختصر فى عنوان التاريخ والسير» وهو ثرى فى مادته؛ لأن مؤلفه تقلد وظيفة «خازن الكتب» بالمدرسة النظامية ببغداد؛ فتمكن من الاطلاع على مصادر متنوعة[7] . كما صنف ابن الفوطى (ت ٧٢٣ هـ) كتاب «التاريخ الكبير»، وهو مفقود، فى نحو ثمانية مجلدات كتبه بطلب من أحد ولاة بغداد. وهو حافل بالوثائق؛ لاشتغاله محررا للوقائع الرسمية. لكن معظمه منقول من

---

(١) عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية، ص٤، القاهرة ١٩٩٧.

(٢) روزنتال: المرجع السابق، ص٢١٠.

(٣) جب: المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٤) شاكر مصطفى: التاريخ والمؤرخون العرب، ج٢، ص١٠٨، بيروت ١٩٨٧.

(٥) عمر الشبراوى: عامة بغداد من ظهور السلاجقة حتى سقوط الخلافة العباسية، رسالة دكتوراة بجامعة عين شمس، ص٥ مخطوط.

(٦) محمد تضغوت: الحياة الاقتصادية فى العراق واثرها الاجتماعى والسياسى والثقافى فى العصر البويهى، ص٥ ،رسالة دكتوراة، آداب مكناس ١٩٩٨.

(٧) عباس العزاوى: التعريف بالمؤرخين، ج١، ص٩٢ القاهرة ١٩٥٧.

كتاب ابن الساعى سالف الذكر، ومع ذلك فما كتبه عن الفترة التى عايشها جدهام، [1] وينطوى على تعليلات للأحداث؛ وإن كان معظمها يربط بين حركة الأفلاك ووقائع التاريخ [2] كما صنف المؤرخون كتبا عن الأسرات الحاكمة التى تعاقبت فى العراق، ويعد كتاب «راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية» للراوندى (ت٦٠٣هـ) أهم مؤلف عن تاريخ السلاجقة. كما كتب الجوينى (ت ٦٨١ هـ) الذى التحق بخدمة المغول وشارك فى احداث دولتهم - الإيلخانية - واغتيل بسبب ذلك، من لدن الإسماعيلية، عدة مؤلفات عن الأتراك ودول المغول و«ملوك خوازم»[3]. وفى مواجهة مؤرخى الدول التركية والمغولية الرسميين؛ كتب المؤرخون المنحازون إلى الخلافة العباسية، أو الذين تمنوا إحياءها بعد سقوطها عدة مؤلفات تعكس هذا الموقف السياسى. وفى هذا الصدد ألف أبو الفرج بن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) كتاب «المصباح المضىء فى فضائل المستعين» ، وكتاب «المفاخر فى أيام الناصر» [4] . ويؤخذ على المؤلف تعصبه الشديد لخلفاء بنى العباس والإسراف فى ذكر مآثرهم، وتحويل نقائصهم إلى فضائل. كما أرخ ابن الاثير لآل زنكى فى الموصل فى كتابه «الباهر فى الدولة الأتابكية» الذى انحاز فيه للأتابكة؛ على حساب خلفاء بنى العباس؛ وهو أمر أخذه عليه معاصروه [5].

على أن الاهتمام الحقيقى لمؤرخى هذا العصر تمحور حول «المدن»؛ فتعاظم التأريخ لها. وحظيت بغداد باهتمام خاص؛ إذ تفانى المؤرخون فى إظهار جلالها، وانبروا يكتبون عن مكانتها الحضارية تعويضا عن انحدارها سياسيا. ويعد كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادى (ت ٤٦٣هـ) -فى خمسة عشر مجلدا؛ أهم ما صنف فى هذا الصدد؛ خصوصا فى مجال التراجم لمشاهير علمائها وأدبائها وفقهائها حتى منتصف القرن الخامس الهجرى [6] . كما كتب ابن النجار (ت ٦٤٣ هـ) كتاب «التاريخ المجدد لمدينة السلام» - فى ثلاثين مجلدا - ويشى عنوانه بتمنى استعادة بغداد مكانتها ورونقها الذى تباهت به فى الماض القريب[7].

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص ٢٩٢، بيروت ١٩٩٠.

(٢) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٣) نفسه، ص ١٠٢ وما بعدها.

(٤) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص١٠٩.

(٥) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص١٩

(٦) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢،ص١٤

(٧) نفسه، جـ٢،ص١٥، ١٦.

كما حظيت مدن العراق الأخرى باهتمام المؤرخين؛ فكتب ابن دهجان (ت ٦٦٠هـ) «تاريخ البصرة»، وصنف الواسطى (ت ٥٥٢ هـ) «تاريخ البطائح»، وأرخ ابن النجار (ت ٦٤٣ هـ) لمدينة الكوفة، والأنبارى (ت ٥٧٧هـ) لمدينة الأنبار، والتكريتى (ت ٦١٦ هـ) لمدينة تكريت، والموصلى (ت ٥٧٧هـ) لمدينة الموصل [١].

وتحوى هذه المؤلفات مادة تاريخية غزيرة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية؛ وإن شابها الإسراف فى الإقليمية الشوفينية.

ونظرا لمكانة المدن المقدسة فى الحجاز، ونتيجة لرغبة مؤرخى العصر إحياء أمجادها؛ فقد حظيت باهتمام مؤرخى العراق. إذ كتب ابن النجار «تاريخ مكة»، «وتاريخ المدينة» [٢].

لكن ظاهرة التأريخ للمدن ما لبثت ان انحسرت بعد الغزو المغولى الذى جعل جل هذه المدن أثرا بعد عين. فلم نسمع عن مؤلفات فى هذ ا المجال إلا ما كتبه ابن باطيش الموصلى (ت ٦٥٤ هـ) عن مدينة الموصل [٣].

ونظرا لانحدار مكانة العناصر العربية فى ظل الدول التركية والمغولية؛ وطغيان الثقافة الفارسية؛ اهتم المؤرخون بالكتابة فى «الأنساب»؛ تعبيرا عن الرغبة فى الحفاظ على الهوية. وفى هذا المجال كتب السمعانى (ت٥٦٢هـ) «كتاب الأنساب» فى ثمانية مجلدات نهل منها من جاءوا بعده [٤] فقد اعتمد ابن الأثير على مصنف السمعانى حين صنف كتاب «اللباب فى تهذيب الأنساب». كما اهتم الشيعة العلويون بالحفاظ على أرومتهم العربية؛ فصنف مؤرخوهم فى هذا المجال. منهم ابن مهنا (ت ٦٨٤هـ) - وهو شريف علوى - كتابى «المشجر فى الانساب» و «الدوحة الكلية» وغيرها.

كما راجت الكتابة فى «أدب السياسة» بغية ترشيد الحكام بالقلم بعد أن عجز السيف فى تقويمهم؛ إذ فشلت حركات المعارضة وقمعتها النظم العسكرية بوحشية وعنف. وفى هذا المجال كتب ابن الاثير متوخيا ذاك

(١) نفسه، ص١٦ -٢١.

(٢) نفسه، ص١١٧

(٣) نفسه، جـ٤، ص٣٠٣.

(٤) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص٤٩.

المقصد الذى نص عليه فى مقدمات كتبه. كما ذاع هذا الضرب من الكتابة التاريخية إبان حكم المغول فى صيغة تجمع بين السياسة والأخلاق [١].

كما كتب المؤرخون مؤلفات مباشرة فى الوعظ؛ موجهة للحكام والرعية فى آن. وبرز فى هذا المجال ابن الاثير وأبو الفرج بن الجوزى. كما ألفت مصنفات عن طبقات الصوفية؛ بعد انتشار التصوف على حساب الفرق الكلامية، كتبها المؤرخون والمتصوفة على حد سواء [٢].

وإذ تقلصت الكتابة فى «الملل والنحل»؛ فلم نسمع إلا عن كتاب واحد ألفه الشهرستانى (ت ٥٤٨هـ) تحت هذا العنوان؛ فقد شاعت الكتابة عن طبقات المذاهب الفقهية. وفى هذا المجال كتب البناء (ت ٤٧١ هـ) عن طبقات الحنابلة، وابن باطيش عن «طبقات الشافعية».

ونظرا لخلخلة البناء الطبقى وتعاظم مكانة الطبقة الارستقراطية؛ صنفت كتب تؤرخ لمجالس الخلفاء وأخبار الاعيان. إذ ألف الحفار (ت ٦٥٢هـ) «نفائس العناصر لمجالس الناصر» وكتب أبو الفرج بن الجوزى «صفوة الصفوة» و «أعمار الأعيان».

ومن أجل الترويج على هذه الطبقة؛ جرت الكتابة فى العجائب والغرائب؛ فألف القزوينى (ت ٦٨٢هـ) كتاب «عجائب المخلوقات» [٣].

ونظرا لتفاقم المشكلات الاقتصادية والاجتماعية؛ حرص المؤرخون على تدوين أخبار الزلازل والبراكين وغيرها من الكوارث الطبيعية، وما نجم عنها من مجاعات وأوبئة حصدت الجموع من أفراد الطبقة الدنيا. وفى هذا الصدد حرص المؤرخون على التأرخ لهذه الطبقة فى طوايا تواريخهم؛ فعرض ابن الساعى لتنظيمات العيارين والشطار والفتيان، ودون أنماط حياة العوام الطافحة بالجفاف وشظف العيش؛ مظهرا تعاطفا معهم فى أغلب الاحيان [٤] . كما أهتموا بأوضاع الحرفيين والصناع والصعاليك واللصوص. وفى هذا الميدان قدم التوخى فى كتابه «الفرج بعد الشدة» معلومات ضافية كشفت عن تردى أوضاعهم بنفس الدرجة التى فضحت حياة الأرستقراطية الحافلة بالمجون واللهو والعبث و«افتتنت بالمجد الكاذب والحمد المصنوع» [٥].

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص٢٩٢.
(٢) نفسه، ص ٢٩٢، ٣٠٦.
(٣) نفسه، ص٣١٤.
(٤) عمر الشبراوى: المرجع السابق، ص٦
(٥) محمد تضغوت: المرجع السابق، ص٨.

أما عن الشيعة الذين لاقوا عنتا واضطهادا فى ظل نظم سنية متعصبة؛ فقد أنجبوا مؤرخين معتبرين كتبوا عن المذهب وتاريخه وطبقات أعلامه. وفى هذا الصدد ألف ابن طاووس (ت ٦٦٤هـ) - الذى تولى رئاسة نقابة الطالبيين ببغداد - كتاب «الاصطفهاء فى تاريخ الخلفاء»؛ وأغلب الظن أنه أرخ فيه للخلافة الفاطمية. كما كتب فى «الملاحم والفتن» معبرا عن المحن التى حلت بالشيعة. وله فضلا عن ذلك كتب أخرى تضرب فى نفس الاتجاه؛ منها كتاب «اليقين فى إمرة أمير المؤمنين» على بن أبى طالب بطبيعة الحال.

وإذ تبنى الشيعة الدفاع عن الأرومة العربية فى مواجهة نظم تركية ومغولية تطبعت بالثقافة الفارسية؛ كتب مؤرخو الشيعة فى النسب العربى؛ كما هو حال ابن مهنا سالف الذكر. وفى نفس الاتجاه مضى ابن معيبة (ت ٧٧٤هـ) - من فقهاء الإمامية- فكتب فى النسب العلوى خصوصا، وفى انساب العرب بوجه عام. وله فى هذا الصدد كتاب «الفلك المشحون فى انساب القبائل والبطون» [١] . ونظرا لتسامح بعض حكام المغول مع الشيعة كافأهم ابن الطقطقى (ت ٧٠٩ هـ) بكتاب «الفخرى فى الاداب السلطانية» الذى أشاد فيه بهؤلاء السلاطين وأشار إلى أفضالهم.[٢]

أما عن مؤرخى أهل الذمة؛ فلم نقف على مدونات لليهود. وما نعرفه يتعلق بمؤرخين من النصارى صنفوا كتبا عن عقائدهم وكنائسهم وأديارهم وأخبار بطاركتهم. منهم مؤرخ يدعى ابن سليمان صاحب كتاب «اخبار بطاركة كرسى المشرق» اهتم فيه بوضعية النصارى فى بغداد. كما صنف الشابستى «كتاب الديارات»، ويحوى معلومات هامة عن حياة الرهبان وثقافاتهم ومشاهير رجالهم، فضلا عما قامت به الأديرة من خدمات فى إرشاد قوافل التجار واستضافة الفقراء، وغير ذلك من أعمال البر والإحسان[٣].

يتضح مما سبق أن موضوعات التاريخ غلبت عليها السمة الحضارية نظرا للكوارث السياسية التى حلت بالعراق؛ فجرى الاهتمام بالفعاليات البشرية؛ وإن بمسحة دينية أخلاقية. كما جرى الاهتمام بأهل القلم على حساب أهل السيف للسبب ذاته [٤] . وبخصوص أهل القلم؛ انصب

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص٣٣٧.

(٢) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ١٣١.

(٣) محمد تضغوت المرجع السابق، ص٥

(٤) عمر الشبراوى: المرجع السابق، ص٥، ٦.

الاهتمام على الأدباء والشعراء والمتصوفة وأهل الحديث [1] ، وعلى رجالات المذاهب الفقهية بدلا من أعلام علم الكلام. وما كتبه أبو الفرج ابن الجوزى فى كتابه «تلبيس إبليس» الذى حمل فيه على رجال الدين عموما ما يغنى عن البيان.

فماذا عن مناهج مؤرخى العصر، وماذا عن رؤاهم فى تفسير التاريخ؟ جدبت مصادر معلومات المؤرخين؛ وأصبح النقل عن السابقين حجر الزاوية فى الحصول على المعلومات؛ وإن أفاد المؤرخون الرسميون والمؤرخون المشتغلون فى دواوين الدولة من الوثائق؛ نقلا وإثباتا أكثر منه تمحيصا وتحليلا.

كما أجدبت المناهج؛ إذ جرى اعتماد «التقليد» منهجا فى حد ذاته. فعول المؤرخون على النظام الحولى؛ دون أدنى تجديد أو ابتكار [2]؛ وإن لم يحل ذلك دون الأخذ بمنهجية دراسة الموضوعات المأخوذة عن العصر السابق أيضا.

أما عن «الإسناد» فقد جرى إحياؤه ولكن مع اختصار سلسلة الرواة. كما أغفل السند فى بعض الاحيان، واكتفى المؤرخون بذكر كلمة «قيل»؛ خصوصا حين يبالغ المؤرخ فى النقل، بل السطو على جهود السابقين. ولا محل لتبرير بعض الدارسين [3] هذه الآفة بحرص المؤرخين على إثبات نصوص السابقين بكليتها نتيجة الخوف عليها من الضياع والاندثار.

وقد عجز المؤرخون على تصنيف وتبويب المادة التاريخية المنقولة بصورة منطقية تنم عن فهم ووعى، إذ اتسمت عروضهم بالتخليط والاضطراب.

وشاعت فى هذا العصر ظاهرة كتابة «الذيول» على المؤلفات السابقة بهدف ملأ الفجوات والثغرات الشاغرة مع استمرار الزمن. كما فشت كتابة «الملخصات»؛ كدلالة على العقم وعدم القدرة على الإبداع.

أما عن اتجاهات التعليل والتفسير؛ فكانت جد محدودة وعقيمة أيضا؛ إذ غاب العقل فى تعليل الوقائع والأخبار، واختفت «السببية» اللهم إلا فى

---

(١) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص٩٦.

(٢) نفسه، ص٧ .

(٣) انظر: شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص٢٩٢.

أحيـان نادرة. وحلت الخـرافـة والأسطرة كبـديل للتعليل العقلى. وكان الوصف والسـرد سـمة العـرض للوقـائع والاحـداث، فى صـورة قص حكائى مـؤسس على قـيل وقـال، واعـتـبـر المؤرخـون «العناية الإلهـيـة» مـسـيـرة للأحداث؛ ففشت الغيبية القدرية التسليمية فى تفسيـرها، وجرى اعتماد «البطولة» رؤية لتفسيـر قيام الدول وسـقوطها؛ بما ينم عن فقر مدقع فى ثقافة المؤرخين. واعتبـر «الغضب الإلهى» على البشـر علة لحدوث الكوارث الطبـيعـيـة والنوازل الاجـتـمـاعـيـة، كمـا اعـتـمـدت «الكرامـة» علة الوقـائع والأحداث الجسام فى نظر مؤرخى التصوف.

إتسمت كتابات «مؤرخى السلطان» باللا موضوعية والانحياز؛ فتحولت رذائل الحكام إلى مـآثر وفضـائل، ودبج المديح لمن يسـتحق ومن لا يسـتحق. لذلك سادت «المنقـبيـة» فى الكتـابات التـاريخية السلطوية، وبالمقـابل كيلت التـهم جـزافـا لخـصـوم السلطة ومـعـارضـيـهـا، وعـمـت آفـات الملفق والرياء والتعـصـب [1] المقيت بين المؤرخين. وجرى اسـتئـجـار كبـارهم من قبل حكام المغـول لكتـابة تاريخـهم وسـيـر حكامـهم [2] ؛ لذلك تعـاظم أمـر المؤرخين الرسميين على حساب المؤرخين المحدثين الذين تضاءلت مكانتهم فى هذا العصر [3].

وفى كل الأحـوال شـاعت ظاهـرة الارتزاق، والكتـابة بهـدف التـعـيش من إغداقات السلاطين والوزراء والموسرين والأعيان.

ومن المؤرخين من باع نفسـه لحكام المغول؛ بـرغم مفـاسـدهم؛ كمـا هو الحال بالنسبة للجوينى الذى انبرى لتمجيد دولتهم ورجالاتها [4].

لذلك شـاع التشكيك فى كتـابات المؤرخين؛ حتى كبـارهم من أمثـال ابن الأثير وابن خلكان [5] .

---

(١) مثال ذلك؛ تعصب ابن الاثير لأتابكة الموصل إلى حد تحامله على خصومهم من خلفـاء بنى العبـاس، وكـرد فـعل على هذا التحـامل انبـرى آخـرون للدفـاع عن العباسيين، وتبرير سياساتهم كما هو حال الهاشمى العباسى (ت ٦٢١ هـ) صاحب كتاب «المنتخب من مناقب الدولة العباسية ومآثر أئمتها المهدية».

(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٢٩٦.

(٣) نفسه: ص ٢٩٢.

(٤) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص١٠٢.

(٥) عمر الشبراوى: المرجع السابق، ص٨ .

ولعل ذلك يثير الحديث عن مقاصد المؤرخين الكامنة وراء كتابة التاريخ. وعلى الإجمال يمكن القول إنها لم تكن منزهة وبرئية فى أغلب الأحوال. فقد تذرعوا فى مقدمات كتبهم بأنهم استهدفوا الترشيد والتوجيه والتعليم والمواعظ والإعتبار. لكنهم فى الحقيقة - أو معظمهم على الأقل - راموا من ورائها الحصول على الثروة والجاه (١).

ولا غرو فقد كان معظم ما كتب بطلب من الحكام، أو كتب وقدم هدية لهم.

أما عن أسلوب الكتابة؛ فقد غلبت عليه الصنعة والزخرف والبديع إلى حد المبالغة فى الشكل على حساب المعنى والمضمون؛ وجرى ترصيع العرض بالشعر المقتبس أو مما نظمه المؤرخ نفسه؛ برغم سقامته وإسفافه(٢).

لذلك كله تدهور الفكر التاريخى فى العراق؛ شأنه فى ذلك شأن بقية أقاليم العالم الإسلامى؛ لأسباب تاريخية وثقافية أوضحناها سلفا. وقد أكد نفر من الدارسين الثقاة تلك الحقيقة؛ لكن دون برهنة أو تدليل. فقد حكم أحد الدارسين بأن الفكر التاريخى فى هذا العصر كان مجدبا وعقيما (٣). وحكم نفر آخر بأنه كان «تاريخا مختلقا». (٤) ولعل ذلك كان من أسباب تحامل الفقهاء على مؤرخى هذا العصر؛ فاتهموهم ببوار بضاعتهم (٥). ولا غرو؛ فقد نظر إلى «علم التاريخ» نظرة متدنية من قبل مصنفى العلوم؛ إذ اعتبروه «فرعا من فروع الأدب» (٦) ومن هنا تسقط دعاوى بعض الدارسين الذى قالوا إن هذا العلم شهد اكتمال بنائه وإزدهاره (٧) فى هذا العصر.

---

(١) ذهب البعض إلى ان الغاية المعرفية الصرفة كانت السبب الأساسى للكتابة فى التاريخ.
أنظر: عباس العزاوى: المرجع السابق، ص٣٩.

(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص٢٩٩.

(٣) انظر: روزنتال: المرجع السابق ص ٢٠٢.

(٤) انظر: عباس العزاوى: المرجع السابق، ص٥، ٧

(٥) نفسه، ص٣٤.

(٦) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص٣٠٦.

(٧) نفسه، ص ٢٩٦.

خلاصة القول؛ أن الفكر التاريخى فى العراق «فى عصر سيادة الإقطاع العسكرى» فقد مكانته المرموقة التى اكتسبها إبان «عصر الصحوة البورجوازية الثانية»؛ فانحدر من الازدهار إلى الانهيار؛ شأنه فى ذلك شأن سائر المعارف الأخرى.

من أجل إثبات مصداقية هذا الحكم؛ سنعرض بالدرس والفحص الدقيق لأهم كتاب لأشهر مؤرخى العصر؛ وهو كتاب «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير؛ كأنموذج يجسد خصائص الفكر التاريخى موضوعا ومنهجا ورؤية ومقصدا.

نشأ ابن الاثير الجزرى (ت ٦٣٠هـ) فى بيت وجاهة بجزيرة ابن عمر قرب الموصل. إذ كان والده تاجرا موسرا اشتغل فى خدمة آل زنكى أصحاب الموصل. فتولى ديوان المدينة فى عهد قطب الدين مودود بن زنكى.

لذلك انتقل ابن الاثير فى رفقة والده إلى الموصل؛ حيث درس علوم عصره، وبرع فى الفقه والحديث وعلوم اللغة والأدب. ثم اشتغل بالتجارة بين الموصل ودمشق وحلب وجنى من ورائها ثروة وضيعة، وكما كان حال والده، التحق بخدمة أتابكة الموصل، وكلف من قبلهم بالتأريخ لاسرتهم الحاكمة؛ فأنجز كتابه «التاريخ الباهر للدولة الأتابكية»؛ الذى عرضنا له سلفا. لذلك اعتبره الدارسون «مؤرخ بلاط» تأثر بوضعه الطبقى كإقطاعى وموقعه الإدارى المتميز فى كتابة التاريخ [١]. من هنا جرى التشكيك فى مكانته كمؤرخ شهير؛ فاعتبره البعض حوليا جامعا أكثر منه مؤرخا مبدعا [٢].

بينما مجده الدارسون العرب؛ فاعتبره البعض مؤرخا عقلانيا تجاوز سائر مؤرخى عصره [٣]. بل بلغ الشطط مداه حين اعتبره البعض الآخر فيلسوفا للتاريخ [٤].

---

(١) جب: المرجع السابق، ص١٢٢.

(٢) انظر:

روزنتال: المرجع السابق، ص٢٢.

(٣) انظر: عباس العزاوى: المرجع السابق، ص٣٣.

(٤) انظر: مقدمة محقق كتابه: الكامل فى التاريخ، جـ١، ص١٤، بيروت ١٩٨٢.

ولسوف نؤجل الفصل فى تقويم ابن الاثير إلى ما بعد دراسة مؤلفه «الكامل» دراسة تفصيلية؛ ليكون التقويم نتيجة استقراء؛ لا محض انطباع أو مجازفة.

بخصوص منهجه؛ اتبع منهج «المؤرخين ـ المحدثين» باعتباره مؤرخا متعمقا فى دراسة الحديث؛ أعمل النقد فى إسناد الروايات؛ دون مضمونها. وقد اعترف بذلك فى حسم ووضوح (١) . كما اعتمد المنهج الحولى ومنهج تناول الموضوعات فى آن واحد فى تصنيف الأخبار وتبويبها.

عول على النقل من المؤلفات السابقة المعتبرة؛ مثل تواليف البلاذرى والطبرى والمسعودى والمبرد وغيرهم: فيما يتعلق بتاريخ الشرق الإسلامى. وعلى مؤلفات كبار مؤرخى المغرب والاندلس؛ من أمثال الرقيق والوراق والرازى وابن حيان وابن حيون وغيرهم؛ فى كتاباته عن تاريخ الغرب الإسلامى.

يؤخذ عليه الإسراف فى النقل إلى حد اقتباس مجلدات كاملة من تاريخ الطبرى بعد اختصار أسانيدها، كما يعاب عليه إيراد روايا أسطورية وخرافية اعتمدها لالشىء إلا «لصحة إسنادها».

رؤيتة للتاريخ رؤية مضببة تخلط بين الاعتقاد فى «العناية الإلهية» وبين «البطولة» الفردية»؛ كمحرك للتاريخ.

تلك رؤية مختصرة لفكره التاريخى؛ سنحاول إيضاحها وتعميقها من خلال دراسة متأنية لأهم مؤلفاته وهو «الكامل فى التاريخ» (٢).

فى مقدمة الكتاب نص ابن الأثير على أن «العناية الإلهية» تتحكم فى سيرورة التاريخ وصيرورته (٣) ؛ رافضا بذلك اعتبار وقائعه وأحداثه فعاليات بشرية. وقد انتقد المؤلفات التاريخية السابقة؛ لا من حيث مضمونها، بل من حيث أشكالها. يقول: «إنها إما مطول قد استقصى

---

(١) انظر: ابن الاثير: التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية، ص١٣، القاهرة، د. ت

(٢) صنف ابن الاثير كتبا أخرى؛ عرضنا لها من قبل من أهمها «التاريخ الباهر للدولة الأتابكية»و «أسد الغابة فى معرفة الصحابة»، فضلا عن مؤلفات فى الانساب وادب السياسة.

(٣) الكامل فى التاريخ، ج١، ص١

الطرق والروايات، أو مختصر قد أخل بكثير مما هوآت[1] ؛ومن ثم وصمها «بالإخلال والإملال».

أما عن مقصده من كتابه «الكامل» فهو كتابة تاريخ عالمى «جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما... آتى بالحوادث والكائنات من أول الزمان؛ متتابعة يتلو بعضها بعضا إلى وقتنا هذا». [2] وهذا يشى بالإهتمام بالتاريخ السياسى فى المحل الاول، وما عداه يكتسى أهمية ثانوية.

ويحمد لابن الاثير اعترافه بالنقل الكامل من تاريخ الطبرى «فلم أخل بترجمة واحدة منها» [3].

أما عن منهجه فقد جمع بين محاسن التاريخ الحولى فى تعاقب الأحداث وتسلسلها، وبين تناول موضوعات مكتملة؛ حتى يتحاشى تشظية الأحداث وتجزئتها.. والحق أن الجمع بين المنهجين جد مستحيل عمليا؛ الأمر الذى أوقع ابن الاثير فى منزلق التكرار أحيانا، وإلى كسر النهج الحولى فى أحيان أخرى؛ وهو ما سنوضحه فى موضعه.

إعترف ابن الأثير أيضا - وبزهو- بأنه صنف الكتاب بتكليف من المظهر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل «من عم رعيته عدله ونواله» [4]. كما كشف عن حقيقة تدهور علم التاريخ فى عصره وازدراء الفقهاء له، واتهامهم المؤرخين بأنهم «أصحاب قصص وأخبار» [5]. لذلك تصدى لتبيان فؤائد العلم الدينية والدنيوية؛ باعتباره يتوخى المواعظ والاعتبار لترشيد الحكام والرعية فى آن، كما يحث «على الإعراض عن الدنيا والزهد فيها» [6] لنوال حسن الجزاء فى الآخرة.. وينم الخرضان الدينى والدنيوى معا عن ذيوع النزعة الأخلاقية فى الكتابات التاريخية فى عصر عمته الفوضى السياسية والجوائح الاقتصادية وتدهور العمران.

تناول ابن الأثير تاريخ العالم منذ بدء الخليقة حتى عصره فى إثنى

---

(١) نفسه، ص٢.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفسه، ص٣.

(٤) نفسه، ص٤.

(٥) نفسه، ص٦.

(٦) نفسه، ص٨.

عشر مجلدا، فعرض لقصة الخلق وتاريخ الانبياء، حسب رواية القرآن الكريم. كما تناول تواريخ العبرانيين والبابليين والفرس واليونان والدمان والبيزنطيين فى إيجاز مبتسر. أما عن تاريخ العرب قبل الإسلام فقد تناوله بشىء من التفصيل.

ولنا عدة ملاحظات منهجية تتعلق بهذه الموضوعات التى بسطها ابن الأثير فى الجزء الأول من الكتاب؛ وتتمثل فى عدم الاهتمام بالإسناد نظرا لتعويله على النقل من تاريخ الطبرى خصوصا. فكان يكتفى بذكر كلمة «قيل» دون أن يشير إلى مصدره (١) . وبخصوص التأريخ للفرس أشار إلى عقائدهم وداناتهم، كما أورد معلومات تنم عن اطلاع على الكتاب المقدس فيما كتبه عن العبرانيين (٢) . وبديهى أن يعتمد على القرآن الكريم فيما يتعلق بتاريخ الانبياء (٣) . كما استند إلى ابن إسحق فى تأريخه للعرب قبل الإسلام دون أن يشير إليه (٤) ويظهر بوضوح تأثره بالاسرائيليات فى تناوله تاريخ العبرانيين وتاريخ العرب قبل الإسلام (٥)، أما عن رؤيته العامة فى هذا الجزء فتؤسس للتاريخ باعتباره صراعا بين الخير والشر(٦).

فى الجزء الثانى عرض لتاريخ البعثة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين ومن أهم ما نلاحظة على منهجه؛ البدء بتطبيق النظام الحولى بعد ظهور التقويم الهجرى. كذا اتباع المنهج الحوارى القصصى فى العرض؛ بما فت فى اتساقه (٧) ، فضلا عن اتباع طريقة السرد الوصفى والحكى الجاف دون أدنى تعليل أو تحليل. كذا إثبات الإسناد مختصرا أحيانا وإهماله كلية فى معظم الاحيان (٨) . هذا فضلا عن حرصه على ذكر الولاة فى نهاية كل حولية. وتقديم موجز إخبارى عن أهم الاحداث، ومشاهير الوفيات. والحق انه لم يقدم أدنى جديد يتميز به عمن نقل عنهم؛ باستثناء حرصه على إيراد أخبار الكوارث الطبيعية وما ترتب عليها من آثار سلبية (٩).

---

(١) انظر: الكامل فى التاريخ، جـ١، ص١٠ كمثال.

(٢) نفسه، ص١٤

(٣) نفسه، ص٦٧ وما بعدها.

(٤) نفسه، ص٥٧٢.

(٥) نفسه، ص٦٤ وما بعدها: كمثال.

(٦) نفسه، ص٣٦٧.

(٧) نفسه، ص٥٥٩؛ كمثال.

(٨) نفسه، ص٥٦٢؛ كمثال.

(٩) نفسه، ص ٥٥٨، ٥٥٩؛ كمثال.

وفى الجزء الثالث؛ استمرار لعرض الأحداث الهامة الخاصة بالعصر الاموى حسب النظام الحولى، أما الوقائع الأقل أهمية فيجملها تحت عنوان «عدة حوادث» [١]. ونلاحظ أيضا تجنبه الإتيان بموقفه أو رأيه فى الوقائع الهامة موضع الخلاف؛ إذ كان يكتفى بذكر ما قيل بصددها من لدن السابقين [٢].

وفى الجزء الرابع الذى يؤرخ للعالم الإسلامى منذ نهايات العصر الاموى إلى بدايات العصر العباسى؛ يواصل سرد حولياته. وإن توقف أحيانا ليعالج بعض الموضوعات خلال عدة سنوات دفعة واحدة متذرعا «بقلة الأخبار.. وإذا تفرقت لم تعرف كما يجب» [٣] . كما أورد معلومات هامة عن تاريخ المغرب والأندلس أغفلها الطبرى؛ فاستقاها من مصادر أخرى مغربية وأندلسية دون الإشارة إليها إلا بكلمة «قيل» أو قالوا [٤] . وعرض إخبار بيزنطة؛ وإن فى إيجاز شديد [٥] ، كما قام بتسجيل اخبار الحجيج [٦] واثبت نصوص بعض الخطب الخاصة بالخلفاء أو الولاة وزعماء الخوارج [٧]، دون إشارة إلى مصدره. وفى كل الأحوال عج العرض بالأساطير والخرافات [٨].

فى الجزء الخامس؛ عرض ابن الأثير أحداث الفترة التالية فى التاريخ العباسى موضحا فى كثير من الأحيان صلاته بالتاريخ البيزنطى. ونلاحظ بصدد عرضه عدة ملاحظات منها؛ إعطاء بعض الأحداث الثانوية الكثير من الاهتمام، بينما تناول بعض الأحداث الهامة عرضا [٩] . كما نلاحظ تحامله على الثورات الإجتماعية إنطلاقا من موقف طبقى فوصم زعماءها بالكفر والإباحية [١٠] . وبخصوص تاريخ المغرب أورد معلومات إضافية.

---

(١) نفسه، جـ٣، ص٣٨؛ كمثال.
(٢) نفسه، ص٢٦٠؛ كمثال.
(٣) نفسه، جـ٤، ص٥٦٨؛ كمثال.
(٤) نفسه، ص ٥٥٦؛ كمثال.
(٥) نفسه، ص٥١٩.
(٦) نفسه، ص٥١٥؛ كمثال.
(٧) نفسه، ص١٠٦؛ كمثال.
(٨) نفسه، ص٩٣؛ كمثال.
(٩) نفسه،جـ٥، ص٥٩٠؛ كمثال.
(١٠) نفسه، ص ٥٩٣؛ كمثال.

نقلها عن الرقيق القيروانى دون الاشارة إليه [١] . وعلى المستوى المنهجى يهمل الإسناد تماما ويكتفى بذكر كلمة «وقيل» [٢] . كما أثبت الرسائل المتبادلة بين الخلفاء والولاة؛ دون الاشارة إلى مصدره [٣] وعلى عادته؛ يقدم مادة ضافية وهامة عن النوازل الطبيعية؛ كالطواعين والزلازل والغرائب الكونية [٤].

فى الجزء السادس؛ يواصل ابن الأثير عرض تاريخ العصر العباسى؛ حسب النظام الحولى. ونلاحظ اتسام العرض بعدة سمات. منها الإسراف فى ذكر مناقب الحكام والوزراء إلى درجة الإسفاف [٥] . كذا الشطط فى إيراد روايات خرافية وأسطورية اعتمدها دون روية [٦] . كذا التحامل على الشيعة والخوارج والسكوت عن تبيان موقفه إزاء العباسيين [٧].

هذا فضلا عن الاستشهاد بالشعر [٨] وإثبات نصوص الخطب، وذكر الكوارث الطبيعية، والإلحاح على السرد الحكائى الحوارى [٩].

وفى الجزء السابع ؛ واصل حولياته الخاصة بالعصر العباسى، مبديا سلبياته المعهودة فى النظر إلى حكام «دار الحرب» باعتبارهم «كفرة» [١٠] وإلى الحركات الثورية الاجتماعية باعتبارها من قبيل «الفتن» [١١]، كما وصم زعيم ثوار «الزنج» «بالخبث» [١٢] ، ووصم القرامطة بعبارة «لعنهم الله» [١٣].

---

(١) نفسه، ص ٥٢٧؛ كمثال.

(٢) نفسه، ص ٢٢٩؛ كمثال.

(٣) نفسه، ص٣٩؛ كمثال.

(٤) نفسه، ص٣٩٣؛ كمثال.

(٥) نفسه، جـ٦، ص ٢٣؛ كمثال.

(٦) نفسه، ص ١٧؛ كمثال.

(٧) نفسه، ص٢١٠؛ كمثال.

(٨) نفسه، ص ٤؛ كمثال.

(٩) نفسه، ص٢٨؛ كمثال.

(١٠) نفسه، جـ٧ ، ١٦

(١١) نفسه، ص ١٢١؛ كمثال.

(١٢) نفسه، ص ٣٩٩.

(١٣) نفسه، ص٥٥٠.

وفى الجزء الثامن؛ واصل حولياته عن العصر العباسى مع الاهتمام بالدول المستقلة المناوئه، كالدولة الفاطمية [١] . ونلاحظ انه ينقل كثيرا عن الطبرى دون تصرف ودون إشارة إلى المصدر [٢] . كما يعرض لبعض الأحداث الهامة - مثل مقتل الحلاج - دون اتخاذ موقف [٣] . ويقال نفس الشىء على حركات مدعى النبوة؛ فيكتفى بالقول: «تعالى الله عما يقول الظالمون» [٤] . هذا فضلا عن إيراد الخرافات والأساطير بصورة تشى باعتقاده فى صحتها [٥].

وفى الجزء التاسع؛ يستمر التاريخ الحولى كالمعتاد. ونلاحظ اهتمامه بتاريخ آسيا الوسطى والهند؛ دون إشارة إلى مصادره[٦] . كذا اهتمامه بأحوال بيزنطة مبديا روح التعصب وعدم الإلمام بأخبارها [٧] كما اورد معلومات ضافية عن السلاجقة؛ نعتقد أنه نقلها عن الراوندى؛ دون الإشارة إليه [٨] . ويقال الشىء ذاته فى معلوماته عن المرابطين؛ حيث نقل عن ابن الصيرفى.

وفى الجزء العاشر؛ يظهر ثراء المعلومات عن المشرق والمغرب دون تبيان المصادر [٩] . كما يفصل فى دقائق تاريخ الأتابكة الذين امتدح جهودهم فى مواجهة الصليبين [١٠] . وفى كتابته عن طائفة الإسماعيلية بالشام نلاحظ مسحة من التحامل[١١] ؛ بينما يبدى انحيازا تاما للأتابكة والسلاجقة [١٢].

فى الجزء الحادى عشر؛ أورد معلومات ضافية عن الصين لم يشر إلى مصدرها [١٣] . كما واصل تمجيده للأتابكة، وصمت عن تبيان موقفه فى

---

(١) نفسه، جـ ٨، ص٤٥ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١.

(٣) نفسه، ص١٢٦.

(٤) نفسه، ص٢٩٤.

(٥) نفسه، ص٢٨٩، ٢٩٢.

(٦) نفسه، جـ٩، ص١٣٨ وما بعدها.

(٧) نفسه، ص٤٩٧؛ كمثال.

(٨) نفسه، ص ٤٩٧ وما بعدها.

(٩) نفسه، جـ١٠، ص١٦٧ وما بعدها.

(١٠) نفسه، ص٤٨٥ وما بعدها.

(١١) نفسه، ص ٤٨٦ وما بعدها.

(١٢) نفسه، ص ٦٣٢ وما بعدها.

(١٣) نفسه، جـ١١، ص٧١ وما بعدها.

النزاع بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى. لذلك تنفس الصعداء بعد موت نور الدين محمود؛ فأعلن ولاءه لصلاح الدين معلقا على ذلك بقوله : «وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها [١]». وكان ذلك بداية انحيازه للدولة الأيوبية التى أشاد بدورها الجهادى ومآثر سلاطينها [٢].

فى الجزء الثامن عشر والأخير؛ استطرد ابن الأثير فى عرض التاريخ الأيوبى [٣] . كما اهتم بأخبار الدولة الخوارزميه [٤] منذ قيامها حتى سقوطها على يد المغول. وعن المغول قدم معلومات هامة وفريدة؛ خصوصا؛ فيما يتعلق بغزوهم بلاد الجزيرة [٥] وديار بكر؛ إذ كان شاهد عيان لتلك الأحداث الجسام.

كما نلاحظ وفرة معلوماته عن الأوضاع الإقتصادية فى عصره؛ خصوصا ما تعلق بأصناف الحرف ونقابات التجار[٦] والسياسة الجبائية والمالية [٧] . ولا غرو ؛ فقد ورث حرفة التجارة عن والده.

تلك صورة موجزة عن أشهر مؤرخى العراق فى عصر الإقطاعية العسكرية، تشى فى مضمونها بأن ابن الاثير لم يتجاوز خصائص الكتابة التاريخية السائدة فى عصره، وهى صورة قاتمة فى التحليل الأخير؛ تغنى قسماتها عن البيان.

لذلك نعتقد - بحق - فى مصداقية حكم «روزنتال» بأن ابن الاثير «كان حولى جماعة اكثر منه مؤرخا مبدعا» . وهنا تسقط أحكام القيمة التى أطلقها جل الدراسين العرب التى جعلت من ابن الاثير مؤرخا من طراز فريد.

---

(١) نفسه، ص٣٧٣.

(٢) نفسه، ص٣٩٣.

(٣) نفسه، جـ١٢، ص٢٠ وما بعدها.

(٤) نفسه، ص ٢٣١ وما بعدها.

(٥) نفسه، ص٤٩٥.

(٦) نفسه، ص ٤٩٩؛ كمثال.

(٧) نفسه، ص ٤٦٧.

ثانيا : فى الشام

تأثر الفكر التاريخى فى بلاد الشام بالأحداث الجسام التى وقعت خلال الفترة ما بين منتصف القرن الخامس وأوائل القرن العاشر الهجريين. إذ كانت بلاد الشام ساحة للصراع الفاطمى السلجوقى، كما كانت ميدانا للصراع الإسلامى الصليبى واجتاحتها الجحافل المغولية بعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ ممثلة فى الغزو التيمورى. ثم وقعت بلاد الشام فى يد المماليك بعد قيام دولتهم فى مصر؛ فأصبحت ولاية تابعة لها.

وعلى الصعيد الاقتصادى؛ ساد نظام الإقطاع العسكرى الذى غمر العالم الإسلامى برمته؛ منذ منتصف القرن الخامس الهجرى، فمزق البلاد إلى كيانات متجزئة؛ وإن كان تأثيره فى الشام اخف وطأة نظرا لاستمرار النشاط التجارى «بعيد المدى»؛ إذ كانت بلاد الشام بحكم موقعها الجغرافى محطة لتجارة العبور العالمية بين آسيا وأوروبا.

وعلى الصعيد الاجتماعى؛ تعقدت الخريطة الإثنية فى بلاد الشام بعد أن غمرتها هجرات بشرية تركية وخوارزمية وفلول عناصر صليبية استوطنت البلاد حتى بعد انسحاب الصليبيين إلى أوروبا. وعمت الطائفية الدينية والمذهبية وشهدت البلاد مللا مختلفة إسلامية ونصرانية ويهودية، ونحلاسنية وشيعية إسماعيلية واثنى عشرية ودرزية ونصيرية؛ الأمر الذى اثر فى البنية الإجتماعية فغدت فسيفساء إثنية وطائفية متنافرة.

وعلى الصعيد الثقافى؛ تعاظمت الاتجاهات الفكرية النصية والصوفية التهويمية على حساب الاتجاه العقلانى الليبرالى. كما تدهورت سائر العلوم والآداب والفنون؛ نتيجة سيادة الإقطاع العسكرى وهزال البورجوازية. ولم يبق للمعارف الدنيوية وجود إلا عند بعض الأقليات الشيعية والسوريانية؛ التى كانت أشبه بجزر منغلقة ومحاصرة وسط بحر من المعارف النصية الدينية السائدة.

تلك رؤية «بانورامية» موجزة عن تاريخ الشام السياسى والاقتصادى والإجتماعى والثقافى، سبق لنا تفصيلها فى المجلدات الثلاثة الأخيرة من «سوسيولوجيا الفكر الإسلامى»؛ فإلى أى مدى كان الفكر التاريخى بالشام متسقا مع تاريخ الشام؟

الإجابة تحملها الصفحات التالية مفصلة وموثقة؛ إذ نطمح إلى تقديم صورة متكاملة عن مؤرخى العصر، والتعرف على انتماءاتهم المذهبية، وأوضاعهم الطبقية، ومدى حظهم من الثقافة السائدة. كما سنحاول رصد اجناس الكتابة التاريخية وأنواعها وموضوعاتها لتبيان الثوابت والمتغيرات والمشترك العام مع سائر أقاليم «دار الإسلام»؛ فضلا عن الخصوصية المميزة للشخصانية الشامية، ان جاز التعبير. كما سنقف على مرجعيات المؤرخين ونطاق ومصادر معلوماتهم، كذا تحديد مناهجهم ورؤاهم وباستقراء تلك الجوانب جميعا يمكن تحديد مكانة الفكر التاريخى الشامى وتقويمه. ولن نغفل تقديم دراسة دقيقة ومتأنية عن أحد أعلام مؤرخى الشام؛ كأنموذج يجسد خصائص الكتابة التاريخية فى هذا الإقليم الهام.

ونستبق؛ فنقدم أيضا رؤية «بانورامية» موجزة تتضمن تلك المحاور السابقة فى عجالة.

بخصوص مؤرخى الشام؛ نلاحظ وفرة أعدادهم وتعاظم إنتاجهم كما وترديه كيفا، وهذا راجع إلى هجرة الكثيرين من المؤرخين غير الشاميين سواء من المشرق، نتيجة الغزوات المغولية - أو من المغرب نتيجة تعاظم حركة «الاسترداد» فى الاندلس، كذا لمواتاة أسباب العيش نسبيا فى الشام؛ من جراء دوره الوسيط فى التجارة العالمية إستقر هؤلاء المؤرخون فى مدن الشام، وشاركوا المؤرخين المحليين المسلمين والذميين فى مجال التاريخ. ولعل هذا يفسر لماذا اصبحت بلاد الشام مركز الثقل - بالإضافة إلى مصر - فى الكتابة التاريخية بعد زحزحة العراق نتيجة سقوط الخلافة العباسية. لقد تعاظم نتاج المؤرخين؛ فخلف المؤرخ الواحد عشرات الكتب؛ التى كانت بعضها فى عشرات المجلدات. وبرغم تلك الوفرة لم يبق منها إلا القليل؛ نظرا للصراعات الدينية والمذهبية والإثنية التى أفنت الكثير من المصنفات نتيجة غلواء التعصب المذهبى بين الخصوم.

نلاحظ أيضا غلبة: الطابع المحلى على ما كتبه المؤرخون وصنفوه. وإذا كانت تلك الظاهرة قد سادت سائر أقاليم العالم الإسلامى؛ نتيجة سقوط الخلافة العباسية وقبلها الخلافة الفاطمية والخلافة الأموية بالاندلس فتحول الولاء للدولة إلى الإقاليم. وفى معظم الأحيان إلى المدن؛ إلا أن هذه الظاهرة كانت أكثر بروزا فى بلاد الشام نتيجة تجزئته إبان الوجود الصليبى؛ بحيث أصبحت معظم

المدن الكبرى ذات استقلال ذاتى أشبه ما يكون بنمط «المدينة - الدولة».

وقد انعكس ذلك على الكتابة التاريخية؛ فترجمت هذا الواقع التاريخى الخاص بتعاظم الكتابة فى تاريخ المدن من ناحية، والتاريخ الحضارى من ناحية أخرى. وتضاءل الاهتمام بالتاريخ السياسى لأن الواقع السياسى؛ كان متأزما بعد أن هيمنت قوى أجنبية وافدة على مصائره.

كان ذلك أيضا من أسباب العزوف عن كتابة «تواريخ عالمية»؛ فما كتب بصددها كان محدودا وعديم القيمة؛ نظرا لتقلص دائرة الثقافة على النحو الذى أشرنا إليه من قبل. وتوجه الاهتمام إلى الكتابة فى «التاريخ الإسلامى العام» وفى «تاريخ الاسرات الحاكمة» وفى «سير» الحكام، و«تراجم الإعلام». خصوصا أعلام المذاهب الفقهية بعد أفول المذاهب الكلامية. كما حظى أعلام الصوفية بمزيد من الاهتمام نتيجة انتشار التصوف؛ زهدا فى زمن غص بالقلاقل والهزائم والقحط والمجاعات. ولعل هذا يفسر إقبال المؤرخين فى جل مصنفاتهم على تسجيل أخبار الكوارث الطبيعية والنوازل والمجاعات وأخبار الوفيات بصورة لم تكن معهودة من قبل.

ونظرا لكثرة الحروب والصراعات الخارجية والداخلية؛ اهتم مؤرخو العصر بالكتابة عن القلاع والحصون وأدوات الحرب وفداء الاسرى... الخ، وفى هذا الصدد ظهرت مؤلفات تاريخية تحض على الجهاد والاستشهاد وفق نمط استنفارى وعظى.

ونظرا لوجود التشيع فى الشام بصورة أكبر؛ وجد مؤرخون من الشيعة بصورة أكثر؛ حيث تجمعت أقليات شيعية فى المناطق الجبلية طلبا للأمان. وأسهم مؤرخو الشيعة فى الارتقاء بفن الكتابة التاريخية؛ لحفاظهم على بقايا التراث العلمى المندثر.

يقال نفس الحكم بخصوص الأقليات اليهودية والنصرانية؛ خصوصا إذا ما وعينا دور السريان - نصارى الشام - فى حركة الترجمة خلال القرون الهجرية الأولى؛ فاحتضنوا «علوم الأوائل» التى درست وأهملها المسلمون؛ بل حرمها الفقهاء وجرموا المشتغلين بها. لذلك أسهم المؤرخون النصارى بدور محمود فى مجال التاريخ.

كما وفدت عناصر تركية من هضبة الأناضول، ومن بقايا السلاجقة والخوارزميين إلى بلاد الشام، وأسهمت بدور في الكتابة التاريخية.

برغم ذلك؛ لم يتطور الفكر التاريخى كيفا؛ فجل ما كتب كان نقلا وتكرارا واجترارا يفتقر إلى الإبداع والابتكار.

ويرجع ذلك إلى عقم المناهج؛ إذ أفضى النظام الحولى إلى تجزئة الحوادث وحال دون فهم يذكى الوعى التاريخى. كما عول مؤرخو العصر فى الغالب على إحياء منهج الإسناد الذى يهتم بالشكل دون المضمون؛ خصوصا أن معظم مؤرخى العصر كانوا حفاظا ومحدثين.

لذلك غلب السرد والوصف على التحليل والتعليل، وسادت الرؤى الدينية والأسطورية والخرافية فى التفسير. وانتهك الحياد والموضوعية ليحل الانحياز والتعصب محلها. ومال العرض التاريخى إلى الابهام والخلط. وطغى أسلوب الصنعة اللفظية والزخرفة الأسلوبية على لغة العرض. كما تفشت العجمة واللهجات العامية فى ظل نظم أعجمية من الغرباء والعبيد. وكان ذلك كله من أسباب تدهور الفكر التاريخى حتى إن الكثيرين من فقهاء العصر وعلمائه شككوا فى علم التاريخ ونالوا من مصداقيته.

تلك هى رؤيتنا العامة؛ سنحاول عرضها وبسطها فى استطراد وتفصيل وتوثيق.

بخصوص مؤرخى العصر وأوضاعهم الإجتماعية والمذهبية؛ قمنا بإحصاء أولى عن مشاهير المؤرخين؛ استنادا إلى جرد شامل قام به أحد الدراسين العرب المرموقين؛(١) سنحاول من خلاله تصنيف مؤرخى الشام فى هذا العصر حسب وظائفهم ومهنهم؛ بما يشير إلى نوعية ثقافاتهم.

إشتغل بالتاريخ مؤرخون من أصناف شتى من محدثين وفقهاء وكتاب وقضاة وأمراء وفرسان وأطباء ووراقين وحرفيين، فضلا عن اليهود والنصارى، ومن جانبنا قمنا بتصنيفهم على النحو التالى:

---

(١) يرجع الفضل فى ذلك إلى الصديق المرحوم الدكتور شاكر مصطفى فى كتابه: «التاريخ العربى والمؤرخون» وسنعول على محتواه كمادة أولية «خام» نختصها بالبحث والدرس.

المؤرخون الفقهاء: منهم ابن المهذب (ت ٤٩٠هـ) والمقدسى (ت ٦٠٠هـ)، والعليمى (ت ٩٢٨ هـ).

المؤرخون المحدثون: منهم الأكفانى (ت ٥٢٤هـ)، وأبو شامة (ت ٦٦٥هـ)، والنووى (ت ٦٧٦هـ)، والمزى (ت ٦٤٢ هـ)، وابن حبيب (ت ٧٧٩ هـ)، وابن حجى (ت ٨١٦ هـ)، والبقاعى (ت ٨٠٩ هـ).

مؤرخون رسميون وكتاب دواوين: منهم ابن شداد (ت ٦٨٤ هـ)، والعمرى (ت ٧٤٩هـ) ، والصفدى (ت ٧٦٤ هـ) و ابن القلانسى (ت ٥٥٥هـ)، و العماد الأصفانى (ت ٥٩٧ هـ)، وابن نظيف (ت ٦٣١ هـ).

مؤرخون قضاة: منهم ابن خلكان (ت٦٨١هـ)، وابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ)، والسبكى (ت ٧٧١ هـ)، وابن رجب (ت ٧٩٥ هـ)، وابن جماعة (ت ٧٣٢هـ).

مؤرخون مدرسون: منهم ابن قاضى شهبة (ت ٨٥١ هـ) ، وابن طولون (ت ٩٥٣هـ).

مؤرخون أطباء: منهم الأثاربى (ت ٥٤٢ هـ) وابن ابى أصيبعة (ت ٦٦٨هـ).

مؤرخون أمراء ووزراء: منهم أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) وابن شاهنشاه (ت ٦١٧ هـ).

مؤرخون وراقون: منهم ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ) وابن شاكر الكبتى (ت ٧٦٤هـ).

مؤرخون متصوفون: منهم البونينى (ت ٧٢٦ هـ).

مؤرخون حرفيون: منهم ابن أبى طى (ت ٦٣٠ هـ).

مؤرخون مغاربة استوطنوا الشام: منهم التيفاشى (ت ٦٥١هـ)، والبرزالى (ت ٧٢٩ هـ)

مؤرخون أتراك استوطنوا الشام: منهم البسطامى (ت ٨٥٨ هـ)، الحبابى (ت ٩٨٢ هـ)، الإيجى (ت ٧٥٦ هـ)، الكافيجى (ت ٨٧٩ هـ).

مؤرخون يهود: منهم صدقيا اليهودى (ت ٦٢٤ هـ).

مؤرخون نصارى: منهم يوحنا الإفسوسى (ت ٥٨٦ هـ) وميشى حزقا (ت آواخر القرن السادس الهجرى) ويعقوب الرهاوى (ت ٧٠٨ هـ)، وميخائيل الكبير (ت ٥٩٦ هـ) وابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ) الذى كان يهوديا ثم تنصر.

مما سبق؛ يتضح أن جل مؤرخى العصر كانوا من المشتغلين بالعلوم الدينية؛ خصوصا بالفقه والحديث. يليهم المشتغلون بوظائف رسمية؛ سواء أكانوا أمراء أو وزراء أو كتاب أو مشايخ أو قضاة. وسيكون لذلك تأثيره على الفكر التاريخى موضوعا ومنهجا ورؤية؛ وهو تأثير سلبى سوف نوضحه فيما بعد. أما المؤرخون من الأطباء ورجال الدين المسيحى والوراقين والحرفيين - مثل ابن أبى طى الشيعى - فكان تأثيرهم إيجابيا؛ نظرا لاتساع دائرة معارفهم؛ حيث أحاط بعضهم ببعض علوم الحكمة والفلسفة التى كان الطب والفلك والطبيعيات والرياضيات من فروعها.

يشى التصنيف السابق أيضا؛ بنوعية ثقافة المؤرخين فقد كان معظمهم متعمقا فى العلوم الدينية واللغوية والأدبية أحيانا. أما العلوم الدنيوية، فاختص بها مؤرخو الشيعة والسوريان؛ كما أوضحنا من قبل. ولسوف تلعب ثقافة المؤرخين دورا محوريا فى مناهجهم ورؤاهم ونتاجهم العلمى كما سنوضح بعد قليل.

أما عن المحور الثانى: فيتعلق بأصناف الكتابة التاريخية وأجناسها.

وفى هذا الصدد؛ نلاحظ ندرة ما كتب من «تواريخ عالمية». وتعتقد أن السبب كان فى رسوخ النزعة الإقليمية من جانب، وضحالة الثقافة من آخر. وعلى كل حال فقد كتب ابن واصل فى هذا الميدان كتابه «التاريخ العالمى». كما ألف ابن الشحنة كتاب «الروض الناظر فى علم الأوائل والأواخر»، وصنف العمرى كتابا بعنوان «ممالك عباد الصليب». كما دون ياقوت الحموى «تاريخ الدول» [1] ونظرا الكون هذه الكتب مفقودة لا نستطيع ان نتعرف على محتواها ومناهج مؤلفيها ورؤاهم؛ اللهم إلا الجزم بغلبة النزعة الدينية من جراء الصراع الإسلامى، الصليبى؛ كما يشى بذلك عنوان كتاب العمرى سالف الذكر.

وفى المقابل؛ ولذات السبب اهتم المؤرخون بالتاريخ الإسلامى العام؛

---

(١) شاكر مصطفى، جـ٢، ص٢٥٢، جـ٤، ص٣٥.

بهدف تكريسه تربويا ودعائيا لمواجهة أخطار الصليبيين والمغول فضلا عن الكشف عن نزعة ماضوية ترتد إلى العصور الذهبية للتاريخ الإسلامى؛ دفعا للمهانة من جراء الهزائم المتوالية التى حلت بالمسلمين. فى هذا الحقل كتب ابن أبى طى كتابه «حوادث الزمان»، وسبط ابن الجوزى «مرآة الزمان» [١] ويعكس عنوان الكتابين وجهة نظرنا التى ألمحنا إليها من قبل. كما صنف ابن واصل «التاريخ الكبير» و «نظم الدرر فى التاريخ والسير» وألف أبو الفدا «المختصر فى أخبار البشر»، ودون الذهبى «تاريخ الإسلام» [٢] كما دون ابن شاكر الكتبى «عيون التواريخ»، وابن كثير «البداية والنهاية»، [٣] والعينى «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان»، كما صنف ابن ابى الدم «التاريخ المظفرى» [٤].

ومن خلال اطلاعنا على معظم هذه المؤلفات؛ نؤكد اعتماد مؤلفيها على النقل من مؤلفات السابقين؛ فهى لذلك عديمة القيمة؛ اللهم إلا ما يتعلق بالعصور التى عاينها مؤلفوها.

توالت على حكم الشام أسر حاكمة متعددة؛ فاطمية وسلجوقية وأتابكية وأيوبية ومملوكية؛ أرخ لها مؤرخو العصر؛ سواء بطلب من الحكام أو بدونه. ومن أهم هذا الجنس من الكتابة التاريخية؛ ما صنفه ابن شداد بعنوان «جنى الجنتين فى أخبار الدولتين» الأتابكية والايوبية [٥] كما أرخ العماد الاصفهانى للدولة السلجوقية فى كتابه «نصرة الفطرة وعصرة القطرة» [٦] . وكتب أبو شامة «الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية [٧]

---

(١) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق،ص١٣.

(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ج٤،ص٣٩، ٦٩، ٧٥، ٨٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ص٨٢، بيروت ١٩٩٦.

ويتحدث فى مقدمته عن الكوارث التى حلت بالمسلمين وضرورة لم الشمل من أجل نصرة الإسلام.

(٤) ابن أبى الدم:التاريخ المظفرى، ص١٤، القاهرة ١٩٨٩. ويشير فى مقدمته إلى أنه كتب بطلب من أحد الحكام؛ بما يشى باهتمام حكام الشام، بالتاريخ الإسلامى وتوظيفه من أجل الجهاد.

(٥) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص١٤.

(٦) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٥٥، ٢٥٦.

(٧) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص١٥.

وبالإطلاع على معظم هذه الكتب نلاحظ غلبة الطابع؛ المنقبى إذ أسرف كاتبوها فى تعداد ماثر الدول التى أرخوا لها.

ونظرا لبروز النزعة المحلية كنتيجة للتجزئة الإقطاعية وتحول الولاء إلى حكومات المدن؛ تعاظمت ظاهرة التأريخ لها خصوصا مدينتى دمشق وحلب نظرا لدورهما الجهادى ضد الصليبيين. كتب ابن القلانسى «المذيل فى تاريخ دمشق» على تاريخ ابن عساكر «تاريخ دمشق»؛ الذى بلغ ثمانين مجلدا، تحدث فيه عن طبوغرافيتها وفضائلها وتاريخ حكامها وتراجم أعلامها [(١)] وفى نفس الاتجاه؛ كتب ابن الأكفانى «تاريخ دمشق».

أما عن حلب، فيعد مؤلف ابن العديم «بغية الطلب فى تاريخ حلب»، أهم ما صنف عنها [(٢)]. كما صنف الاثاربى (ت ٥٤٢ هـ) عن مدن الشام واختص حلب بمزيد من الاهتمام، وكذلك القفطى. [(٣)]

وحظيت القدس - لمكانتها الدينية - باهتمام المؤرخين؛ فأرخوا لها. ومن أهم ما كتب عنها «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل». للصليحى (ت ٩٢٨ هـ).

كما صنفت عن المدن مدونات تجمع بين التاريخ وبين الإدارة وبين الجغرافيا؛ منها كتاب «إعلام الورى عمن ولى نائبا من الاتراك بدمشق الكبرى»؛ لابن طولون الصالحى (ت ٩٥٣ هـ) [(٤)].

أما عن مزج تواريخ المدن بالجغرافيا؛ فأنموذجه كتاب أبى الفدا (ت ٧٣٢ هـ) «تقويم البلدان»، كذا كتاب العمرى «مسالك الأبصار فى ممالك الامصار»، وسار ابن الوردى (ت ٧٤٩هـ) على منواله حين ألف «تتمة المختصر فى أخبار البشر» [(٥)].

---

(١) مرجوليوث: المرجع السابق، ص١٦٧.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص١١٠.

(٣) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٣٥، ٢٦٠.

(٤) انظر: ابن طولون الصالحى: إعلام الورى عمن ولى نائبا من الاتراك بدمشق الكبرى، ص٨٨ القاهرة ١٩٧٣.
حيث مزج التاريخ بالإدارة والنظم.

(٥) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص٤٠، ٤٢، ٦٩، ٧٢.

كما خصصت كتب لخطط المدن وطبوغرافيتها؛ مع مزجها بالسياسة والجغرافيا [١]. من أهمها «إعلام الورى» سالف الذكر [٢].

أما عن أدب السياسة؛ فهو صنف من الأدب التاريخى يمزج من السياسة والأخلاق والتاريخ؛ استهدف منه مؤرخوه إسداء النصح للحكام لترشيدهم، وتوخى آخرون تركيع الرعية للحكام. وعن الصنف الأول نمثل بكتاب ابن تيمية «السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية» [٣]. أما عن كتابات المنحازين للسلطة فيعبر عنها كتاب ابن جماعة (ت ٧٣٢ هـ) «تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام» [٤].

ثمة نوع آخر تعاظمت الكتابة فيه وهو فن «السير». ويدور بعضها حول سيرة الرسول (ﷺ)؛ بهدف استلهامها فى إصلاح واقع متأزم، ويدور معظمها حول سير الحكام التى دبجها «مؤرخو السلطان». كما اشتغل آخرون بها تقربا للحكام وزلفى؛ خوفا أو طمعا، أو هما معا.

فى هذا الصدد كتب ابن تيمية سيرة الرسول (ﷺ) بهدف التأسى بسيرته فى دعوته لإصلاح ما أفسده الحكام. كما كتب القطب الحلبى (ت ٧٣٥هـ) «السيرة النبوية» لأهل حلب الذين جاهدوا الصليبيين والمغول. [٥] كما كتب العماد الاصفهانى سيرة صلاح الدين [٦] . كذلك كان ابن ابى طى فى كتابه «كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين». وابن شداد (ت ٦٣٢ هـ) فى كتابه «النوادر السلطانية»؛ الذى ينطوى على الإسراف والمبالغة. [٧] يقول فى مقدمة كتابه «وكان الله قد أوقع فى قلبى محبته منذ أن رأيته، وحبه الجهاد فأحببته، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة اربع وثمانين؛ وهو يوم دخوله الساحل. وجميع ما حكيته قبل إنما هو من روايتى عمن اثق به ممن شاهده. ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدته، أو اخبرنى به من اثق به خبرا يقارب العيان» [٨].

---

(١) روزنتال: المرجع السابق، ص٢١٤.

(٢) ابن طولون: المرجع السابق، ص٨٨.

(٣) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص١٥٩.

(٤) راجع: المجلد الثانى من مشروع «سوسيولوجيا» فى طور الانهيار، إذ اوضحنا فتاوى ابن جماعة لتبرير سياسات الحكام وإخضاع الرعية؛ باسم الشرع.

(٥) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص٨٣، ٤٣.

(٦) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص١٢.

(٧) روزنتال: المرجع السابق، ص١٤٦.

(٨) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٧١، القاهرة ١٣١٧هـ.

كما كتب بعض المؤرخين سيرهم الذاتية إذ دون ابن طولون الصالحى كتاب «الفلك المشحون بأحوال محمد بن طولون» [١].

وكتب القاضى الفاضل «مذكرات يومية» تحكى سيرته فى ثنايا كتابه عن صلاح الدين، [٢] ولأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) مذكرات شخصية دون وقائعها فى «كتاب الاعتبار» فى صيغة تجمع بين الأدب والتاريخ [٣].

أما عن «التراجم». فهى تأريخ لأعلام الفقهاء والأدباء والمحدثين وشيوخ المتصوفة. ولم يهتم المؤرخون برجال الإدارة والقضاة وغيرهم ممن اشتغلوا فى خدمة الحكام؛ إذ جرى اعتبارهم أداة لهم فى تبيري سياستهم الجائرة [٤].

وما ترجم عن أعلام المذاهب الفقهية يشوبه التعصب المذهبى؛ وذلك بالتحامل المقذع على المذاهب المغايرة والحط من قدر معتنقيها.

ويلاحظ أن بعض التراجم تتعلق بأعلام المذهب الحنبلى، ومعظمها عن أعلام الشافعيين. أما المذاهب الفقهية الأخرى؛ فلا نسمع عن تراجم لأعلامها البتة. وعندنا أن المذهب الشافعى أصبح مذهب السلطة منذ تبناه الغزالى، بينما عبر مذهب ابن حنبل عن المعارضة؛ كما هو حال ابن تيمية.

عن تراجم الحنابلة؛ صنف ابن رجب «طبقات الحنابلة» [٥]، وعن الشافعية؛ كتب السبكى «طبقات الشافعية»، كما دون ابن كثير كتابا بنفس العنوان، فضلا عن ترجمة للإمام الشافعى. وفى نفس السياق كتب ابن قاضى شهبة «مناقب الإمام الشافعى وطبقات أصحابة» وكتب النووى «طبقات الشافعية» و «مناقب الشافعى والبخارى».[٦]

وعن أعلام المتصوفة كتب النووى «بستان العارفين»، و«رياض الصالحين» و «مرآة الزمان فى تاريخ الإيمان».

---

(١) انظر : ابن طولون الصالحى: الفلك المشحون بأحوال محمد بن بن طولون، ص ١١، دمشق ١٣٤٨ هـ.

(٢) روزنتال: المرجع السابق، ص٢٣٩.

(٣) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٤٤.

(٤) نفسه، جـ١، ص٥

(٥) نفسه، جـ٤، ص٩٢.

(٦) نفسه، جـ٤، ص١٠٥.

كما وجدت كتب فى التراجم جمعت مشاهير الفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء والمتصوفة والأعيان فى سفر واحد. من أهمها «نظم الدور فى التاريخ والسير» لابن واصل، و«تهذيب الكمال فى أسماء الرجال» للمزى (ت ٦٤٢ هـ)، و «سير أعلام النبلاء» للذهبى [١]، و «وفيات الأعيان» لابن خلكان، و«الوافى بالوفيات» للصفدى (ت ٧٦٤ هـ)، و«فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبى [٢]. كما اهتم مؤرخو الحوليات بوفيات المشاهير فسجلوها فى خواتم حولياتهم [٣].

وأفردت كتب لتراجم لمشاهير من الأطباء وأخرى للشعراء؛ فقد صنف ابن أبى أصيبعة «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء».

وترجم العماد الاصفهانى لشعراء عصره فى «خريدة القصروجريدة العصر» [٤].

أما عن الكتابة فى الأنساب فلم يهتم بها المؤرخون ربما لاختلاط الإثنيات وفقدان العرب مكانتهم فى توجيه الأحداث.

لذلك لم نقف إلا على مؤلف واحد عن النسب العربى؛ وآخر عن أنساب الأسرة الملوكية الجركسية؛ هو كتاب «قهر الوجوة العابسة بنسب الجراكسة» لابن شاكر الكتبى [٥].

كما صنفت مؤلفات تناولت موضوعات شتى؛ عكست حياة الطبقة الأرستقراطية المترفة، وأخرى تحض على الجهاد، أو تعبر عن المحن والفتن التى سادت العصر، أو تؤرخ للغزو التيمورى، أو تعرض لتواريخ أقاليم أخرى ذات صلة ببلاد الشام.

من أهم هذه المؤلفات كتاب «البستان فى محاسن الغلمان» لابن أبى طى، الذى يؤرخ لانتشار الفساد الخلقى بين أفراد الطغمات الحاكمة.

---

(١) نفسه، ص٥٤.

(٢) نفسه، ص ٧٧.

(٣) انظر.. ابن طولون الصالحى: المصدر السابق، ص٧٦؛ كمثال.

(٤) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٤٨، ٢٦٩.

(٥) نفسه، جـ٤، ص٧٩.

كما صنف ابن كثير كتاب «الاجتهاد فى طلب الجهاد» بهدف شحذ الهمم لمواجهة الغزو الخارجى، وكتاب «الفتن والملاحم»؛ تعبيرا عن الصراعات الداخلية التى تفاقم خطرها فى هذا العصر.

ولأن العصر شهد حكومات أجنبية دخيلة وعسكرية؛ اهتم المؤرخون بالإصطلاحات العسكرية والإدارية والتعريف بها؛ كما هو الحال بالنسبة لكتابات ابن طولون الصالحى(١).

ونظرا لما ترتب على الغزو التيمورى لبلاد الشام من آثار خطيرة؛ فقد أرخ لها ابن عربشاه فى «عجائب المقدور فى نوائب تيمور» (٢).

وجرى التأريخ للمؤسسات التعليمية الدينية والمذهبية؛ فصنف ابن حجى (ت ٨١٦ هـ) كتاب «الدارس من تاريخ المدارس» (٣).

ونظرا لتعاظم الكوارث الطبيعية وتفشى الطواعين والأوبئة والمجاعات؛ اهتم جل مؤرخى العصر بتدوين أخبارها؛ سواء فى ثنايا عروضهم بإفراد حيزلها، ونهايات حولياتهم (٤).

وإذ استوطن الشام كثيرون من المؤرخين النازحين من أقاليم أخرى؛ فقد دأب هؤلاء علي التأريخ لمواطنهم الاولى، كما هو الحال بالنسبة للتيفاشى (ت ٦٥١ هـ) التونسى الاصل؛ الذى صنف كتاب «الدرة الفائقة فى مجالس الأفارقة» و «سجع الهديل فى أخبار النيل». كما كتب ابن ابى طى «تاريخ مصر» التى زارها معظم مؤرخى الشام باعتبارها مقر السلطنة المملوكية التى وحدت مصروالشام فى كيان سياسى واحد. كما كتب ابن شداد «تحفة الزمن فى طرف أهل اليمن» (٥).

أما عن مؤرخى الشيعة؛ فقد صنفوا كتبا فى الموضوعات السابقة فضلا عن مذاهبهم وتراثهم التاريخى والمعرفى ومشاهير رجالاتهم. وفى

---

(١) انظر: إعلام الورى، ص٧٦، ١٦٣؛ كمثال.

(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص١٠٨.

(٣) نفسه، ص٩٤

(٤) على سبيل المثال، انظر: ابن شاكر الكتبى: عيون التواريخ، جـ٢٤، ص٦ من المقدمة،

ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٥، ٨، بيروت ١٩٩٦.

(٥) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٥٣، ٣٠١، جـ٤، ص٣٠.

هذا الصدد كتب ابن أبى طى أكثر من خمسين مؤلفا؛ منها خمسة عشر فى التاريخ؛ لكنها فقدت جميعا، ولا يخلو ذلك من مغزى فى الدلالة على التعصب المذهبى الذى ساد الشام فى ذلك العصر، ولسوف نفرد له مبحثا خاصا فى نهاية هذا القسم - للتعريف بمصنفاته ومكانته فى التاريخ الإسلامى.

ومن مشاهير مؤرخى الشيعة الإسماعيلية؛ نقف على اسم الاثاربى (ت ٥٤٢هـ) الذى كتب مصنفات عدة، أهمها عن مدينة حلب ودورها فى مواجهة الصليبيين [١] منهم أيضا سبط ابن الحوزى (ت ٦٥٤هـ) الذى اشتهره بتهجره فى العلوم الدينية والدنيوية، وله مؤلفات كثيرة فى التاريخ العام وتاريخ الشيعة من اشهرها كتاب «خصائص الائمة» الذى اضطهد بسببه، وحمل عليه مؤرخو السنة فى عصره؛ إذ رماه ابن أبى الدم بتهمة الزندقة [٢].

وإذ كانت بلاد الأناضول تابعة إداريا للشام فى العصر السلجوقى والايوبى والمملوكى، فقد هاجر بعض مؤرخيها إلى الشام ومصر واستوطنوا فيهما، من اشهرهم البسطامى (ت ٨٥٨ هـ). ويبدو أنه كان شيعيا إذ كتب فى علم الجفر وعلم الحروف؛ فضلا عن مؤلفات التاريخ العام، وفى العجائب والغرائب. كذلك اشتهر الحبابى (ت ٩٨٢هـ) والإيجى (ت ٧٥٦ هـ)، والكافيجى بما كتبواعن التاريخ كعلم له مقاصده ومراميه؛ خصوصا كتاب «مختصر التاريخ» للكافيجى الذى سبق التعريف به.

أما عن مؤرخى أهل الذمة؛ فأشهرهم ابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ) الذى كان يهوديا ثم تنصر. وله باع طويل فى العلوم الحكمية والفلسفية والاديان والعقائد، فضلا عن إجادته عدة لغات هى: العربية والسريانية والعبرية واليونانية: وقد انعكس ذلك إيجابا على كتاباته التاريخية، التى من أهمها كتابه القيم «مختصر التاريخ».

واهتم المؤرخون السوريان بعقيدتهم النصرانية؛ فتحدثوا عن المؤسسات الدينية، وصنفوا كتبا فى تاريخ الكنائس الشرقية ورجالها وتراثها الدينى والمعرفى، فضلا عن كتابات عن المجتمع الشامى عموما؛ اتسمت بقدركبير

(١) ابن ابى الدم: التاريخ المظفرى، ص٠١٧ .

(٢) نفسه، جـ٢، ص٢٣٥ .

من الحياد والموضوعية. من هؤلاء ميشى حزقا الذى كتب عن «آباء الكنيسة»، ويوحنا الإفسوسى (ت ٥٨٦ هـ) صاحب «التاريخ الكنسى»، ويعقوب الرهاوى (ت ٧٠٨ هـ) الذى كتب عن التراث النصرانى. واهتم بأخبار الكوارث الطبيعية وآثارها الاجتماعية. منهم أيضا ميخائيل الكبير (ت ٥٩٦ هـ) الذى صنف تاريخا باسمه عرض فيه للطائفة وأحوالها.

أما عن المؤرخين اليهود فلا نعرف منهم إلا «صدقيا اليهودى» (ت ٦٢٤ هـ) وكان طبيبا ووزيرا لدى أمراء بنى أيوب؛ قد كتب مؤلفا عن تاريخ اليهود [١].

تلك صورة عامة عن أجناس الكتابة التاريخية وموضوعاتها. وهى تشى بتعددها ووفرة ما كتب فيها وفقدان الكثير منها لاسباب عرضنا لها من قبل، وما يعنينا تعقيبا على ما سبق هو أن بلاد الشام شهدت ظاهرة «الذيول» و «المختصرات» بصورة مبالغ فيها، وتفسير ذلك كامن فى جدب القرائح وعدم القدرة على الإبداع من ناحية، والرغبة فى توسيع دائرة القراء ممن لا يستطيعون الاطلاع على المؤلفات الضخمة من ناحية أخرى.

من أهم هذه المختصرات والملخصات: «مختصر» ابن أبى الدم لكتابه «التاريخ الكبير» الذى صنفه بطلب من الملك المظفر تقى الدين محمود [٢].

كما شاعت ظاهرة كتابة «الأراجيز» الشعرية التى تختزل التاريخ فى منظومات من الشعر؛ بهدف سهولة تداولها، من أشهرها أرجوزة عن «ولاة دمشق» نظمها ابن شاكر الكتبى؛ لهدف تعليمى [٣].

تلك هى أجناس الكتابة التاريخية؛ فماذا عن المرجعية؟

بخصوص العصور التى عاشها المؤرخون. أفادوا من الوثائق خصوصا من عمل منهم فى خدمة الدولة ودواوينها؛ كماكان بعضهم شهود عيان للأحداث؛ شاركوا فيها أو استمدوا معلوماتهم ممن شارك فيها. أما عن العصور السابقة؛ فقد عولوا على النقل من مؤلفات السابقين.

---

(١) عن مزيد من المعلومات؛ راجع: شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص٤١٠ وما بعدها.

(٢) التاريخ المظفرى، ص١٤.

(٣) روزنتال: المرجع السابق، ص٢٤٥.

بخصوص الصنف الأول من المصادر؛ أتيح «لمؤرخى السلطان» الاطلاع على الكثيرمن الوثائق فضمنوها مؤلفاتهم فى صيغتها الأصلية؛ دون نقد أو تمحيص فى الغالب الأعم. فابن أبى الدم صاحب «التاريخ المظفرى» شارك فى أحداث عصره السياسية والعسكرية، وكان على صلة برجالات الدولة الايوبية؛ فكانوا مصدر معلوماته [1]. ورافق العماد الأصفهانى صلاح الدين فى حروبه، وكتب له وثائق معاهداته واتفاقياته [2]. كما كان شاهد عيان لحملة لويس التاسع على مصر؛ فسجل وقائعها مفصلة [3]. واعتمد ابن كثير على ما عاينه وشاهده عندما كتب مؤلفه [4] «البداية والنهاية». كما عول ابن طولون الصالحى على مشاهداته فضلا عن النقل [5]؛ لذلك قدر له الكشف عن الكثير من اسرار البلاط المملوكى [6].

وفضلا عن شهادة العيان؛ استمد بعض المؤرخين معلوماتهم سماعا عن شهود عيان؛ فابن شداد - مثلا - جمع الكثير - حسب قوله - «عمن اثق به ممن شاهده.. أو اخبرنى به من اثق به خبرا يقارب العيان» [7]، واعتمد ابن شاكر الكتبى «المساءلة»، و«السماع» من شهود عيان [8].

أما عن العصور السابقة؛ فقد اعتمد عن المؤرخون على مصنفات السلف؛ نهلوا منها دون نقد أو تمحيص أو إشارة إلى المصدر فى الغالب الأعم؛ حتى أصبح التمييز بين المنقول وغير المنقول إشكالية معقدة [9]. وفى معظم الأحيان كان النقل يتم دون وعى أو فهم. وفى أحيان اخرى اتبع النقلة أسلوب الانتقاء والاختيار [10] . وفى معظم الأحيان جرى إهمال الاشارة إلى المصدر واكتفى النقلة بتسبيق ما نقلوه بكلمة «قيل». أو «قالوا».

---

(١) انظر: إعلام الورى، ص٧٦.

(٢) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص١٢.

(٣) نفسه، ص١٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١، ص٨٠، بيروت ١٩٩٧.

(٥) إعلام الورى، ص١٣.

(٦) نفسه، ص٧٧.

(٧) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٧١.

(٨) انظر: إعلام الورى، جـ ٢٤، ٧٥، تحقيق: سعود العصفور رسالة ماجستير، آداب عين شمس، مخطوطة، القاهرة ١٩٨٧.

(٩) أحمد عبد الرازق: المصادر المملوكية المبكرة، ص٦٥، القاهرة ١٩٧٤.

(١٠) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص١٠٦.

لذلك فشت فى هذا العصر ظاهرة السطو والاقتباس؛ مما شكك فى قيمة كتابات مؤرخى العصر عن العصور السالفة.

وماذا عن المنهج؟

غلب منهج أهل الحديث فى «الإسناد» أحيانا؛ خصوصا بالنسبة لبعض المؤرخين المحدثين الذى شكلوا الغالبية العظمى من مؤرخى العصر، وإذ اتبعوا أسلوب «الجرح والتعليل» فى نقل الأخبار؛ فقد تعلق النقد بسلسلة الرواة؛ دون مضمون الرواية. فإذا ما شك المؤرخ فى إسنادها، أكتفى بذكر عبارة «هذا غير صحيح» [(١)] لكنه كان ينتقد مضمون روايات مخالفيه فى المذهب الفقهى أو السياسى، كما هو حال مؤرخى السنة مع الشيعة [(٢)]، وكان الانتقاد يجرى دون إيراد الأسباب أو دون الكشف عن أوجه القصور [(٣)].

أما عن تصنيف الأحداث والوقائع؛ فكان يستند إلى النظام الحولى أى ترتيبها على حساب الأيام والشهور والسنين؛ كما هو حال ابن شاهنشاه فى كتابه «مضمار الحقائق وسر الخلائق» [(٤)]، وابن شاكر الكتبى فى كتاب «عيون التواريخ». [(٥)] على ان بعض المؤرخين عمدوا إلى الجمع بين النظام الحولى ونظام التأريخ للموضوع؛ فعالجوه مستقلا مع مراعاه تسلسل الأحداث.

أما عن التحليل والتعليل والتأويل؛ فقد اتسمت عروض المؤرخين بالسرد والوصف والحكى والقص؛ دون تحليل يذكر. واختفى النقد للمرويات إلا فى حالات نادرة؛ كما هو حال ابن كثير الذى رفض نقل بعض الروايات لكونها إسرائيليات [(٦)] . كما جرى نقد روايات المخالفين فى المذهب؛ دون تقديم حجة أو برهان؛ كما هو حال البقاعى بالنسبة لكتابات ابن حجر [(٧)] ، وابن كثير بالنسبة لخصومه [(٨)] . وفيما عدا ذلك جرى التسليم بروايات السلف باعتبارهم «أهل الثقة» [(٩)]

---

(١) انظر: ابن شاكر الكتبى: المصدر السابق، ص١٦؛ كمثال.
(٢) نفسه، ص١٧.
(٣) انظر: ابن طولون الصالحى: المصدر السابق، ص١؛ كمثال.
(٤) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٤٩.
(٥) انظر: مقدمة المحقق، ص٧.
(٦) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص٨٣.
(٧) نفسه، ص١١٧.
(٨) انظر: البداية والنهاية، جـ٥، ص ٨٧؛ كمثال.
(٩) مرجوليوث: المرجع السابق، ص١٦٨.

أما عن التعليل الموضوعى؛ فقد غاب تمأما لسيادة المفهوم الدينى للتاريخ؛ فالله هو علة ما كان وما سيكون؛ اللهم إلا فى الحالات التى حاول بعض المؤرخين الرسميين تبرير سياسات الحكام؛ فانبروا يسوقون العلل والأسباب الواهية البعيدة عن الحقيقة [١]. واعتبروا مظالم الحكام محض «شائعات» تصدوا لدحضها [٢].

لقد انحاز جل مؤرخى العصر للسلطة؛ خصوصا المؤرخين الرسميين وجاراهم المؤرخون المحدثون والفقهاء والقضاة خوفا أو طمعا. وحسبنا أن الكثير من المصنفات التاريخية أنجزت بطلب من الحكام [٣] . كما أهدى بعضهم تصانيفه إليهم طمعا فى الإنعامات والنفوذ [٤].

على أنه من الإنصاف الإشارة والإشادة بنفر من المؤرخين القليلين الذين انتقدوا سياسات حكامهم؛ كما هو حال ان أبى الدم الذى لم يتورع عن التنديد بسياسات الأيوبيين [٥].

كما انحاز بعضهم إلى الرعية؛ فاهتموا بأحوالهم وتعاطفوا مع انتفاضاتهم .

لذلك تصدى لهم مؤرخو السلطة وحاولوا الدفاع عن الحكام؛ فاتهموا العامة بأنهم «أهل فتن» ونعتوهم «بالغوغائية»؛ بل وصموهم بأنهم «غوغاء حرامية» [٦].

لذلك تفتقر معظم تواريخ العصر إلى الموضوعية لحرص المؤرخين على «مداراة الحكام» [٧] ؛ فكانت كتاباتهم «غير بريئة» خصوصا إذا ما تعلق الامر بالتأريخ للخصوم المذهبيين والدينيين [٨]

---

(١) انظر: ابن طولون: المصدر السابق، ص٢١٤؛ كمثال.
(٢) نفسه، ص١١٣.
(٣) كما هو حال ابن شداد فى «التاريخ المظفرى» على سبيل المثال.
انظر: مقدمة المحقق، ص١٤.
(٤) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ١، ص٣٩ .
(٥) ابن ابى الدم: المصدر السابق، ص ٣٢٦؛ كمثال.
(٦) انظر: ابن طولون الصالحى : المصدر السابق، ص ٨١، ١٧٧, ١٧٨.
(٧) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ١، ص٣٩.
(٨) Aziz Atiga: The crysade, historiogrephy and Biliography, P. 70, london, 1962

كما خببت رؤى مؤرخى العصر بالغيبية والقدرية؛ اذ التاريخ عندهم من صنع الله، وليس نتاج فعاليات بشرية. وحسبنا أن مؤلفات صنفت فى هذا العصر لتأكيد تلك الرؤية، إذ كتب العليمى (ت ٩٢٨ هـ) فى هذا الصدد كتاب «نهاية العبر فى نفوذ القضاء والقدر»، لذلك كان مؤرخو العصر مبررين ما يحدث ويجرى [١] ، ويسلمون تسليما غيبيا بأحكام القدر. [٢] ولا غرو؛ إذ علق أحد مشاهيرهم على إحدى النوازل بقوله : «ذلك تقدير العزيز العليم» [٣].

لذلك حفلت تواريخ العصر بالساطير والكرامات والخوارق والمعجزات والخرافات [٤].

وإلى جانب الرؤية الدينية الغيبية غلبت الرؤية الماضوية التى تبالغ فى تقدير - الماضى وتبجيل السلف - الذى كان صالحا فى كل الأحوال إلى حد التقديس. مصداق ذلك ما كتبه ابن رجب عن «بيان فضل علم السلف على علم الخلف»، ووفرة الكتابة عن الصحابة والتابعين والرعيل الأول من فقهاء المذاهب الفقهية، بل إن دعوة ابن تيمية الإصلاحية لم تكن فى جوهرها إلا حركة «إحياء» [٥].

أما عن الأسلوب؛ فقد غلبت عليه الصنعة اللفظية والسجع المتكلف والتذويق بالبديع من كنايات واستعارات وتشبيهات وجناس... إلخ وهى طريقة ابتدعها القاضى الفاضل فى الأدب؛ أخذ بها وزاد عليها العماد الأصفهانى المؤرخ؛ فأصبح أنموذجا يحتذيه الكثيرون من مؤرخى العصر[٦] . وإن لم نعدم وجود مؤرخين كتبوا نثرا مرسلا غاية فى الطلاوة؛ نتيجة التعمق فى علوم اللغة والادب، وفى كل الاحيان مال المؤرخون إلى الاستشهاد بالشعر فى شىء من الإسراف؛ باعتباره «روضة الأزهار» كما هو حال ابن شاكر الكتبى [٧] ، وابن كثير على سبيل المثال[٨].

(١) أحمد عبد الرازق: المرجع السابق، ص٩٣.
(٢) Aziz Atiga: op . cit . P. 72, london, 1962
(٣) ابن كثير: المصدر السابق، جـ٥، ص٨٥.
(٤) انظر: ابن أبى الدم: المصدر السابق، ص ١١٧؛ كمثال
ابن كثير: المصدر السابق، ص٨٥؛ كمثال.
(٥) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص١٥٩.
(٦) روزنتال: المرجع السابق، ص٢٦٤.
(٧) راجع: مقدمة كتابة عيون التواريخ، جـ٤، ص٧.
(٨) راجع: البداية والنهاية، جـ٥، ص٤٩، ١٢٥، على سبيل المثال.

كما فشت العجمة فى كتابات بعض مؤرخى البلاط ذوى الأصول المملوكية، فشاعت فى عروضهم الألفاظ العامية كما هو حال ابن طولون الصالحى [١].

لكل ما سبق؛ نرى أن الفكر التاريخى فى الشام تدهور كشأنه فى سائر أقاليم العالم الإسلامى؛ نتيجة معطيات تاريخية وثقافية؛ عرضنا لها من قبل. وهنا لا محل لأحكام بعض الدراسين الذين قالوا بازدهاره [٢].

ولا مجال للخوض فى مسألة يغنى العرض السابق عن اللجاج فيها. وحسبنا أن حكمنا هذا سبق إليه بعض الدراسين الثقاة [٣].

ولعل مما يؤكد ذلك؛ تحامل الكثيرين من فقهاء العصر على علم التاريخ والمشتغلين به، وتصدى بعض المؤرخين للدفاع عنه فأصدر بعضهم فتاوى تبرر الحاجة إليه من أجل مقاصد دنيوية وأخروية [٤].

برغم ذلك تدنت مكانة العلم لانحطاط مستوى الكتابة فيه؛ تلك التى وصفها أحد ثقاة الدراسين بأنها «جاءت مخيبة للآمال» [٥]؛ إذ لم يأت بعد الفرج بن الجوزى مؤرخا واحدا يعتد به [٦].

وللمزيد من البراهين عن تدهور العلم؛ سنعرض بالدرس لأحد مؤرخى العصر؛ كأنموذج يجسد خصائص الكتابة التاريخية آنذاك.

أنموذجنا المختار هو المؤرخ ابن أبى طى؛ الذى اختصصناه بالكتابة لعدة أسباب هى :

أولا : أنه ألف ما يزيد على خمسين مؤلفا فى ضروب معرفية شتى، كما صنف خمسة عشر مؤلفا فى التاريخ. وبرغم ضياع مؤلفاته إلا أن جلها منقول عنه فى مؤلفات بعض معاصريه ولاحقيه لإجادته وتميزه.

---

(١) راجع: إعلام الورى، ص٨٨؛ كمثال.

(٢) انظر: شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص٢١.

(٣) انظر: روزنتال: المرجع السابق، ص٢١٨

(٤) كما هو الحال بالنسبة لبدر الدين العينى انظر: شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص١١٣.

(٥) مرجوليوث: المرجع السابق، ص١٦٧.

(٦) روزنتال: المرجع السابق، ص١٩٨.

ثانيا : انه مؤرخ شيعى واسع الثقافة عميق النظرة؛ أثرت ثقافته فيما ألف وصنف، ومع ذلك كان مضطهدا؛ بما ينم عن ذيوع روح التعصب التى كانت من أهم اسباب تدهور الفكر التاريخى.

ثالثا: انه كان نجارا مجيدا - كما كان مؤرخا متميزا - أهلته إجادته لرئاسة نقابة أصناف الحرف؛ الأمر الذى يعزى بدراسته وبحثه.

رابعا : أن باحثة قديرة قامت بجهد محمود فى تجميع ما استطاعت من نصوصه المفقودة فى كتابات معاصريه ولاحقيه؛ بما يقدم دليلا على شيوع ظاهرة النقل دونما إبداع أو ابتكار.

نشأ ابن أبى طى (ت ٦٣٠ هـ) فى مدينة حلب التى عاش فيها أعداد غفيرة من الشيعة الإثنى عشرية. وكانت اسرته مشهورة بمعارفها عن عقائد المذهب وتاريخه؛ وكان والده الذى عمل نجارا أيضا نقيب الشيعة الإثنى عشرية (١) ؛ وهو أمر بالغ الدلالة على احترام الشيعة للعمل اليدوى وتبجيل أهل المهن والحرف.

تعرض الشيعة لاضطهاد نور الدين محمود، وحلت المحنة بأسرة ابن أبى طى؛ فسجن والده ثم أفرج عنه، ثم قبض عليه مرة أخرى وطرد خارج البلاد. ويستفاد من ذلك تزعمه الحرفيين فى انتفاضاتهم ضد أمير حلب الذى اشتط فى فرض الجبايات والمغارم. وبعد وفاة نور الدين محمود عاد إلى حلب واستقر بها (٢).

حفظ ابن أبى طى القرآن على والده، كما درس المذهب الإثنى عشرى على فقهاء الشيعة فى حلب؛ ومنهم رشيد الدين المازندرانى، وتعمق فى دراسة علوم عصره وهو لم يزل يافعا (٣) . ثم أحاط بالكثير من العلوم الطبيعية التى حرمت فى عصره واحتفظ بها فقهاء الشيعة فى الصدور. احترف النجارة ثم اشتغل بالتدريس والوراقة (٤).

(١) cahemè Une Cramique Chiite Au Temps des Croisade, P. 261, Paris, 1935.

(٢) ابو شامة. الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ١، ص ٦٠٨، ٦٠٩ القاهرة ١٩٨٨.

(٣) ابن حجر: لسان الميزان، جـ٦ ، ص٣٤٤، القاهرة ١٩٩٦.

(٤) نفسه، ص٣٤٤.

كتب فى مجالات معرفية متنوعة؛ فضلا عن عقائد مذهبه؛ بالإضافة إلى تصانيف متنوعة فى اللغة والأدب.

وفى حقل التاريخ؛ ألف خمسة عشر كتابا؛ منها ما يتعلق بالشام مثل «مسلك النظام فى تاريخ الشام»؛ فى أربعة مجلدات. كما كتب عن مدينة حلب «معادن الذهب فى تاريخ حلب» وذيل له.

وبرغم تشيعه؛ كتب سيرة صلاح الدين فى كتابه «عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر»، كما صنف «سيرة ملوك حلب»؛ وألف «تاريخ مصر» و «مختار تاريخ المغرب» و «كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين». وله تاريخ عام عنوانه «حوادث الزمان»، وآخر بعنوان «معادن الذهب فى تاريخ الملوك والخلفاء وذوى الرتب». وعن عقائد الشيعة وتاريخهم وأعلامهم؛ صنف عدة مؤلفات هى : «مناقب الأئمة الإثنى عشر» و «فضائل الائمة» و «الحاوى فى رجال الإمامية» و «أخبار شعراء الشيعة».

كما صنف فى «طبقات الشافعية»، فضلا عن مؤلفات أخرى فى موضوعات متنوعة كالتفسير والفقه والأصول وأدب السياسة وأدب الخواص والرقيق والمتصوفة والبلدان. ومن خلال نصوص من مؤلفات ابن أبى طى فى الكتابات التاريخية المعاصرة واللاحقة استطاعت باحثة مجتهدة (١) الوقوف عليها؛ يمكن تقديم تصور أولى عن فكره التاريخى موضوعا ومنهجا ورؤية.

بخصوص الموضوعات التى طرقها؛ تشى عناوين مؤلفاته بأنه كتب فى جل موضوعات التاريخ؛ إذ ألف تواريخ عامة وإقليمية، كما صنف عن الأسرات الحاكمة والمدن والسير، فضلا عن أدب السياسة والجغرافيا، والكثير من جوانب التاريخ الاجتماعى والثقافى. هذا بالإضافة إلى كتابات متنوعة تتعلق بالتشيع عقيدة وتاريخا وأعلاما.

وينم ذلك عن ثقافة عريضة وموسوعية تميز بها مؤرخو الشيعة على وجه الخصوص.

أما عن مرجعيته؛ فهى متعددة ومتنوعة بالمثل؛ منها شهادة العيان والسماع والمساءلة، فضلا عن النقل من تو اريخ السابقين؛ السنة والشيعة سواء بسواء، كما اعتمد على الوثائق كالمراسلات (٢) بين الحكام والولاة والعمال.

---

(١) انظر: شيرين شلبى أحمد: دراسة تحليلية لكتابات ابن ابى طى الحلبى فى المصادر الإسلامية، ص٣٢ وما بعدها، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس القاهرة ٢٠٠٣.
(٢) نفسه، ص١١٤.

وبخصوص منهجه؛ تأثر بمنهج أهل الحديث فى الإسناد بصورة مطولة مثال ذلك قوله: «وحدثنى أبى رحمه الله قال : حدثنى غير واحد.. الخ»[١]. كما اعتمد كثيرا على روايات شهود العيان [٢].

وينهج ابن أبى طى فى عروضه إلى القص والحكى الحوارى [٣]. كما يميل إلى ذكر التفصيلات والجزئيات [٤] . كما يعتمد النقد أحيانا ويفصح عن موقفه من الأحداث الجسام مسبوقة بعبارة «والرأى أن..» [٥]. ويعاب عليه الأخذ بالأساطير ودلالات الرؤى المنامية والأحلام [٦] فى التفسير؛ وان قدم أحيانا تعليلات اقتصادية للكثير من الاحداث السياسية [٧] . كما انتقد سياسات الحكام وعاب على بعضهم سوء الخلق[٨] . وان مال إلى الملق والرياء فى امتداح البعض الآخر؛ فوصف شمائلهم وأفضالهم دون ان يكونوا خليقين بها [٩] ؛ مستشهدا فى ذلك بشعر الشعراء [١٠] . كما كان يعتقد بتأثير الصدف والخوارق فى تسيير الاحداث؛ فيمعن فى سردها ويعقب عليها بأقوال ونعوت على غرار «هذا من عجيب الاتفاق» [١١].

هذا إلى جانب اعتقاده بالعناية الإلهية كصانعة ومحركة لأحداث التاريخ ووقائعه ففسر بعض الأحداث تفسيرا دينيا قحا؛ كقوله فى إحدى معارك المسلمين المظفرة مع الصليبيين «فملكنا الله تلك البلاد ومكّن لنا فى الأرض» [١٢]. واعتبر الصراع الإسلامى الصليبى صراعا بين حزب الله وحزب الشيطان [١٣].

(١) نفسه، ص ١٤٦.

(٢) نفسه، ص١٤٨.

(٣) نفسه، ص ١٥١؛ كمثال

(٤) نفسه، ص١٥٧.

(٥) نفسه، ص١٦٢.

(٦) نفسه، ص١٦٧، ١٧٢؛ كمثال.

(٧) نفسه، ص١٧١؛ كمثال.

(٨) نفسه، ص ١٧٧؛ كمثال.

(٩) نفسه، ص١٨٣؛ كمثال.

(١٠) نفسه، ص ١٨٩ كمثال

(١١) نفسه، ص ١٩٩؛ كمثال.

(١٢) نفسه، ص٢٠١؛ كمثال.

(١٣) نفسه، ص٢٠٠.

وبديهى أن يتعاطف مع الشيعة؛ فأشاد بموقفهم فى مواجهة سلاطين الأيوبيين. يقول بصدد سقوط الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين « .. وبكى العوام على انقراض دولة المصريين وما صاروا إليه من الذل والفقر»[١] . لكنه كثيرا ما التزم «التقية»؛ فأظهر خلاف ما أبطن؛ حين نعت الثوار الإسماعيلية ضد صلاح الدين بأنهم «غلاة غداة.. دعاة إلى النار.. والله سبحانه مستخار» [٢].

ويؤخذ عليه عدم الدقة أحيانا فى سرد الوقائع والأحداث، كذا الأخذ بروايات لا يقبلها العقل؛ وهو أمر نعاه عليه ابن حجر [٣].

ويلاحظ فى تراجمه الميل إلى الاسترسال فى ذكر مآثر أعلام الشيعة والإشادة بعلمهم وفضلهم [٤] وتفضيل مروياتهم [٥] . وهنا نشير إلى تأثير البعد الأخلاقى فى تثمينه للرجال والاعمال؛ مستخدما عبارات مثل «وهذا أثر منكر جدا» [٦].

أما عن أسلوبه؛ فهو مرسل بليغ يعبر عن المعانى فى وضوح وسلاسة؛ وإن مال إلى السجع احيانا؛ لكن دون تكلف[٧] . كما يستشهد بالقرآن الكريم والحديث النبوى وأقوال الائمة الإثنى عشرية؛ خصوصا جعفر الصادق [٨].

خلاصة القول؛ إن الفكر التاريخى فى بلاد الشام تدهور فى عصر الإقطاعية العسكرية؛ برغم كثرة وضخامة ما كتب؛ وهو أمر يؤكده وحدة الثقافة والفكر فى العالم الإسلامى برمته؛ كنتيجة منطقية لوحدة الصيرورة والتطور.

---

(١) نفسه، ص٢١٧.

(٢) نفسه، ص٢٣٠.

(٣) نفسه، ص ٤٧٩؛ كمثال.

(٤) نفسه، ص ٤٨٦ وما بعدها.

(٥) نفسه، ص ٤٩٥؛ كمثال.

(٦) نفسه، ص ٤٩٦؛ كمثال.

(٧) نفسه، ص ٣٣٨؛ كمثال.

(٨) نفسه، ص ١٧٤؛ كمثال.

ثالثا : فى مصر

كانت الكتابة التاريخية فى مصر فى ظل «الإقطاعية العسكرية» انعكاسا لتاريخ هذا العصر؛ سياسيا، وعسكريا، واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا.

فعلى الصعيد السياسى؛ شهدت مصر حكم ثلاث أسرات حاكمة؛ الفاطمية ثم الأيوبية وأخيرا حكم المماليك البحرية ثم الجراكسة. وكانت بلاد الشام واليمن تتبعان حكم هذه الأسرات الثلاث؛ وكلها ذات أصول أجنبية عربية وكردية، وخليط من عناصر شتى معظمها من الأتراك، وبعد سقوط الخلافة الفاطمية ثم العباسية جرى إحياء الأخيرة فى مصر المملوكية؛ وإن كان نفوذها اسميا ليس إلا.

انعكس ذلك على موضوعات التاريخ آنذاك؛ إذ اهتم المؤرخون بالتأريخ لهذه الدول وكتابة سير حكامها، كما كرست مصنفات خاصة عن تاريخ مصر ومدنها الشهيرة؛ بل وحتى ريفها وأقاليمها الإدارية، وطبقات فقهائها ومحدثيها وأدبائها ومتصوفيها، ولم يحفل المؤرخون بكتابة تواريخ عالمية بقدر ما اهتموا بكتابة التاريخ الإسلامى العام.

وعلى الصعيد العسكرى؛ شهد العصر غزوات الصليبيين والمغول، وقامت مصدر بدور محورى فى مواجهتهم، وكللت جهودها بالظفر والانتصار.

وانعكس ذلك على كتابات مؤرخيها فدونوا تفصيلات هذه الأحداث الجسام، كما أرخوا فى الجهاد والسلاح والعتاد وكل ما يتعلق بأدب السياسة والحرب.

وعلى المستوى الاقتصادى، ساد نظام الإقطاع العسكرى الاكتفائى المنكفىء الذى أسفر عن ضائقات ومجاعات وطواعين وأوبئة؛ عرض لها المؤرخون وأولوها اهتمـأما زائدا. كما كتبوا فى السكة وأمور الخراج والجباية وما شاكل.

وعلى الصعيد الاجتماعى؛ تعددت عناصر السكان؛ ما بين عرب ومصريين وأرمن ومغاربة وسودان وفدوا إلى مصر واستوطنوها فى العصر الفاطمى؛ زيد عليهم الاكراد والخوارزمية زمن الايوبيين؛ وعناصر اخرى متنوعة فى عصر المماليك الذين كانوا أخلاطا شتى من

العبيد فى الأصل وإن غلب عليهم العنصر التركى. أما عن البنا ء الطبقى فقد اختل توازنه وتخلخلت بنيته؛ فتعاظمت الطبقة العليا الأرستقراطية، وتدهورت الطبقة الوسطى، وازدادت طبقة العامة اتساعا؛ نتيجة القحط وشظف العيش.

اهتم مؤرخو العصر - لذلك - بالجانب الاجتماعى؛ فكتبوا عن المظاهر الاجتماعية لحياة الشرائح الموسرة؛ وصنفوا مؤلفات فى «الإمتاع والمؤانسة» إرضاء للأرستقراطية الحاكمة، كما تعاطف بعضهم مع العامة وكتبوا أدبا سياسيا فى نصح الحكام ورد المظالم. وكتبوا فى أنساب العرب والأصول الإثنية للحكام المماليك.

وعلى الصعيد الثقافى؛ شهد العصر انحطاط العلم والفكر والثقافة والأدب، وانتشر التصوف على حساب علم الكلام وآراء الفرق، وتعاظم شأن المذاهب الفقهية وشاع التعصب فيما بينها.

سجل المؤرخون هذه الظواهر الثقافية؛ خصوصا فى كتب التراجم التى ازدهرت الكتابة فيها، وتعددت المصنفات عن طبقات الشافعية والحنابلة على وجه الخصوص. وأثر تدهور الثقافة عموما بالسلب على مناهج المؤرخين ورؤاهم ومقاصدهم من كتابة التاريخ؛ سواء فى الشكل أو المضمون. وإذ تعاظم النتاج التاريخى عددا وكما فقد تدهور كيفا؛ باستثناء قلة «محاصرة» من مؤرخى الشيعة والنصارى ممن احتضنوا بقايا العلم والثقافة التى ازدهرت فى العصر السابق.

أما الكثرة؛ فبرغم اطلاع بعضهم على الوثائق وشهادة العيان؛ أصبح النقل والاقتباس، بله السطو أحيانا على أعمال سابقيهم عادتهم وديدنهم. وذوت الموضوعية نظرا لكون الكثيرين من المؤرخين «مؤرخى سلطة»، أو تابعين لها من كتاب الدواوين واصحاب الوظائف العليا، وكون البعض الآخر من المحدثين المتعصبين وفقهاء المذاهب الفقهية المتصارعة. ونظرا لضحالة الثقافة لم يبدع مؤرخو العصر جديدا فى المنهج؛ إذ جرى اعتماد المنهج الحولى فى تصنيف المعلومات وتبويبها. كما ساد الإسناد واهتم به المؤرخون على حساب المضمون. وفسد أسلوب الكتابة؛ فغص بالصنعة والعجمة والفاظ العامية، وغلبت الرؤية الغيبية والخرافية على منظور المؤرخين فى التعليل والتأويل والتفسير. وتقلصت مقاصد المؤرخين؛ فاقتصرت على الارتزاق فى الغالب الأعم، وان تشدقوا بالإصلاح والترشيد والتعليم فى مقدمات مصنفاتهم. وتدهورت مكانة علم التاريخ

حتى أصبح مطعنا جرى التشكيك فى جدواه، وتصدى بعض المؤرخين لدحض هذه الدعاوى، وضاعت تبريراتهم أدراج الرياح.

تلك رؤية عامة؛ سنحاول بسطها وتوثيقها فيما يلى.

بخصوص مؤرخى العصر وثقافتهم؛ نلاحظ كثرة أعداد المؤرخين فى مصر؛ نظرا لهجرة مؤرخين من أقاليم مختلفة واستيطانهم البلاد؛ خصوصا بعد الغزو المغولى لغربى آسيا، وتعاظم حركة الاسترداد النصرانى فى الاندلس؛ لذلك كان الكثيرون من مؤرخى مصر فى هذا العصر من العراق والشام وبلاد المغرب والأندلس.

وإذ نحاول تصنيف هؤلاء المؤرخين حسب المهنة؛ نجد أن معظمهم من كتاب الدواوين فى العصر الفاطمى، ومن رجالات الدولة وأصحاب المناصب العامة الهامة فى العصرين الأيوبى والمملوكى؛ نظرا لتعاظم مكانتهم فى ظل حكومات أجنبية عسكرية وافدة تفرغت للسياسة والحرب، كماوجد مؤرخون من أفراد الطبقة المملوكية نفسها بعد تعربهم واخذهم بثقافة العصر من أمثال بيبرس المنصورى (ت ٧٢٥ هـ) الذى كان دوادارا ونائبا على الكرك ثم تولى ديوان الانشاء. وكان ابن ايبك الدوادارى (ت بعد سنة ٧٣٦ هـ) من رجالات السلطنة المملوكية الذين اشتغلوا بالتاريخ. أما ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ) فكان من طبقة « أولا د الناس» اي الذين ينتمون إلى الاسرة المملوكية [١].

كما كان ابن إياس (ت ٩٣٠ هـ) سليل المماليك الجراكسة كذلك ابن تعزى بردى (ت هـ) [٢] وخليل بن شاهين الظاهرى (ت ٨٧٣ هـ) [٣].

أما من اشتغل بالكتابة فى الدواوين أو من تولوا مناصب عسكرية وإدارية؛ فنذكر منهم المقريزى (ت ٨٤٥ هـ) الذى عمل بديوان الإنشاء [٤]. وابن زنبل

---

(١) سلام شافعى سلام: أهم مصادر تاريخ الأقاليم والمدن المصرية فى عصر سلاطين المماليك ص ٣٣، القاهرة ٢٠٠٠.

(٢) محمد مصطفى زيادة: المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى - التاسع الهجرى، ص٣٥، القاهرة ١٩٤٩.

(٣) سلام شافعى سلام: المرجع السابق، ص٦٠.

(٤) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ ٣، ص ١٤٠.

الرمال (ت ٨٧٤ هـ) الذي خدم بديوان الجيش [١] وخدم النابلسى (ت ٦٦٠هـ) فى دولة الملك الكامل الايوبى [٢] . وتولى ابن الجيعان (ت ٨٨٥ هـ) ديوان الجيش فى عهد قايتباى [٣] . وجمع القلقشندى (ت ٨٢١ هـ) بين الكتابة فى ديوان الانشاء وبين تولى عدد من الوظائف السياسية والدبلوماسية [٤] ، كما تولى ابن عبد الظاهر (ت ٦٢٠ هـ) الكتابة فى ديوان الانشاء فى عصر المماليك البحرية. وسبقه القاضى الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) فى وظيفة الكتابة فى عهد صلاح الدين الايوبى [٥].

ومن المؤرخين القضاة؛ نشير إلى أسماء الكنانى (ت ٧٦ ٨ هـ)، وابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) قاضى قضاة الشافعية [٦].

أما عن المؤرخين الفقهاء؛ فمنهم ابن الصيرفى (ت ٨١٩ هـ) الذى تولى رئاسة الأحناف [٧] ومن المحدثين نذكر السخاوى (ت ٩٠٢ هـ) [٦].

ومن الأطباء من اشتغل بالتاريخ؛ كما هو حال ابن اللباد (ت ٦٢٩ هـ) الذى أحاط بمعارف طبية وفلسفية [٨].

وبديهى أن يكون من الوراقين من اشتغل بالتاريخ أيضا؛ منهم ابن الأعرج (ت ٩٢٥هـ) الذى جمع بين الوراقة وتجارة الكتب [٩].

واهتم نصارى مصر بكتابة التاريخ عموما والتاريخ الكنسى على وجه الخصوص، من أشهرهم ابن مماتى (ت ٦٠٦ هـ) الذى حذق الإدارة المالية[١٠]، والمكنى أبو العميد (ت ٦٠٢ هـ) الذى كان من أصل سريانى[١١].

والمفضل بن أبى الفضائل (ت ٧٤١ هـ) (٧)، والأنبا ميخائيل الدمراوى أسقف تنيس الذى كتب عن تاريخ الكنائس فى الشرق [١٢].

(١) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص٧٥.
(٢) سلام شافعى سلام: المرجع السابق، ص٣٠.
(٣) نفسه، ص٣٧.
(٤) نفسه، ص٥٥.
(٥) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص١٩٢.
(٦) نفسه، ص١٧٣.
(٧) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص١٩.
(٨) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص١٧٤.
(١٠) نفسه، ص١٧٧.
(١١) نفسه: ص١٩٦.
(١٢) أنظر: ابن الأعرج: تحرير السلوك فى تدبير الملوك ص ٩ من المقدمة، الإسكندرية ، د. ت

أما عن ثقافة هؤلاء المؤرخين؛ فكانت ثقافة دينية نهلت من علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والتصوف، إلى جانب علوم اللغة والأدب عند بعضهم [١] ، كما أحاط بعضهم بعلم الفرائض، بما يشى بمحدودية الثقافة وطابعها الدينى الغلاب [٢]. كما اشتغل بعضهم بالنجامة والرمل والزايرجة، الأمر الذى أثر سلبا فى رؤاهم وتفسيرهم التاريخ، ومع ذلك احتفظ مؤرخو الشيعة والنصارى بشىء من علوم الأوائل، وأجاد نفر منهم بعض اللغات الأجنبية كالفارسية والتركية واليونانية والقبطية [٣].

وبديهى أن يظهر تأثير هذه الثقافة فيما صنفه مؤرخو العصر من تواريخ، كذا تأثير مكانة مصر ودورها الجهادى فى هذا الصدد؛ كما أشرنا سلفا وما سنوضحه بعد مفصلا.

فماذا عن أجناس الكتابة التاريخية واصنافها؟

نلاحظ أن مؤرخى العصر كتبوا فى معظم الموضوعات التى طرقها أسلافهم؛ لكن بعضها خباشأنه، وتعاظم البعض الآخر، واستحدثت موضوعات جديدة مستمدة من مجريات تاريخ مصر ومعطياته.

من الموضوعات التى تضاءل الاهتمام بها الكتابة فى «التواريخ العالمية». إذ لم نقف إلا على مؤلف يتيم هو «التاريخ الجامع» للمكنى أبى العميد (ت ٦٠٢ هـ)؛ وهو تاريخ يبدأ من بدء الخليقة حتى عصر المؤرخ [٤].

وإن كان من الإنصاف الإشارة إلى أن التواريخ القديمة عرض لها بعض المؤرخين فى بدايات مؤلفاتهم؛ نقلا عن السابقين.

كما تضاءلت الكتابة فى «الأنساب» ولم يحفل بها إلا مؤرخو الشيعة، كما هو حال الهاشمى (ت ٦٢١ هـ) الذى اهتم بأنساب آل البيت فى عصر سادته حكومات ذات أصول غير عربية، ولم يحفل المؤرخون بأنساب هذه الحكومات إلا لماما وفى ثنايا مصنفاتهم؛ كما هو الشأن بالنسبة للعينى الذى كتب عن أنساب الاتراك والجراكسة فى مؤلفه «سيرة المؤيد» [٥].

---

(١) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص١٩٩.
(٢) روزنتال: المرجع السابق، ص٩٠.
(٣) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص٢٢.
(٤) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص١٠٩.
(٥) روزنتال: المرجع السابق، ص١٤٦.

أما عن أجناس الكتابة التاريخية التقليدية فمنها ما يتعلق بتاريخ الإسلام منذ البعثة النبوية وحتى عصر المؤرخ. وفى هذا الصدد كتب المنصورى «زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة»، وألف ابن أيبك الدوادارى كتاب «كنز الدرر وجماع الغرر»، وصنف ابن دقماق «نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام»[١].

واهتم مؤرخو العصر بتاريخ الخلفاء؛ سواء ما تعلق بالفواطم، أو بالعباسيين، فقد أرخ المقريزى للخلافة الفاطمية فى كتابه «إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا»، وكتب ابن دحية (ت ٦٣٣ هـ) وهو أندلسى هاجر إلى مصر وأقام بها «النبراس فى تاريخ بنى العباس»[٢].

وثمة مؤلفات تؤرخ للخلافة فى عصورها المتصلة؛ من أهمها «تاريخ الخلافة» للقلقشندى، و «تاريخ الخلفاء» للسيوطى، و «اللطائف فى أخبار الخلائف» للمنصورى، و «التاريخ الواضح المسبوك فى تراجم الخلفاء والملوك» لابن دقماق[٣].

واحتفل مؤرخو العصر بتاريخ مصر الإسلامية؛ فكتب ابن وصيف شاه (ت ٥٩٦ هـ)، «جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور فى أخبار الديار المصرية»، وصنف ابن اللباد (ت ٦٢٩ هـ) كتاب «أخبار مصر الكبرى» وألف ابن إياس «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»[٤]. وكتب السيوطى «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة»[٥].

كما أرخ مؤرخو العصر للأسرات الحاكمة التى تداولت السلطة فى مصر، ومن أهم ما صنف فى هذا الصدد كتاب «تاريخ الدولة التركية» - أى المماليك - لابن دقماق، و«التحفة المملوكية فى الدولة التركية» للمنصورى[٦].

ونظرا لمكانة مصر فى العالم الإسلام؛ اهتم مؤرخوها بأخبار الدول.

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص١١٥، ١٢٣، ١٣١.

(٢) نفسه، جـ٤، ص١٤٧.

(٣) نفسه، جـ٣، ص٦٨٢، ١١٧، ١٢٩، جـ٤، ص١٣٤.

(٤) نفسه، جـ٣، ص١٩٤، ١٩٥، ١٩٦.

(٥) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص١٨.

(٦) شاكر مصطفى : المرجع السابق، جـ٣، ص١١٦، ١٣١.

الإسلامية فى المشرق والمغرب. فصنف ابن ظافر الأزدى (ت ٦١٣ هـ) «أخبار الدولة السلجوقية»، كما ألف عن الكثير من الدول الأخرى التى انصرمت فى كتابه «أخبار الدول المنقطعة»، وكتب ابن الفرات (ت ٨٠٧ هـ) «تاريخ الدول والملوك» (١) كما ألف المقريزى «تاريخ الحبشة» وحضرموت»، وكتب الأنبا ميخائيل الدمراوى «تاريخ الحبشة» (٢)، نظرا لتبعية كنيسة الحبشة لكنيسة الإسكندرية. كما كتب ابن سعيد المغربى (ت ٦٨٥ هـ) المقيم فى مصر كتاب «المغرب فى حلى المغرب» (٣).

إهتم مؤرخو مصر بالتأريخ للأقاليم المصرية بمدنها وريفها، وقدموا فى هذا المجال معلومات ضافية عن العمران والأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإدارية، فضلا عن معلومات جغرافية جد هامة(٤)؛ نظرا لطابعها الدنيوى القح؛ فانطوت على قدر كبير من الموضوعية، وإن شابها بعض الإسراف فى ذكر فضائل مصر وشمائل سكانها.

وعن مدن مصر كتب السلفى عن مدينة القاهرة فى مؤلفه «الفضائل الباهرة فى محاسن القاهرة» (٥) . وحظيت «الخطط» باهتمام خاص إذ صنف ابن ايبك الدواداري «خطط القاهرة»، كما كتب عنها المقريزى فى كتابه الهام «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» (٦) . وفى نفس الاتجاه مضى ابن أبى السرور البكرى (ت ت ١٠٦٠ هـ) حين ألف كتاب «الخطط » (٧) ، وابن عبد الظاهر فى كتابه «خطط القاهرة»، وابن أيبك فى كتاب يحمل نفس العنوان (٨) . وحظيت أقاليم الصعيد باهتمام المؤرخين - على خلاف ما يرى البعض بأن الكتابة عن ريف مصر كانت مهملة - (٩) فكتب الأدفوى (ت ٧٤٨ هـ) «الطالع السعيد الجامع اسماء

---

(١) نفسه، جـ٢، ص١٩٥، جـ٣، ص١١٦، ١٢٨، ١٣١، ١٤٦.
(٢) سلام شافعى سلام: المؤرخون النصارى، ص١٠٣.
(٣) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ٨٤.
(٤) روزنتال: المرجع السابق، ص٢١٣.
(٥) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص١٩٢.
(٦) سلام شافعى سلام: اهم مصادر، ص٣٥.
(٧) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص١٩٩.
(٨) نفسه، جـ٢، ص١١٢، جـ٣، ص ١٩٩، ٢٢٣.
(٩) انظر: نفسه جـ١، ص٢٤.

نجباء الصعيد». واذ يشى العنوان بأن موضوع الكتاب خاص بالعلماء والفقهاء فإن تصفحه يثبت تنوع معلوماته ما بين جغرافية وإدارية واجتماعية، فضلا عن أخرى انثروبولوجية وإثنية وثالثة خاصة باللهجات المحلية واحوال الشيعة الذين استوطنوا صعيد مصر، بالاضافة إلى حديث ضاف عن المدارس والمساجد والمرافق والعلماء والنجباء. [1] كما كتب ابن دقماق «الانتصار لواسطة عقد الأمصار»؛ الذى يورد فيه معلومات هامة عن الجانب الإدارى على وجه الخصوص. فضلا عن أخرى طبوغرافية واقتصادية واجتماعية وعمرانية [2]. وصنف ابن الجمعان (. ت ٥ ٨٨ هـ) كتاب «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية»، الذى يهتم بمساحات الأراضى الزراعية وإحصاء خراجها [3].

ويمكن الوقوف على معلومات مماثلة فى الكثير من المؤلفات الخاصة بتاريخ مصر العام؛ كما هو الحال فى كتاب «مسالك الأبصار» للعمرى (٣) و«صبح الأعشى» للقلقشندى [4].

أما عن الموضوعات التى كانت مهمشة من قبل، وجرى الاهتمام بها فى هذا العصر؛ فمن أهمها الكتابة فى مجال «النظم والإدارة». ويرجع هذا الاهتمام إلى الطابع الإمبراطورى للدول التى تعاقبت على حكم مصر؛ حيث مدت نفوذها إلى الشام واليمن؛ فاحتاجت إلى جهاز إدارى يتسم بالكفاءة؛ خصوصا إذا ما علمنا أن السلاطين انشغلوا بمهام الحرب نظرا لتفاقم الأخطار الخارجية؛ كالخطر السلجوقى والصليبى فى العصر الفاطمى المتأخر، واستمراره طوال حكم الايوبيين وردحا من حكم المماليك؛ هذا فضلا عن الخطر المغولى ومن بعده العثمانى الذى شغل السلطنة المملوكية.

لذلك كله تعاظم شأن الجهاز الإدارى والعسكرى؛ الأمر الذى انعكس

---

(١) انظر: الادفوى.. الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، ص٣٤، ٣٩، ٧٢، ٢١٩، ٤٧٤، على سبيل المثال، القاهرة ١٩٦٦.

(٢) انظر: ابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الامصار، جـ٥، ص٢٧ كمثال القاهرة ١٩٨٣.

(٣) سلام شافعى سلام: أهم مصادر، ص٣٤.

(٤) نفسه، ص٥٠.

انظر: صبح الاعشى فى صناعة الإنشا، جـ٣، ص٣٧٥ وما بعدها؛ كمثال، جـ٤، ص٢٤ وما بعدها، القاهرة د.ت.

على الكتابة التاريخية؛ خصوصا بالنسبة للمؤرخين المشتغلين بالدواوين. ومن أهم ما كتب فى هذا الميدان ما دونه ابن منجب الصيرفى (ت ٥٤٢ هـ) في كتابيه «الإشارة إلى من نال الوزارة» و «قانون ديوان الرسائل». كما صنف ابن المهذب (ت ٦٠٦ هـ) كتاب «قوانين الدواوين»، وكتب ابن مماتى كتابا بنفس العنوان، كما ألف ابن حجر العسقلانى «رفع الإصر عن ولاة مصر» [(١)] . وسبقهم ابن مأمون البطائحى (ت ٥١٩ هـ) حين كتب الكثير عن النظم الفاطمية [(٢)].

إهتم مؤرخو العصر أيضا بالتأليف فى «أدب السياسة»؛ بهدف ترشيد الحكام ونصحهم باتباع سياسات عادلة. ومن أهم ما كتب فى هذا المجال كتاب «تحرير السلوك فى تدبير الملوك» لابن الاعرج، وكتاب «العقد الفريد للملك السعيد» لابن طلحة (٦٥٢ هـ) اللذين استهدفا إصلاح حال السلطان والرعية [(٣)].

وفى المجال الاقتصادى؛ صنفت عدة مؤلفات تهتم بقوى الإنتاج- خصوصا الزراعة - والخراج وروك الارض، ومنسوب النيل، وأمور الرى، والعملة، والموازين، والمكاييل والمقاييس، وتأثير الكوارث الطبيعية على الاوضاع الاقتصادية. إذ كتب المخزومى (ت ٥٨٥ هـ) كتاب «المنهاج فى علم الخراج» فى العصر الفاطمى [(٤)] . كما كتب المقريزى عن النقود، والموازين والمكاييل والمقاييس [(٥)] . وكتب أيضا عن الكوارث الطبيعية والمجاعات والأوبئة [(٦)] وآثارها الاقتصادية والاجتماعية [(٧)].

كما حوت المؤلفات العامة عن تاريخ مصر معلومات جد هامة فى المجال الاقتصادى؛ كما هو حال السيوطى فى كتابه «حسن الحاضرة» حيث خصص فيه مباحث ضافية تحت عنوان: «ذكر الحوادث الغريبة الكائن بمصر فى ملة الإسلام من غلاء ووباء وزلازل وغير ذلك»، كما ذكر أخبارا عن ضبط النيل والرى والمحاصيل والغروس[(٨)]... الخ

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص١٧٦، ١٩١، ١٩٢، جـ٣، ص١٥٥.
(٢) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص١٥.
(٣) انظر: ابن الأعرج: تحرير السلوك فى تدبير الملوك، ص١٣، ٢٤، القاهرة د. ت.
(٤) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص١٥
(٥) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص١٤١.
(٦) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص١٤.
(٧) مرجوليوث: المرجع السابق، ص١٧٣.
(٨) انظر: السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جـ٢، ص٢٣٥، ٢٥٤، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢ ٣٥، ٣٧٣، بيروت ١٩٩٧.

كما اهتم مؤرخو العصر بالتاريخ الاجتماعى؛ فى سياق الكتابة عن التاريخ الاقتصادى؛ نظرا للارتباط الوثيق بين النوعين معا؛ كما هو الحال عند الإدفوى [١] الذى كتب عن عناصر السكان، كما كتبوا عن الأعراب فى مؤلفات مستقلة؛ مثل كتاب «نهاية الإرب فى أنساب العرب» للنويرى، و«البيان والإعراب فيمن نزل مصر من الاعراب» للمقريزى [٢].

وجرت الكتابة عن حياة الطبقة الارستقراطية الحافلة بالترف والرفاهية؛ إذ صنف البسطامى (ت ٨٥٨ هـ) كتاب «مصباح السلوك فى مسامرة الملوك»، وكتب المقريزى رسائل فى «الغناء والطرب» [٣]، وابن منجب الصيرفى عن الرقيق والجوارى. وحظى المتصوفة باهتمام خاص؛ فأفردت مؤلفات عن «المتصوفة والزهاد»، وكتب ابن مظفر الأسدى (ت ٦٦٠ هـ) «تاريخ الصوفية» والسيوطى «حلية الأولياء» [٤] وكتب ابن اياس عن «خلافة القطب» [٥].

ونظرا لماعج به العصر من حروب خارجية؛ ألف بيبرس المنصورى فى «الحروب والسلاح»، وابن منجب الصيرفى فى نفس الموضوع [٦]. تعاظمت الكتابة فى «السير» بصورة تستوجب الانتباه؛ ففضلا عن الاهتمام بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ أرخ المؤرخون لحياة السلاطين وكبار رجال الدولة فى مؤلفات أشبه ما تكون بالمذكرات اليومية. فقد أفرد ابن عبد الظاهر كتاب «الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر» و «تشريف الأيام بسيرة السلطان الملك المنصور» و «الألطاف الخفية فى السيرة الشريفية السلطانية الملكية الأشرفية» و «سيرة القاضى الفاضل» [٧].

وقد اتسمت هذه الكتابات بالمبالغة فى المديح والشطط فى ذكر فضائل ومآثر لا وجود لها؛ نسبت إلى السلاطين من باب التملق والرياء [٨].

وعن القضاة؛ كتب ابن ميسر «كتاب القضاة» [٩].

أما عن سير الفقهاء والأدباء والأعيان والمتصوفة، فقد عولجت فى كتب الطبقات والتراجم؛ التى حوت معلومات ضافية عن حياتهم الاجتماعية وإسهاماتهم الثقافية والأدبية. ونظرا لكون المذهب الشافعى مذهب الدولة الرسمى فى العصرين الأيوبى والمملوكى؛ كثرت الكتابة عن طبقات الشافعية

---

(١) الطالع السعيد، ص١٠.

(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ١٣٥، ١٣٦، ١٤٧.

(٣) نفسه ص ١٧٦.

(٤) نفسه، جـ٢، ص١٦٧، ١٧٩.

(٥) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق ص ٦٤.

(٦) شاكر مصطفى: المرجع السابق جـ٢، ص١٧٦، جـ٣، ص١١٨.

(٧) نفسه، جـ٣ ، ص١١٣.

(٨) روزنتا، المرجع السابق، ص٦١.

(٩) شاكر مصطفى: المرجع السابق جـ٢، ص١٧٨.

بوجه يفوق ما كتب عن أعلام المذاهب الفقهية الأخرى. ومن أهم ما صنف عنهم «طبقات الشافعية» لابن الملقنى (ت ٨٠٤ هـ) الذى كتب أيضا «طبقات القراء»، و «طبقات الأولياء»، و«طبقات المحدثين»، كما صنف ابن دقماق «طبقات الأحناف» و«طبقات الأعيان» وألف الكنانى طبقات الحنابلة» [١].

وعن الأعيان والعلماء؛ صنف المقريزى كتاب «المقفى»، وابن حجر العسقلانى كتاب «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة»، والسخاوى كتاب «الضوء اللامع فى علماء القرن التاسع». أما السيوطى فقد صنف تراجم عن الأعيان والنحويين واللغويين والحفاظ [٢]. كما ألف الإدفوى «الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد [٣].

وكتب النصارى فى التاريخ الكنسى؛ فألف المفضل بن أبى الفضائل عن «تاريخ البطاركة اليعاقبة» وذيل الأنبا ميخائيل الدمراوى «لسير الأباء البطاركة» [٤] لساويرس بن المقفع.

تلك هى أجناس الكتابات التاريخية التى تناولها المؤرخون فى مؤلفات ضخمة، كما شاعت ظاهرة «المختصرات» للكثير من هذه المؤلفات، وذاعت كتابة الموسوعات التى حوت معارف مختلفة معظمها منقول عن مؤرخى العصور السابقة؛ كما هو الحال بالنسبة للنويرى فى «نهاية الأرب» والقلقشندى فى «صبح الأعشى»؛

فماذا عن مناهج مؤرخى مصر فى هذا العصر؟

بخصوص المرجعية؛ إستمد المؤرخون معلوماتهم من مصادر شتى؛ هى الوثائق وشهادة العيان والسماع والمساءلة فضلا عن النقل. فقد تضمنت مصنفاتهم الكثير من الوثائق؛ خصوصا بالنسبة للمؤرخين المشتغلين بالكتابة فى الدواوين، أو المناصب الإدارية العليا؛ كما هو حال ابن حجر وابن عربشاه وخليل بن شاهين والعينى [٥]. كما كان بعض المؤرخين من المشاركين فى الأحداث؛ فعاينوها وأدلوا بشهاداتهم مكتوبة فى تواريخهم؛ أو سمعوا عنها من شهود عيان؛ فأثبتوها فى كتبهم مسبوقة بكلمة: حدثنى فلان، أو وجهوا إليهم أسئلة فى موضوع ما وتلقوا الاجابة عنها؛ فأثبتوها مسبوقة بلفظة «قال فلان [٦]».

---

(١) نفسه، جـ٣، ص١٢٦، ١٢٧، ١٣١، جـ٢، ص١٧٣.

(٢) نفسه: جـ٣، ص١٣١، ١٥٤، ١٧٩، ١٨٢.

(٣) سلام شافعى سلام: أهم مصادر، ص٩ .

(٤) سلام شافعى سلام: المؤرخون النصارى ، ص٥٦.

(٥) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص١٧.

أحمد عبد الرازق: المرجع السابق، ص٢٢، ٢٣.

(٦) انظر:السيوطى حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جـ١، ص٦٥؛ على سبيل المثال، بيروت ١٩٩٧.

هذا بالنسبة للأحداث التى عاصرها المؤرخ؛ أما عن وقائع العصور السابقة،؛فكان «النقل» عن المؤرخين السابقين هو المصدر الوحيد لاستقاء الأخبار[١]. وفى معظم الأحيان كان الناقل يثبت ما نقله كما هو، أو يتصرف فيه فيختار المنقول الذى يثبته فى مؤلفه بصورة مختصرة[٢]؛ لذلك لم يقدم المؤرخون أى جديد مبتكر[٣].

وشاعت «السرقات» بين مؤرخى العصر؛ فكان المؤرخ يسطو على كتابات سابقه أو معاصره فيسجلها فى مؤلفه دون إشارة إلى المصدر؛ كما هو حال المقريزى على سبيل المثال[٤].

أما عن ترتيب المعلومات؛ فقد جرى حسب النظام الحولى أحيانا، أو سوقها فى شكل موضوع مستقل أحيانا أخرى. وعول المؤرخون المحدثون على الإسناد، كما أهمله غيرهم فنسبوا جهود مؤرخين سابقين أو معاصرين إلى أنفسهم. واتسمت العروض عموما بالخلل والتخليط بين معلومات غير متجانسة؛ بما ينم عن ضآلة الوعى التاريخى. كما جرى الاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية وأقوال السلف، فضلا عن الشعر[٥].

ونظرا لكون جل مؤرخى العصر من الموالين للسلطة، أو من الفقهاء المتعصبين لمذاهبهم الفقهية؛ إفتقرت كتاباتهم إلى الموضوعية، ونضحت بالتعصب المقيت. فمؤرخو السلطة برروا سياسات الحكام بالحق أو بالباطل، والمؤرخون الفقهاء لم يدخروا وسعا فى تسفيه كتابات خصومهم، وتجريح أشخاصهم. ويعد ابن إياس نموذجا فى هذا الصدد؛ حيث اشتهر بسلاطة القلم؛ حتى قال فيه السيوطى: «ألف تاريخا جمع فيه أكابر وأعيانا، ونصب لأكل لحومهم خوانا»[٦]. لذلك شاع فى هذا العصر أن «التاريخ أساسه الكذب»[٧]، كما شاع «تكفير» الخصوم[٨] بنفس القدر.

---

(١) أحمد عبدالرازق: المرجع السابق، ص ٣١.

(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣ ص ١٧ .

(٣) أحمد عبدالرازق: المرجع السابق، ص ٣١، ٣٢.

(٤) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص ٤٥.

(٥) روزنتال: المرجع السابق، ص ٢٢٢.

(٦) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص ٣٩.

(٧) روزنتال: المرجع السابق، ص ٧٤.

(٨) ابن الأعرج: المرجع السابق، ص ٦٠.

وإذا عمل بعض المؤرخين الرأى فى نقد الروايات؛ فإن الأغلبية مالت إلى «المجازفة» [١]. وقد استخدمت تلك الكلمة فى أدبيات العصر بمعنى الجهل وانعدام الروية [٢]؛ وإن سلمت قلة من تلك الآفة؛ فاتسمت تواريخهم بالصدق والموضوعية، كما هو حال ابن حجر [٣].

أما عن الرؤية؛ فكانت دينية غيبية فى الغالب الأعم؛ إذ التاريخ - فى نظرهم - قدر إلهى مقدور يجب التسليم به والخضوع له، وصيرورته منوطة بمخلص تبعثه العناية الإلهية على رأس كل مائة عام. وفى هذا الصدد كتب السيوطى كتاب «التنبئة عمن يبعثه الله على رأس كل مائة» [٤]. ويشى هذا التصور بموقف الصفوة السلبى إزاء سلطة طاغية [٥].

كما يشى بالقصور المعرفى نتيجة تحريم العلوم الدنيوية وتجريم المشتغلين بها. لذلك غصت كتب المؤرخين بالخرافات والشعوذة [٦]؛ بل إن بعضهم امتهن أعمال السحر والرمل؛ كالبسطامى. أو اشتغل بالتنجيم والزايرجة؛ كالمقريزى. [٧]

على أن بعض مؤرخى العصر اعتبروا التاريخ من أفعال البشر؛ ومن ثم فسروا أحداثه ووقائعه تفسيرا واقعيا منطقيا؛ فردوا سوء الأحوال لفساد الحكام [٨]. كما قدم المقريزى فى كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة» تفسيرا يقارب التفسير الاقتصادى؛ لكنه لم يصل إلى «التفسير المادى للتاريخ» حسب حكم بعض الدارسين [٩]. إذ إن مقاربته تنطلق من وعى تاريخى بوقائع العصر فى ظل سيادة نظام الإقطاع العسكرى [١٠] ليس إلا. وحسبنا أن المقريزى اعتقد فى الرجم بالغيب واشتغل بالتنجيم [١١]. ومال غيره إلى الاعتقاد بالكرامات والخوارق فى تفسير التاريخ [١٢]

---

(١) أنظر: ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ٢، ص ٢٨٨، القاهرة، د. ت.
(٢) روزنتال: المرجع السابق، ص ١٤٦.
(٣) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص ١٩.
(٤) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٨٢.
(٥) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص ٣.
(٦) وفى هذا المقام؛ كتب العينى المؤرخ عن تفوق كل إنسان اسمه «المؤيد».
أنظر: روزنتال: المرجع السابق، ص ١٤٦.
(٧) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص ٢٨، ١٤٠، ١٦٦.
(٨) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص ١٤.
(٩) أنظر: طيب تيزينى: المرجع السابق، ص ٣٩٨، ٤٠٣، ٤٠٤.
(١٠) محمد أنيس: مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى، ص ١٣، القاهرة ١٩٦٢.
(١١) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص ٧٥.
(١٢) أنظر السيوطى: حسن المحاضرة، جـ ٢، ص. ٢٥٥ وجدير بالذكر أنه كان يعتقد بإمكانية تحويل الرصاص إلى ذهب.

أما مؤرخو الشيعة؛ فقد نظروا إلى التاريخ نظرة مغايرة؛ إذ اعتبروه نتاج فعاليات بشرية؛ لذلك عالجوا وقائعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفق رؤية واقعية[١]؛ فحكموا العقل وعولوا على المنطق، لذلك اتسمت معظم تواليفهم بالنقد والرأى والروية [٢].

كما لم يعدم السنة وجود مؤرخين اتصفوا بالنزاهة والموضوعية والجرأة؛ كما هو حال ابن حجر العسقلانى الذى انتقد سياسات الحكام وندد بهم، وانحاز إلى الرعية [٣]. وفى نفس السياق؛ نشير إلى ابن الأعرج الذى اعتبر فساد الحكام سببا لتدهور أحوال الرعية [٤]، ودعا إلى إصلاح الجهازين الإدارى والمالى، بل طالب الحكام بالعودة إلى مبدأ «الشورى». كما ندد بسياسة التغريم والشطط فى الجبايات[٥]، ونادى بتكوين جهاز رقابى يتابع سياسات العمال والولاة، قوامه «موظفون أكفاء ثقاة وقضاة وكتاب وشهود»[٦]. كما دعا إلى ضرورة إصلاح النظام القضائى وخطة الحسبة [٧] ونظام «المظالم»؛ بهدف تحقيق العدالة [٨].

وفى نفس الإطار؛ يمكن الحديث عن نزاهة السيوطى الذى لم يلن لإغراءات السلاطين، فكان يرد إنعاماتهم ويرفض هداياهم، كما اعتكف بمنزله احتجاجا على مظالمهم [٩].

وهذا يقودنا إلى الوقوف على مقاصد المؤرخين وغاياتهم التى توخوها من وراء كتابة التاريخ. وبالرجوع إلى مقدمات كتبهم؛ نراهم يتشدقون بأن غاياتهم ومقاصدهم إصلاحية تعليمية دينية ودنيوية؛ قوامها نصح الحكام والحض على الجهاد وترشيد الرعية [١٠]. لكن هذا الحكم لا ينطبق إلا على ثلة محدودة من المؤرخين سبقت الإشارة إليهم. ولا غرو؛ فقد أتت كتاباتهم أكلها أحيانا؛ خصوصا فى مجال استنفار الحكام والرعية لجهاد الصليبيين والمغول [١١]. إلا أن غالبيتهم استهدفوا الارتزاق بمشايعة السلطة وتبرير سياساتها [١٢].

---

(١) الإدفوى: المصدر السابق، ص ١٠.
(٢) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ ٣، ص ١٧٨.
(٣) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص ١٩.
(٤) أنظر: تحرير السلوك فى تدبير الملوك، ص ١٣.
(٥) نفسه، ص ٢٦، ٢٧.
(٦) نفسه، ص ٣١ ـ ٣٩.
(٧) نفسه، ص ٤٧.
(٨) نفسه، ص ٤٢، ٤٣.
(٩) عبدالمنعم ماجد: المرجع السابق، ص ١١.
(١٠) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ٩.
(١١) روزنتال: المرجع السابق، ص ٢٩٠.
(١٢) نفسه، ص ٨٦.

كما استهدف المؤرخون النصارى نشر فضائل المسيحية «وتعاليم المحبة.. ومعرفة أخبار الرعاة من خدام الكلمة» (١).

أما عن أسلوب الكتابة التاريخية؛ فقد اتسم فى الغالب الأعم بالصنعة اللفظية والإسراف فى البديع؛ إظهارا للبراعة الأدبية؛ حتى لو كانت على حساب المعنى(٢). ويرجع ذلك إلى محاولة المؤرخين محاكاة أنموذج القاضى الفاضل الذى غدا مثلا يحتذى. ومع ذلك لا نعدم وجود نفر من المؤرخين صاغوا المعانى فى نثر مرسل واضح ومحدد. لكن الغالبية - خصوصا من المؤرخين المنتمين إلى الأسرة المملوكية - لم يجيدوا العربية، لذلك فشت العجمة فى كتاباتهم، وكثيرا ما عبروا عن المعانى بالعامية الدارجة؛ كما هو حال ابن تغرى بردى وابن إياس؛ على سبيل المثال. كما اتسم أسلوب المؤرخين الكنسيين بالركاكة والأخطاء النحوية والإملائية (٣).

لذلك كله؛ لا نبالغ إذا حكمنا على الفكر التاريخى آنذاك بالتدهور، موضوعا ومنهجا ورؤية. فالنقل آفة شائعة، والسطو سمة بارزة، والاجترار والتكرار بديل للإبداع والابتكار. لذلك لا اعتبار لحكم بعض الدارسين الذين قالوا بازدهار الفكر التاريخى فى مصر آنذاك. ويبدو أنهم بهروا بكثرة أعداد المؤرخين وضخامة مؤلفاتهم؛ فأطلقوا لذلك أحكاما جزافية.

وحسبنا الإشارة إلى أحكام مغايرة لبعض الدارسين الثقاة؛ ممن نثق فى تقويماتهم وأحكامهم. إذ ذهب بعضهم إلى أن النتاج التاريخى فى هذا العصر كان مكرورا؛ حتى لكأن منتجيه يعزفون نغمة واحدة(٤). واتهمهم البعض الآخر بالمجازفة والجهل (٥). وربط غيرهما هذه المثالب بتدهور ساد ثقافة العصر برمتها(٦). كما فطن بعض الدارسين العرب إلى تلك الحقائق فحكموا بأن «معظم ما كتب كان معيبا»(٧)، وأن جلهم أخذوا عن غيرهم «دون إضافات تذكر»، لذلك «لم تحظ تواريخهم بثقة الدارسين المحدثين»(٨).

---

(١) سلام شافعى سلام: المؤرخون النصارى، ص ٥٧.
(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٠.
(٣) سلام شافعى سلام: المؤرخون النصارى، ص ١٠٠.
(٤) أنظر: مرجوليوث: المرجع السابق، ص ١٧٤.
(٥) أنظر: روزنتال المرجع السابق، ص ٩٠.
(٦) أنظر: Blochet: Histoires des Sultans Mamlouks, P. g, Paris, 1919.
(٧) أنظر: محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص ٥٦.
(٨) أنظر: أحمد عبدالرازق: المرجع السابق، ص ٣١، ٣٧، ٤٨، ٥٢.

لعل هذه المآخذ والسلبيات كانت من وراء حملة الكثيرين من الفقهاء على مؤرخي العصر؛ الأمر الذى حدا بالآخيرين إلى الدفاع عن جدوى علم التاريخ وفوائده. إذ أثر أن ابن حجر العسقلانى سئل عما إذا كان الاشتغال بالتاريخ حلالا أم حراما؛ فأجاب إجابة تؤكد عدم مجافاته للشريعة [1]. كما أفتى الكنانى (ت ٨٧٦ هـ) فتوى ترجح الحكم السابق [2].

ومن أجل الدفاع عن هذه المشروعية، صنف السخاوى كتاب «الإعلان بالتوبيخ» الذى تناولناه بالدرس من قبل، كما كتب السيوطى كتاب «الشماريخ فى علم التاريخ» للغرض ذاته[3]. وفى السياق نفسه صنف الكافيجى كتابه «مختصر علم التاريخ»، الذى عرضنا له من قبل أيضا.

خلاصة القول؛ أن علم التاريخ فى مصر إبان عصر الإقطاعية العسكرية، تدهور وانحط، شأنه فى ذلك شأن بقية أقاليم العالم الإسلامى؛ نظرا لوحدة التاريخ وسوسيولوجية الفكر.

لمزيد من تأكيد هذا الحكم؛ نفرد حيزا لدراسة مؤرخين من مؤرخى العصر بصورة مفصلة؛ أولهما مؤرخ سلطوى من طبقة «أولاد الناس» هو ابن تخرى بردى، والثانى مؤرخ – محدث تميز – عن معاصريه – بمعارضة السلطة؛ وهو ابن حجر العسقلانى.

أما عن ابن تخرى بردى (ت ٨٧٤ هـ)؛ فهو من طبقة «أولاد الناس»؛ أى ينتمى إلى الأسرة المملوكية الجركسية الحاكمة. إذ كان والده مملوكا روميا برز فى سلطنة «برقوق» وتدرج فى مناصب الدولة حتى تولى نيابة دمشق. كما كانت أمه جارية تركية؛ لذلك أجاد التركية منذ طفولته، تلقى علوم عصره الدينية، فدرس الفقه والحديث، فضلا عن النحو والبديع والشعر، كما تعلم الفروسية منذ صباه على أيدى مماليك أبيه.

ولكونه ينتمى إلى الطبقة المملوكية، كان على صلات وثيقة بالسلاطين الجراكسة؛ فكان صديقا لأبنائهم، الأمر الذى أفاده فى استقاء معلومات مهمة عن أحوال البلاط وحياة الطغمة الحاكمة. كما عاصر أحداثا مهمة؛

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٥٥.

(٢) نفسه، ص ١٧٤.

كان شاهدا عليها؛ أفاد منها فيما كتب عن الحقبة التى عاصرها فى عهود السلاطين جقمق وخشقدم وبرسباى.

إشتغل بالتاريخ من باب الهواية، فتتلمذ على المقريزى، وصنف مؤلفه الشهير «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، وقدمه هدية إلى صديقه محمد بن جقمق ليحظى عنده بالقربى إذا ما تولى السلطنة. لذلك نشكك فى قوله بمقدمة الكتاب بأنه صنفه «غير مستدعى إلى ذلك من أمير أو سلطان» وإنما «ليكون له فى الوحدة جليسا»، كذا من أجل مصر التى أحبها نظرا لما لها من «ميزة على كل بلد بخدمة الحرمين الشريفين»[1].

أما عن موضوع الكتاب؛ فيتعلق بتاريخ مصر منذ الفتح الإسلامى حتى عصره؛ إذ عرض للأحداث السياسية المهمة، واهتم بالنظم والإدارة والعمران، فضلا عن الترجمة لمشاهير أعلامها[2].

إستهل ابن تغرى بردى تأريخه بعرض عن جغرافية مصر استمده من كتب الجغرافيا والرحالة، كما عرض لفضائلها ومحاسنها مدعمة بالأحاديث النبوية والأقوال المأثورة. ثم تحدث عن فتح مصر، مفيدا من كتابات ابن عبدالحكم وغيره. ثم خرج عن سياق العرض؛ فتناول الأحداث المعاصرة للفتح فى العالم الإسلامى. وعالج الأحداث المهمة التالية حتى عصره مرتبة على النظام الحولى؛ مهتما بأخبار مصر أساسا، ومطوفا بأحداث العالم الإسلامى أحيانا.

أما عن المادة التاريخية الخاصة بتاريخ مصر فى العصور السابقة؛ فقد اعتمد فيها على النقل أساسا، وأحيانا يقوم بتلخيص الروايات المختلفة ويجملها فى رواية واحدة؛ دون ذكر لمصادره، مكتفيا بلفظة «قيل» أو «ذكر». أما ما نسبه إلى نفسه؛ فقد سبقه بكلمة «قلنا»؛ وهو فى الغالب لا يعد تعليقات ساذجة، أو ذكر عبارات مأثورة بعضها من القرآن؛ مثل «وما ربك بظلام للعبيد»، أو من الأقوال الشائعة: مثل «نعوذ بالله من زوال النعم» و«القصاص قريب»، وما شابه. وكثيرا ما أقحم أشعارا ركيكة من نظمه، أو من غيره «إتماما للفائدة»[3] على حد قوله.

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ٦، ص ٢، القاهرة، د. ت.
(٢) نفسه، ص ٢، ٣.
(٣) نفسه، جـ٢، ص ١٨٧.

وفى عرضه للأحداث؛ لا يهتم بمقارنة الروايات المتنافرة واستخلاص أقربها إلى المنطق، بل يعول على معيار «التواتر» [١]. وكثيرا ما نقل روايات السابقين بأخطائها؛ بل كثيرا ما ذكر أخبارا من نسج خياله؛ تنطوى على أخطاء فاحشة[٢].

وتفتقر آراؤه إلى الموضوعية؛ إذ يسفر عن تعصبه كتابة؛ كقوله عن يزيد بن معاوية «وله أشياء كثيرة، غير أننى أضربت عنها لشدة فسقه»(٣). وإذ يسكت عن ذكر أحداث مهمة، يستطرد أحيانا فى ذكر أخرى هامشية؛ لا صلة لها بالسياق. وكان ينهى حديثه المسهب بصددها بعبارة «خرجنا عن المقصود»، ويحمد له الحرص على ذكر أحوال النيل فى نهاية كل حولية، وما يعترى فيضانه من زيادة أو نقصان.

أما عن تراجمه فى الوفيات؛ فهى جد مقتضبة وممسوخة وملخصة من تراجم الذهبى تلخيصا مخلا. لذلك نرى أن تاريخ مصر كما ورد فى «النجوم الزاهرة» ـ باستثناء الفترة التى عاصرها ـ عديم الفائدة. ولعل ذلك كان من أسباب تحامل السخاوى على الكتاب؛ إذ وسمه «بالوهم الكبير.. والخلط الغزير.. والسقط فى الأنساب.. والتصحيف.. والتحريف.. والتكرير.. وذكر الحوادث بما لا يتفق... الخ».

أما عن تأريخه للفترة التى عاصرها وأرخ لها حوليا أيضا؛ فهو جد ثرى. إذ استمد مادته من مظان أصلية، وتحرى الصدق والأمانة فى ذكر مصادره، وناقش الروايات مناقشة المتعمق الواثق؛ وذلك لمعرفته الواسعة عن أحوال عصره بنظمه ورسومه.

وفى هذا الصدد؛ كانت مرجعيته متعددة؛ فأفاد من مماليك أبيه فى معرفة خفايا عصر السلطان برقوق وابنه السلطان فرج[٤]. كما استمد مادة ضافية من أبناء السلاطين الذين صادقهم، كذا من رجال البلاط الذين جمعتهم به صلات وطيدة. يقول ـ على سبيل المثال «حدثنى غير واحد من حواشى الأسياد وأولاد السلاطين...»[٥] كما اطلع على الكثير

(١) نفسه، ص ١٠٢.
(٢) مثال ذلك؛ قوله إن عيسى بن مريم ولد بمصر، وأن عبدالله بن سعد فتح الأندلس، وأن الرسول (ص) تزوج أم حبيبة بالحبشة، وأن الصفرية من الخوارج ينسبون إلى المهلب بن أبى صفره. نفسه، جـ١، ص ٥١، ٨٠، ١٢٣، ٢٨٩. ناهيك عن أخطائه فى أسماء الأعلام والتواريخ. نفسه، ص ٢٠٧، ٣٤٩، على سبيل المثال.
(٣) نفسه، ص ١٦٣.
(٤) نفسه، جـ١١، ص ٣٦٩.
(٥) نفسه، جـ١٢، ص ٥٧.

من وثائق الدواوين؛ فقدم صورة واضحة موثقة عن الجهاز الإدارى والمالى والحربى والقضائى. ولوائح بالرتب والإنعامات، وأخبارا عن الولايات التابعة للسلطنة، والمدن والثغور وغيرها(١).

أما عن تراجمه فهى جد ثرية؛ استقى معظمها من الشيخ خليل الصفدى الذى قرظه ابن تخرى بردى وامتدح خصاله(٢).

ويبدو أنه نقل الكثير عن المقريزى؛ حتى أخطاءه، ونادرا ما أشار إليه بقوله «قال المقريزى رحمه الله». ومع ذلك كان ابن تخرى بردى أشهر مؤرخى عصره، بخصوص التأريخ للمماليك الجراكسة، ومصطلحات النظم المملوكية؛ لإجادته اللغة التركية، وصلاته الوثيقة بالسلطنة؛ وهو أمر حمده له السخاوى حين اعترف «ببراعته فى أحوال الترك وغالب أحوالهم، منفردا بذلك» (٣).

ولا غرو؛ فقد تصدى لتصويب أخطاء سابقيه ومعاصريه فيما كتبوا عن تاريخ الجراكسة؛ فى ثقة واعتداد. إذ كان يثبت رأيه بعد تفنيد آراء الآخرين فى المسائل الخلافية بقوله: «هو الأصح وبه أقول»(٤). بل أحيانا ما خرج عن حدود اللياقة؛ فيتطاول عليهم بقوله «والقولان ليسا بشىء».(٥) ولم يسلم من انتقاداته حتى المقريزى أستاذه، فكان يقول بصدد بعض آرائه التى لا تروقه « ... ونحن نشاحح الشيخ تقى الدين المقريزى فى كلامه..»؛ بل نراه يتطاول عليه أحيانا، فيذكر أن «الشيخ تقى الدين رحمه الله ـ كان له انحرافات معروفة تارة وتارة» (٦). ولا غرو؛ فقد اعتبر ابن تخرى بردى نفسه مؤرخ عصره. ولإثبات ذلك؛ انبرى يتصيد هفوات أستاذه ـ المقريزى ـ ويتعقب أخطاءه كلما سنحت الفرصة (٧) ؛ مبديا فى الظاهر أنه «لا يروم الحط من قدره.. غير أن الحق يقال»(٨).

---

(١) نفسه، ص ١١٥ ـ ١١٩.

(٢) نفسه، جـ١١، ص ١٩.

(٣) أنظر: محمود إسماعيل: قضايا فى التاريخ الإسلامى ـ منهج وتطبيق، ص ١٦٥، الدار البيضاء ١٩٨١.

(٤) النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٢١.

(٥) نفسه، ٢٢٤.

(٦) نفسه، ص ٢٩٢، ٢٩٣.

(٧) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص ٨٥.

(٨) النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ٢٩٤.

إن ما كتبه ابن تخرى بردى عن تاريخ عصره جد متميز؛ إذ كشف فيه عن خبايا السلطنة المملوكية بصورة لم تتسن لغيره. كما عرى الطغمة الحاكمة وفضح حياتها الرافلة فى الترف؛ فألقى الضوء على مظاهر لهوهم وأساليب تسليتهم، بل تغلغل إلى قصورهم؛ فكشف النقاب عن ازدواجية مزاجية فى شخوصهم تجمع بين معاشرة الجوارى والغلمان، ومسامرة الفقهاء والأدباء.. إلى غير ذلك من المعلومات الجادة والطريفة والعظيمة الأهمية فى تصوير الحياة الاجتماعية.

على أن ابن تخرى بردى ـ بحكم وضعه الطبقى ـ أهمل حياة الشعب المصرى فى تاريخه إهمالا تاما؛ فلم يشر إلى أهل البلاد إلا ما ورد عفوا؛ فيصف تظاهراتهم عند استقبال السلاطين، أو نهبهم بيوت الأمراء المغضوب عليهم. كذلك أسقط ريف مصر من حسابه، اللهم إلا ما ورد عن سكانه إبان الكوارث الطبيعية أو المجاعات أو الأوبئة التى كانت تحصدهم حصدا(١).

على أن هذه النقائص، مضافا إليه ركاكة الأسلوب وكثرة الأخطاء اللغوية والأسلوبية والنحوية؛ لا تقلل من قيمته فيما أرخ عن عصر المماليك الجراكسة.

أما ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ)؛ فهو من أسرة عربية أقامت بعسقلان ثم نزحت إلى الإسكندرية؛ حيث اشتغل جده بالتجارة، التى امتهنها والده أيضا؛ فكان من كبار تجار «الكارم».

درس اللغة والأدب فى طفولته بعد أن حفظ القرآن الكريم، ثم درس العلوم الدينية وتعمقها، وأضاف إليها المنطق وبعض العلوم العقلية الأخرى. يفهم هذا من قول السخاوى(٢) «أخذ بهمة وافرة باهرة فى طلب العلوم منقولها ومعقولها؛ حتى بلغ الغاية القصوى»(٣). له رحلة داخل مصر؛ فزار مدنها وقراها، وخارجها إلى الشام والحجاز؛ حيث خالط الفقهاء والمحدثين وحاورهم. حاز العديد من الإجازات فى العلوم الدينية؛

---

(١) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص ١٦٧، ١٦٨.

(٢) السخاوى: الذيل على رفع الإصر، ٢٨٦، القاهرة ١٩٦٦.

(٣) محمد كمال عز الدين: التاريخ والمنهج التاريخى لابن حجر العسقلانى، ص ٨ وما بعدها، بيروت ١٩٨٤.

فتأهل للتدريس بمدارس القاهرة. ثم تولى الإفتاء والقضاء والخطابة بالأزهر[١]، وأبى تولى مناصب رسمية؛ احتجاجا على جور الحكام. وحظى لذلك بمكانة أدبية عند سائر طبقات المجتمع؛ وإن تعرض لعداوة فقهاء السلطة لمكانته العلمية الفريدة [٢]. إشتهر بالنسك وفعل الخير وأعمال البر؛ فحظى بحب العوام وتقديرهم.

لنحاول بعد عرض سيرته البهية التعرف عليه مؤرخا؛ من خلال كتابه «إنباء الغمر بأنباء العمر».

الكتاب سجل تاريخى مهم يجمع بين الحوادث والوقائع التاريخية وبين التراجم. مرجعيته متعددة ومتنوعة؛ فقد عول أساسا على العيان والمشاهدة[٣]، كما اعتمد المشافهة والسماع من زملائه وأقرانه[٤]، كما استثمر المساءلة والمكاتبة لمن كتب عنهم من الأحياء[٥]. وأورد وثائق مهمة تتعلق بأحداث عصره نتيجة توليه القضاء وعقده صلات مع ذوى الشأن[٦].

وعن الأحداث السابقة على عصره؛ نقل من مؤرخين كبار من أمثال ابن دقماق وابن كثير وابن خلدون وابن خلكان[٧].

أما عن الموضوعات التى طرقها فى كتابه؛ فقد أرخ للفترة ما بين ٧٧٣ هـ وسنة ٨٥٠ هـ، وهى فترة شهدت عهود الأشرف شعبان والظاهر برقوق والناصر فرج والمؤيد شيخ والظاهر ططر والأشرف برسباى وحقبة من حكام الظاهر جقمق. وفى تأريخه لهم لم يحفل بالأحداث السياسية والعسكرية فقط؛ بل اهتم بالأحوال الدينية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. كما ضمن الكتاب أخبارا عن الحجاز والعراق واليمن والمغرب؛ وهى دول ذات صلات مع دولة المماليك الجراكسة التى عاش فى ظلها، لذلك اهتم بأخبار الأحباش والتركمان والمغول.

---

(١) نفسه، ص ١٥٤.

(٢) السخاوى: المصدر السابق، ص ٢٨٤.

(٣) ابن حجر العسقلانى: إنباء الغمر بأنباء العمر، جـ٣، ص ٣٣، القاهرة ١٩٧٢.

(٤) نفسه، جـ١، ص ٣٩٠، جـ٢، ص ٨٨.

(٥) نفسه، جـ٢، ٤٨٦.

(٦) نفسه، جـ١، ص ٢٢ من مقدمة المحقق.

(٧) نفسه، جـ ١، ص ٤، ٥.

كما يحوى الكتاب معلومات عن الوظائف العامة والمذاهب الفقهية ووضعية أهل الذمة، فضلا عن أخبار الخطباء والوعاظ الذين أولاهم عناية خاصة لا تخلو من دلالة.

وفى تأريخه للسلاطين الجراكسة؛ تعرض لسياساتهم الجائرة؛ خصوصا ما تعلق بالمصادرات والمغارم والجبايات المشتطة(١). ولم يهمل أخبار العربان وإغاراتهم المتكررة على الفلاحين، وجهود السلطنة فى مواجهة أخطارهم(٢). كما اهتم بأخبار العوام؛ فعرض لهباتهم وانتفاضاتهم فى إطناب واسترسال(٣). وعرض للجوانب العمرانية وأشاد بسياسة السلاطين فى التشييد والبناء(٤).

ويبدو أنه كان وثيق الصلة ببعض رجالات البلاط؛ فأمدوه بمعلومات ضافية عن الحياة الخاصة للسلاطين(٥). كما أورد معلومات مهمة عن طبقة الأشراف(٦) وأصناف الحرف (٧). وأولى فيضان النيل اهتماما زائدا، فتحدث عن مناسيبه وجهود الدولة والرعية فى مواجهة أخطاره،(٨) وما ترتب على فيضانه من خراب أو رواج. كما عالج موضوعات اقتصادية مهمة، كالعملة وأسعار السلع ومدى ارتفاعها أو رخصها (٩). وقدم رصدا للكوارث وما تبعها من أوبئة ومجاعات (١٠).

وتناول موضوعات اجتماعية مهمة؛ كحياة الشطار والذعر مبرزا فضائلهم ومساوئهم فى آن (١١)، فضلا عن العادات والتقاليد والأمراض الاجتماعية كالبطالة والسحر والشعوذات(١٢). كما اهتم بأحوال طوائف أهل الذمة؛ فوصف أعيادهم وعوائدهم ومدى ما تمتعوا به من تسامح أو ما عانوه من اضطهاد(١٣).

---

(١) نفسه، جـ١، ص ١٧٠، ٢١٦؛ كمثال.
(٢) نفسه، ص ١٧٧، ١٩٠، ٢٣٦؛ كأمثلة.
(٣) نفسه، ص ١٩٢؛ كمثال.
(٤) نفسه، ص ٢٦٣، ٢٨٩.
(٥) جـ١، ص ٣١٢، جـ٢، ص ١٩٩.
(٦) نفسه، جـ١، ص ١٠٢؛ كمثال.
(٧) نفسه، جـ٣، ص ٤٢٣.
(٨) نفسه، جـ١، ص ٥٠٨.
(٩) نفسه، ص ٧٦، ٢١٨، ٢٣٦؛ كأمثلة، جـ٢، ص ٥١.
(١٠) نفسه، جـ١، ص ١٠٤، جـ٣، ص ٦٩.
(١١) نفسه، جـ١، ص ٧٦.
(١٢) نفسه، ص ١٩٨.
(١٣) نفسه، ص ٩، ١٩٧، ٢٢٠، ٤٥٧.

واهتم بالكثير من الأمور الدينية، كالحجيج وأدعياء النبوة والزنادقة[١]. كما عرض للصوفية وكراماتهم وطرقهم ومناقبهم[٢]. كما أورد الكثير من الغرائب والعجائب وطبعها بمسحة دينية أو خرافية[٣].

أما عن التراجم؛ فمعظمها خاص بالأكابر والأعيان؛ بما يعكس بعدا طبقيا اعترف به صراحة[٤]. لكنه آثر الاهتمام بالمحدثين والحفاظ؛ لكونه محدثا[٥]. ومن الإنصاف الإشارة إلى إثباته معلومات مهمة عن الطبقات الدنيا كالحرفيين والحمالين والبطالين وغيرهم. وشملت تراجمه مشاهير رجال العلم خارج مصر، بالإضافة إلى من ترجم لهم من المصريين.

أما عن منهجه؛ فقد اعتمد النظام الحولى فى تصنيف الوقائع والأحداث، كما رتب التراجم فى كل حولية حسب حروف الهجاء. وكان يبدأ كل حولية بذكر الوقائع ثم يختتمها بالتراجم[٦]. وراعى - بعد معيار حروف الهجاء - تبويب من ترجم لهم حسب المنصب والمهنة والرياسة والوجاهة وحسن الخلق والالتزام بالشرع. كما اهتم بإثبات الاسم والكنية واللقب واسم الشهرة والنسب والألقاب العلمية والصفات الشخصية وتاريخ المولد والوفاة، وأثبت المؤلفات والشيوخ ودرجة العلم ودرجات السماع والسجايا والصفات[٧].

وباعتباره محدثا، اهتم بالإسناد[٨]، مع الإشارة إلى المصدر الذى نقل عنه[٩] كما اهتم بثقة مصادره؛ اعتمادا أو تفنيدا[١٠]؛ مطبقا قواعد «الجرح والتعديل» فى نقد الرواية[١١]. وكان معياره هو درجة التدين وصحة العقيدة وحسن الخلق[١٢]. كما عول على درجة العلم بالنسبة لمن ترجم لهم من العلماء[١٣]، ومدى الاستقامة فى تراجمه عن المتصوفة[١٤].

---

(١) نفسه، ص ٤٠١، ١٩٦، جـ٣، ص ١٣٧.
(٢) نفسه، جـ١، ص ٥٠؛ كمثال.
(٣) نفسه، ص ١٧٨، ٢١٠.
(٤) نفسه، ص ٤.
(٥) نفسه؛ ص٤ ، ٥ .
(٦) نفسه، ص ٢٢٠.
(٧) نفسه، مقدمة المحقق، ص ٢٧٤.
(٨) نفسه، جـ١، ص ٤، ٥.
(٩) نفسه، جـ٢، ص ٤١١.
(١٠) نفسه، جـ٢، ص ٣٠٦.
(١١) نفسه، جـ٢، ١٦٨.
(١٢) نفسه، جـ٣، ص ١٧٨.
(١٣) نفسه، صـ٣١.
(١٤) نفسه، ص ١٠٥.

وفى نقده للروايات التاريخية؛ حكم العقل والمنطق أكثر من التواتر والشيوع[1]. أما عن نقده لمن أرخ لهم من الحكام والسلاطين والولاة والعمال؛ فقد حمل على ظاهرة بيع الوظائف العامة واختلاسات الموظفين[2]، كذا على الكثيرين من مفاسد الولاة والعمال[3]. كما لم يتورع عن انتقاد السلاطين، إذ وصف السلطان برقوق بالجور والطمع[4]، ووصف بعض الأمراء الجراكسة بقبح السيرة «وشدة الوطأة على الناس»[5].

أما عن رؤيته للتاريخ؛ فقد غلبت عليها المسحة الدينية فى معظم الأحيان[6] ؛ باعتباره محدثا محافظا، وإذ يقيم ويفسر؛ يعول على معيار الحسن أو القبح أحيانا؛ وفى أخرى يعتمد التحليل الواقعى، كربطه بين تعاظم الوفيات وبين الجوائح الطبيعية والمجاعات[7]. ومع ذلك لم يتجاوز ثقافة عصره، حين اعتمد الكرامات والخوارق فى تعليل الأحداث والوقائع[8].

أما عن أسلوبه؛ فقد اعتمد النثر الرسل متحاشيا السجع والتكلف، ومع ذلك انطوى أسلوبه على شىء من الركاكة[9]. ويحوى عرضه الكثير من الاصطلاحات الشائعة؛ خصوصا اصطلاحات أهل الحديث[10].

أما عن سلبياته؛ فيؤخذ عليه التداخل بين الوقائع والتراجم، كذا تكرار الحوادث؛ كآفة مترتبة على المنهج الحولى[11].

خلاصة القول؛ إن ابن حجر ـ برغم هذه المآخذ ـ يعد من خيرة مؤرخى عصره؛ على الأقل فى ثراء معلوماته وتنوع الموضوعات التى طرقها،

---

(١) نفسه، جـ١، ص ١٩.
(٢) نفسه، جـ٢، ص ٣٦٠.
(٣) نفسه، جـ١، ص ١٥٢.
(٤) نفسه، جـ٣، ص ١٠٦.
(٥) نفسه، ص ٢٧.
(٦) نفسه، ص ٥١٧.
(٧) نفسه، جـ٣، ص ٤٤١.
(٨) نفسه، جـ١، ص ٥٠، ١٧٨، ٢١٠.
(٩) نفسه، جـ٢، ص ٩؛ كمثال.
(١٠) نفسه، ص ١٦، ١٩، ١١٢؛ كأمثلة.
(١١) نفسه، ص ٢٢٥، ٢٢٦؛ كمثال.

واهتمامه بالتاريخ الحضارى، وأحوال العوام، هذا فضلا عن موضوعيته ونزاهته وعدم تزلفه للسلاطين وتعاطفه مع الرعية.

والخلاصة؛ ان الفكر التاريخى فى مصر خلال عصر الإقطاعية العسكرية - برغم خصوصيته نسبيا - خضع لنفس المعطيات، واتسم بذات الخصائص العامة التى تشى بالتدهور، شأنه فى ذلك شأن سائر المعارف فى العالم الإسلامى برمته.

رابعا .. فى اليمن والحجاز

معلوم أن شبه الجزيرة العربية همشت سياسيا بعد انتقال الخلافة إلى دمشق فى العصر الأموى، ثم بغداد فى العصر العباسى؛ ففقد الحجاز دوره فى توجيه الأحداث، وأصبحت «المدينة» موئلا لحياة الدعة والخمول بعد أن كانت حاضرة «دار الإسلام». ومع ذلك احتفظت مكة والمدينة بمكانة دينية وقدسية فى قلوب المسلمين بسبب الحجيج، وغدا إقليم الحجاز ولاية تابعة للأمويين والعباسيين ومركزا لحركات المعارضة العلوية.

أما اليمن؛ فقد شهد تجزئة سياسية لتعاظم النزعات الطائفية المذهبية السنية - الشافعية - والشيعية الزيدية والإسماعيلية. وبقيام الخلافة الفاطمية فى المغرب وانتقالها إلى مصر؛ نجح الفاطميون فى مد نفوذهم إلى اليمن بقيام الدولة الصليحية التى انحازت إلى القاهرة فى صراعها مع بغداد. وعلى أنقاض الدولة الصليحية قامت دولة يمانية أخرى هى دولة «بنى نجاح».وبسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية، حكم الأخيرون اليمن بين عامى ٥٦٩ ، ٦٢٦ هـ. لكن قيام دولة «بنى رسول» أجهزت على النفوذ الأيوبى، وتمكن الرسوليون من الاستيلاء على صنعاء بعد صراع طويل مع الزيدية والإسماعيلية. وبسقوط الدولة الأيوبية؛ ورث المماليك نفوذها فى اليمن، إلا أنه كان نفوذا باهتا ومحدودا. إذ تمكن الزيدية من إقامة إمامة بسطت نفوذها على معظم أقاليم اليمن. كما قامت إمارة «بنى طاهر» التى ورثت المناطق التى سادها الرسوليون من قبل.

وفى عمان؛ توجت الثورات الإباضية الخارجية بتأسيس إمارة ظلت تدافع عن استقلالها؛ برغم ما توجه إليها من حملات عسكرية أموية ثم عباسية؛ قدر لها الفشل نظرا لعامل الحماية الجغرافية.

وتحت تأثير العامل الجغرافى؛ لعبت اليمن وعمان دورا مهما فى التجارة العالمية البحرية؛ لتحكم اليمن فى مدخل البحر الأحمر، وعمان فى مدخل الخليج العربى.

أثرت تلك الأحوال السياسية والاقتصادية فى الفكر التاريخى فى شبه الجزيرة؛ فاتسم بالطابع المحلى؛ وإن تأثر بذات معطيات الفكر التاريخى الإسلامى العام؛ موضوعا ومنهجا ورؤية وغاية.

ففى الحجاز؛ لم يظهر مؤرخون ذوو شأن إلا فى زمن متأخر يعود إلى أواسط القرن السابع الهجرى. وبرغم ما اتسم به فكرهم التاريخى من خصوصية نسبية تتمثل فى غلبة الطابع الدينى؛ إلا أنه لم يختلف كثيرا عن نظيره فى بقية أقاليم العالم الإسلامى منهجا ورؤية، لأن جل مؤرخى الحجاز كانوا وافدين ومهاجرين من أقاليم أخرى؛ استوطنوا مكة والمدينة لأسباب تتعلق بمكانتيهما الدينية.

وفى عمان؛ أسهم مؤرخوها الأباضية فى حركة الكتابة التاريخية، واتسم فكرهم بطابع محلى دينى مذهبى أيضا. لكن من أسف أن المصنفات التاريخية العمانية عن الفترة موضوع الدراسة - من منتصف القرن الخامس الهجرى إلى أوائل القرن العاشر الهجرى - مفقودة؛ نظرا لحرص الأباضية على «ستر» تراثهم من جهة، ولإحراق معظم هذه المصنفات نتيجة الصراعات الداخلية من جهة أخرى[1]. لذلك لن نستطيع التأريخ لإسهامات مؤرخى عمان فى مجال الكتابة التاريخية خلال هذه الفترة.

ومن ثم؛ نكتفى بدراسة الفكر التاريخى فى اليمن وفى الحجاز. فماذا عن اليمن؟

(أ) الفكر التاريخى فى اليمن:

سبق وعرضنا للفكر التاريخى اليمنى فى العصر السابق، ولاحظنا أن جل مؤرخى اليمن آنذاك لم يقيموا فى اليمن؛ بل كتبوا تاريخها من أماكن استيطانهم فى العراق والشام ومصر. وفى هذا العصر - الذى نؤرخ له - استمرت تلك الظاهرة؛ فى نطاق أقل وأضيق، إذ إن بعض مؤرخى اليمن عاشوا خارجها، كما أن بعضهم وفد إليها واستوطنها.

وعن معالم الكتابة التاريخية عند هؤلاء المؤرخين؛ نلاحظ الاهتمام بأجناس بعينها من التواريخ؛ مثل تاريخ اليمن قبل الإسلام وبعده، والأنساب والسير والمناقب، والمدن وأدب السياسة، فى حين أهملوا الكتابة فى «التاريخ العام» العالمى، وفى التاريخ الإسلامى بدرجة أقل. كما اتسمت

---

(١) أنظر: إبراهيم القادرى: العلاقات الثقافية بين عمان وبلاد المغرب، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، عدد ٧٠، ص ١٠، الكويت ٢٠٠٠.

ثقافة مؤرخى العصر بالاتساع نسبيا؛ إذ شهدت اليمن طوائف مذهبية دينية سياسية شيعية زيدية وإسماعيلية حافظت على الكثير من تراث العلوم الدنيوية التى حرمت وجرم الاشتغال بها فى سائر أقاليم «دار الإسلام». لذلك كانت الكتابة فى العقائد والنحل وطبقات رجالها خصيصة متفردة تميز بها مؤرخو اليمن.

نلاحظ أيضا اختصاص الكتابة التاريخية اليمانية بظاهرة اشتغال الأئمة والحكام بكتابة التاريخ؛ بصورة لا نظير لها فى العالم الإسلامى كله. هذا بالإضافة إلى كبار دعاة المذهب الشيعى الزيدى والإسماعيلى الذين صنفوا عن مذاهبهم وأعلامها بطريقة سجالية، نتيجة ارتباط المذاهب بالسياسة.

وكسائر مؤرخى المسلمين فى العالم الإسلامى؛ عول مؤرخو اليمن على المناهج التقليدية كالإسناد والترتيب الحولى للوقائع. كما اتسمت تعليلاتهم ورؤاهم بغلبة الطابع الدينى والخرافى. وكتبوا التاريخ لأغراض ومقاصد دنيوية غلبت عليها السياسة. واتسم أسلوب الكتابة التاريخية بشىء من التميز؛ نظرا لانتفاء «العجمة»؛ حيث كانت النظم الحاكمة نظما عربية قحة، على عكس بقية أقاليم دار الإسلام التى سادتها نظم أجنبية.

تلك نظرة عامة، سنحاول بسطها فى شىء من التفصيل والتوثيق.

بخصوص مؤرخى العصر؛ اشتغل الأئمة الزيدية وحكام دولة بنى رسول وأمراؤها بكتابة التاريخ، كذا دعاة المذهبين الزيدى والإسماعيلى. فمن الأئمة المؤرخين نذكر أسماء الإمام عبدالله المنصور الرسى (ت ٨٦٤ هـ)، وابن المرتضى (ت ٨٤٠ هـ)، والمتوكل على الله أحمد بن سليمان (ت ٥٥٦ هـ). ومن الأمراء الزيديين نذكر الأمير الحمزى (ت ٧١٤ هـ)[(١)].

أما عن الملوك المؤرخين؛ فمنهم ابن الطامى (ت ٤٩٨ هـ)، وهو ثانى ملوك بنى نجاح، وجياش بن نجاح (ت ٤٩٧ هـ) ملك زبيد[(٢)]. ومن ملوك بنى رسول؛ نقف على أسماء الملك الأشرف عمر الرسولى (ت ٦٩٦ هـ)، والأفضل عباس بن المجاهد (ت ٧٦٤ هـ)، وابن الأشرف إسماعيل (ت ٨٠٣ هـ)[(٣)].

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٥٤، ٩، ٣٤٦.
(٢) نفسه، ص ٢٣٠، ٢٤٣.
(٣) نفسه، ص ٢٣٠، جـ٤، ص ٣٦٠.

كما صنف الأمير بن الأيوبى بدر الدين بن حاتم (ت أواخر القرن السابع الهجرى) كتبا فى التاريخ؛ سنعرض لها فى حينها[١].

أما عن مؤرخى الإسماعيلية من الدعاة؛ فمنهم البريهى (ت ٥٨٦ هـ)، والحامدى (ت ٥٥٧ هـ) وعلى بن محمد بن الوليد (ت ٦١٢ هـ) والداعية عماد الدين (ت ٧٨٢ هـ)[٢].

ومن المؤرخين الصليحيين الذين اشتغلوا بالكتابة فى الدواوين؛ نذكر ابن القيم (ت ٤٨٢ هـ)[٣].

وبخصوص المؤرخين المحدثين والفقهاء؛ فمنهم من كان على المذهب الزيدى؛ مثل الحاكم الحبشى (ت ٤٩٤ هـ) وكان فقيها ومتكلما. ومنهم من كان شافعى المذهب؛ مثل ابن أبى الفضائل (ت ٤٧٠ هـ)، والجعدى (ت ٥٨٦ هـ)، وابن أبى الصيف (ت ٦٠٩ هـ)، والأهدل (ت ٨٥٥ هـ)[٤].

واشتغل بعض مؤرخى العصر بالسياسة؛ مثل نشوان بن سعيد الحميرى (ت ٥٧٣ هـ)، والتجارة مثل نجم الدين الحكى (ت ٥٦٩ هـ)، وصنف بعض الشعراء، مثل ابن خرطاس (ت ٥٥٤ هـ) أراجيز شعرية عن تاريخ العرب قبل الإسلام[٥].

أما عن ثقافة مؤرخى اليمن؛ فنلاحظ أنها كانت أرحب وأشمل من ثقافة نظرائهم فى العالم الإسلامى؛ نظرا لتضمنها العلوم الدنيوية كالطب والفلك والحكمة والمنطق والكلام - وهى علوم حرمت فى سائر الأقاليم - إلى جانب العلوم الدينية وعلوم اللغة والأدب والشعر. كما هاجر الكثيرون من أرباب هذه العلوم من أوطانهم - خصوصا المعتزلة - واستوطنوا اليمن لتطرفه جغرافيا هربا من الاضطهاد. لذلك نخالف من حكم بضحالة وضآلة ثقافة مؤرخى اليمن فى ذلك العصر[٦]. كما وفدت إلى اليمن عناصر أخرى من البورجوازية التجارية بفكرها العقلانى وأسهمت فى

---

(١) نفسه، ص ٣٥٩.
(٢) نفسه، جـ٤، ص ٣٥٠، ٣٥٣، ٢٥٢.
(٣) نفسه، جـ٢، ص ٣٣٣ .
(٤) نفسه ، جـ ٢، ص ٣٣٣ ، ٣٤٣، جـ ٤ ، ص ٢٤٩ .
(٥) نفسه، جـ ٢ ، ص ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨ .
(٦) أنظر: شاكر مصطفى: المرجع السابق ، جـ٢، ص ٣٢٤ .

الحركة الثقافية التى احتضنها بعض الأئمة والملوك المستنيرين. وإذا علمنا أن العناصر الاعتزالية والزيدية والإسماعيلية هى التى أسهمت بالدور الريادى فى نهضة العلوم والآداب فى الإسلام، وأن بلاد اليمن صارت موئلا ومستقرا لهذه العناصر؛ أدركنا أسباب اتساع دائرة ثقافة مؤرخيه.

وباستعراض بعض أسماء هؤلاء المؤرخين ونوعية ثقافاتهم؛ نقف على تلك الحقيقة فى قطع ووضوح. فأئمة اليمن من الزيدية تعمقوا دراسة الفقه والفرائض والمواريث وعلم الكلام، ونظم بعضهم شعرا غاية فى العذوبة والبلاغة. وينسحب الحكم نفسه على ملوك بنى رسول الذين أحاط بعضهم بثقافة عريضة وعميقة فى علوم الطب والفلك والأنساب إلى جانب العلوم الدينية واللغوية[1]. وخير مثال على ذلك يتمثل فى شخص الملك الرسولى يوسف بن عمر الذى أجاد الطب والفلك والهندسة والمنطق وصنف فيها جميعا[2].

لذلك؛ نعتقد باتساع دائرة معارف معظم مؤرخى العصر، وهو أمر انعكس على كتاباتهم فى التاريخ.

فماذا عن أصناف وأجناس الكتابات التاريخية؟

بديهى ألا يتوجه الاهتمام بكتابه «تواريخ عالمية»؛ نظرا للعزلة من ناحية، وتلاحق الأحداث الكبرى والتغييرات العديدة فى خريطة اليمن السياسية من ناحية أخرى. لذلك لا نقف إلا على كتاب واحد؛ وهو ذيل لتاريخ الطبرى، لابن فضل الله الهمدانى[3].

كما تضاءل الاهتمام بـ«التاريخ الإسلامى العام»؛ للأسباب ذاتها؛ فلم نقف إلا على كتابين فى هذا المجال؛ أولهما «قراءة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان» لليافعى (ت ٧٨٦ هـ)، و«العسجد المسبوك والجوهر المحبوك فى أخبار الخلفاء والملوك» للملك الأشرف الرسولى[4].

---

(١) الخزرجى: العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية و جـ١، ص ١٨٨ وما بعدها. القاهرة ، ١٩٢٤

(٢) من مؤلفاته فى هذا الصدد: «البيان فى كشف علم الطب للعيان»: «تيسير المطالب فى تسيير الكوكب»، «المخترع فى فنون من الصنع»، فضلا عن رسائل فى الفقه أشار إليها وأشاد بها مؤرخو عصره. أنظر ابن الفرات: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٢٠٢، بيروت ، ١٩٣٨

(٣) شاكر مصطفى: المرجع الساق، جـ٢، ٣٥٣

(٤) نفسه، جـ ٤، ص ٢٤٣، ، ٢٤٦

كما جرت الكتابة عن «تواريخ الدول الإسلامية»؛ مثال ذلك كتب «السمط الغالى فى أخبار الملوك من الغز باليمن» لليامى (ت بعد سنة ٧٠٢ هـ)، و«عيون الأخبار» للداعى عماد الدين؛ أرخ فيه للدولة الفاطمية [١]، و«أخبار القرامطة» للجندى.

وقد كتب الكثير عن «تاريخ اليمن»؛ بما يؤكد النزعة المحلية. فتحت هذا العنوان كتب مسلم الشطبى (ت ٥٤٥ هـ) وابن فضيل الهمدانى[٢] (ت ٦٠٩ هـ). كما صنف الملك الأفضل الرسولى كتاب «العطايا السنية والمواهب الإلهية فى المناقب اليمنية»، وألف الخزرجى (ت ٨١٢ هـ) «العسجد المسبوك والجوهر المحبوك فيمن ولى اليمن من الملوك»، وكتب البريهى (ت ٨٨٦ هـ) «قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون»[٣].

وكتب مؤرخو اليمن عن «الأسرات الحاكمة»؛ كما هو حال الملك الأشرف الرسولى صاحب «العقد الثمين فى أسماء ملوك اليمن المتأخرين»[٤].

وحظيت مدن اليمن بالمزيد من الاهتمام؛ خصوصا مدينتى صنعاء وزبيد؛ باعتبارهما حاضرتين للأسرات الحاكمة. صنف الرازى (ت ٤٦٠ هـ) «تاريخ صنعاء»[٥]، وألف الحكى (ت ٥٦٩ هـ) «المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد»، وكتب نشوان بن سعيد الحميرى (ت ٥٧٣ هـ) «أحكام صنعاء وزبيد». وصنف الطامى (ت ٤٩٨ هـ) «المفيد فى أخبار زبيد». وابن الديبع (ت ٨٨٦ هـ) «بيع المستفيد فى أخبار مدينة زبيد» و«أحسن السلوك فى نظم من ولى زبيد من الملوك». أما باخرمة (ت ٩٤٧ هـ) فقد كتب «تاريخ عدن»، كما صنف الأسدى (ت ٥٦١ هـ) «الجواهر الحسان فى تاريخ صبيا وجيزان»[٦].

وراجت الكتابة فى «السير والمناقب»؛ فكتب الداعى عماد الدين

---

(١) نفسه، ص ٢٥٢، ٢٤٠.
(٢) نفسه، جـ٢، ص ٣٤٤، ٣٥٣.
(٣) نفسه، جـ٢ ص ٢٤٥، جـ ٤ ص ٢٤٧، ٢٥٤.
(٤) نفسه، ص ٢٤٠.
(٥) نفسه، ص ٣٤٦.
(٦) نفسه، جـ٢، ص ٣٣٤، ٢٥٤، ٢٥٨، ٣٤٦.

«السيرة النبوية»، كذلك الزحيف الصعيدى (ت ٩١٦ هـ) تحت العنوان ذاته، فضلا عن كتاب «محاسن الأزهار فى مناقب العترة الأطهار».

وألف الخمرى «كنز الأخبار فى معرفة السير والأخبار» و«السول فى مناقب فاطمة الزهراء البتول»(١).

ونظرا لكون أئمة اليمن من الشيعة الزيدية؛ انبرى مؤرخو العصر يدونون سيرهم ويبرزون مناقبهم ومآثرهم. كتب المحلى «الحدائق الوردية فى مناقب الأئمة الزيدية». و«نزهة الأزهار فى ذكر أئمة الزيدية الأطهار»(٢).

ولأن كل حكام اليمن ـ أئمة وملوكا ـ كانوا من العرب؛ جرى الاهتمام بالنسب العربى؛ فصنف الأشعرى اليمنى (ت ٦٠٠ هـ) «كتاب التعريف بالأنساب»، وكتب الملك الأشرف «تحفة الآداب فى التواريخ والأنساب» و«طرفة الأحباب فى معرفة الأنساب» و«تحفة الآداب فى التواريخ والأنساب»؛ كما ألف اليافعى (ت ٧٨٦ هـ) «نشر المحاسن اليمانية فى خصائص اليمن ونسب القحطانية»(٣).

كما كتب الكثير فى «الإمامة» و«أدب السياسة»؛ باعتبار الإمامة من أصول الدين عند الشيعة. لذلك كتب الإمام عبدالله الرسى «العقد الثمين فى أحكام الأئمة الهادين»، وألف الحاكم الحبشى «كتاب الإمامة على مذهب الزيدية»، والقلعى (ت ٦٣٠ هـ) «تهذيب الرياسة فى ترتيب السياسة»(٤). وألف المحلى «نصيحة الولاة الهادية إلى النجاة»، وصنف الزحيف الصعيدى مؤلفا يحمل العنوان ذاته(٥).

ونظرا لاحتدام النزاع بين الحكومات القائمة؛ غلب الطابع المذهبى السجالى فيما صنفه المؤرخون عن الطوائف والفرق والنحل. ومن مصنفات المؤرخين السنة فى هذا الصدد؛ ما كتبه الأهدل (ت ٨٥٥ هـ)، بعنوان «كشف الغطاء عن عقائد الموحدين وذكر أعيان الأئمة الأشعريين». وتحامل ابن أبى الفضائل (ت ٤٧٠ هـ) على الإسماعيلية فى مصنفه «كشف أسرار الباطنية وعقائدهم وتاريخهم»(٦).

---

(١) نفسه، جـ٢، ص ٢٥٢ جـ٤، ص ٢٣٧، ٢٤٠.
(٢) نفسه، جـ٤، ص ٣٥٦.
(٣) نفسه، جـ٢، ص ٣٥١، ٣٦٠، جـ٤، ص ٢٣٩، ٢٤٣.
(٤) نفسه، جـ٢، ص ٣٥٤، ٣٤٣
(٥) نفسه، جـ٢، ص ٣٥٦، جـ٤، ص ٢٣٧.
(٦) نفسه، جـ٢، ص ٣٤٢، جـ٤، ص ٢٤٩.

كما صنف مؤرخو الإسماعيلية كتبا فى عقائد مذهبهم ودفع حجج خصومهم؛ منها «تحفة القلوب وفرجة الكروب» للحامدى، و«دامغ الباطل وحتف المناضل» لعلى بن الوليد؛ ردا على كتاب الغزالى «فضائح الباطنية»؛ مفندا أحكامه فى منطق عقلانى وبحجج برهانية وتاريخية(١).

وفى المجال نفسه؛ كتب المؤرخون الزيدية عن عقائد مذهبهم وأعلام أئمتهم ومناقب سيرهم؛ فألف مسلم اللحجى عن «عقائد الزيدية المطرفية» وهى إحدى فرق الزيدية فى اليمن وضمنها كتابه «تاريخ مسلم اللحجى»(٢).

كما ألفت مصنفات تعرض للفرق والمذاهب بوجه عام؛ كما هو حال كتاب «الحور العين» لنشوان الحميرى الذى حوى معلومات ضافية عن الزيدية والإسماعيلية والخوارج. كما صنف الأفضل الرسولى «نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون»، وكتب ابن المرتضى فى الموضوع نفسه «البحر الزاخر الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار». و«المنية والأمل فى شرح الملل والنحل»(٣).

ونظرا لانتشار التصوف وغلبة النزعة الدينية عند مؤرخى العصر؛ صنفوا عن الصوفية وأوليائهم وكراماتهم وأنماط حياتهم. وفى هذا الصدد كتب على حميد (ت ٦١٤ هـ)، «شمس الأخبار وطبقات الراغبين»، وألف اليافعى (ت ٧٨٦ هـ) «روض الرياحين فى حكايات الصالحين»، فضلا عن كتاب آخر فى مناقب المتصوفة ومناقبهم(٤).

وفى مجال الحرف والصناعات؛ صنف الملك المظفر عمر بن رسول كتاب «المخترع فى فنون من الصنع»، عرض فيه للصناعات القائمة فى اليمن وطرائق صنعها؛ بما يشى بتفرده وتميزه فى هذا المجال(٥).

---

(١) أنظر: على بن الوليد: دامغ الباطل وحتف المناضل، جـ١، ص ٥٨، ٥٩ كمثال، جـ٢، ص ٢١٠، ٢١٧، كمثال، القاهرة ١٩٨٢.

(٢) أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الفقهية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى، ص ٣٦، القاهرة ١٩٨٨.

(٣) نفسه، ص ٣٨.

(٤) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٢٤٣.

(٥) أنظر: عمر بن رسول: المخترع فى فنون من الصنع، ص ٦٤ وما بعدها، الكويت ١٩٨٩.

ومن شعراء العصر المهتمين بالتاريخ من صنف أراجيز شعرية تتعلق بتاريخ اليمن قبل الإسلام؛ كما هو الحال بالنسبة لنشوان الحميرى وغيره[1].

أما عن الكتابة فى «التراجم والطبقات»؛ فقد اهتم مؤرخو العصر بتراجم أعلام المذاهب السياسية الدينية، واختص كل مؤرخ بالكتابة عن مشاهير مذهبه هو دون المذاهب الأخرى.

وإذ تحول المذهب الشافعى إلى إديولوجية سياسية؛ فقد اهتم مؤرخوه بطبقات الشافعية. وفى هذا المجال صنف أبو سمرة الجعدى (ت بعد عام ٥٨٦ هـ) «طبقات فقهاء الدين»؛ أى الشافعية. ويشى العنوان باعتباره الشافعية دون سواهم مسلمين. واهتم فى هذا الكتاب بالحديث عن مناقب الإمام الشافعى، وكيف وصل مذهبه إلى اليمن. كما عرض لفقهاء المذهب فى عصره والعصور السابقة[2]. وعلى غراره نسج مؤرخو الشافعية فى تراجمهم تقديرا لقيمة مؤلفه[3]؛ فصنف الجندى كتاب «السلوك فى طبقات العلماء والملوك»؛ اهتم فيه بتحديد مناطق انتشار المذهب الشافعى فى بلاد اليمن[4].

كما ترجم مؤرخو الزيدية لأعلام مذهبهم؛ كما هو حال المحلى فى كتابه «نزهة الأنظار»[5]. كما صنف غيره تراجم عامة تشمل الأعلام فى سائر المذاهب، فضلا عن الأدباء والشعراء. وفى هذا الصدد كتب ابن فضيل الهمدانى (ت ٦٠٩ هـ) «تاريخ من قدم اليمن من العلماء والوزراء والشعراء وسواهم»[6].

تلك هى أجناس الكتابات التاريخية اليمانية؛ فماذا عن مناهج المؤرخين ورؤاهم ومقاصدهم؟

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢ ص ٣٤٨.

(٢) أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص ٢٠.

(٣) ابن الربيع: قرة العيون فى أخبار الميمون، ص ١٧، القاهرة د. ت.

(٤) أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص ٢١.

(٥) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٢٥٨.

(٦) نفسه، جـ٢، ص ٣٥٢.

بخصوص المرجعية؛ جرى الاعتماد على الوثائق؛ نظرا لكون الكثيرين من مؤرخى العصر من الأئمة والملوك وكتاب الدواوين؛ حتى إن بعض المؤرخين اهتموا بجمع هذه الوثائق فى كتب ورسائل. مثال ذلك؛ ما أقدم عليه ابن القيم (ت ٤٨٢ هـ) من جمع الرسائل المتبادلة بين الصليحيين والفاطميين فى كتاب بعنوان «مجموعة رسائل»(١). كما دون المؤرخون ما عاينوا وشاهدوا من أحداث اشترك بعضهم فيها؛ كالمعارك التى خاضها الحكام المتصارعون. أما ما كتب عن العصور السابقة؛ فجرى التعويل فيها على النقل من كتب يمانية ـ فى الغالب الأعم ـ كتبها مؤرخون سابقون(٢). وحرص مؤرخو كل طائفة على النقل من نظرائهم فى المذهب دون سواهم، وكثيرا ما تغاضوا عن ذكر المصدر؛ كما هو حال عمارة اليمنى حين ألف كتابه «المفيد فى تاريخ صنعاء وزبيد»؛ حيث نقل عن جياش بن نجاح فى كتابه «المفيد فى تاريخ زبيد» دون أن يشير إليه(٣). ويقال ذلك أيضا عن المرتضى فى كتابه «المنية والأمل»؛ حين نقل عن كتب المعتزلة الأوائل(٤). كما نقل الداعى إدريس القرشى (ت ٨٧٢ هـ) الإسماعيلى عن مصادر إسماعيلية سابقة دون سواها(٥).

صنف مؤرخو اليمن الأحداث والوقائع حسب النظام الحولى فى الغالب الأعم، كما لم يهتموا بالإسناد، كما سبق الذكر(٦). واتسمت عروضهم بالوصف والسرد والحكى أحيانا(٧)؛ كذا بالجدل السجالى، والاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية والشعر(٨).

وغلبت الرؤية الدينية على تعليل الأحداث وتفسيرها، كما جرى الربط بين الوقائع وبين حركات النجوم. لذلك غصت المدونات التاريخية بالخرافات والأساطير(٩).

---

(١) نفسه، ص ٢٤٢.

(٢) أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص ٢٠.

(٣) نفسه، ص ٢٨.

(٤) نفسه، ص ٣٨.

(٥) بوبه مجانى: النظم الإدارية فى بلاد المغرب خلال العصر الفاطمى، رسالة دكتوراة مخطوطة، ص ب من المقدمة، قسنطينة ١٩٩٥.

(٦) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٧) عمر بن رسول: المصدر السابق، ص ٥٩؛ كمثال.

(٨) نفسه، ص ٥٩، كمثال.

(٩) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ١١١.

أما عن المقاصد والغايات المستهدفة من كتابة التاريخ؛ فقد اكتسى الهدف السياسى أولوية فى هذا الصدد؛ إذ توخى المؤرخون «المتأدلجون» جمع شمل أتباع المذهب ودحض مواقف الخصوم؛ بما يفت من المصداقية(١).

وإن تذرع بعض المؤرخين بالغرض المعرفى التعليمى وأثبتوه فى مقدمة كتبهم. يقول أبو سمرة الجعدى فى هذا الصدد؛ إن غايته هى «أن يعرف كل فقير يمنى حال اليمن منذ رسول الله (ص) ودرجة اتصال الفقه إلى وقتنا هذا»(٢).

أما عن أسلوب الكتابة؛ فقد مال إلى السجع؛ لكنه غير متكلف فى الغالب الأعم، وندرت الأخطاء اللغوية والنحوية؛ نظرا لما اشتهر به اليمنيون من الحفاظ على اللغة العربية والاهتمام بها؛ كمقوم أساسى فى ثقافة المؤرخ. كذا لأن بلاد اليمن لم تشهد حكومات ذات أصول غير عربية؛ كما هو حال الأقاليم الأخرى فى العالم الإسلامى.

خلاصةالقول؛ إن المؤرخين اليمنيين اشتركوا مع نظرائهم فى بقية أقاليم العالم الإسلامى فى الملامح والخصائص العامة للفكر التاريخى فى هذا العصر؛ وإن اتضحت سمات يمنية محلية خاصة فيما يتعلق بطبيعة الموضوعات والمقاصد والغايات؛ نتيجة خصوصية التاريخ اليمنى فى هذا العصر.

ولمزيد من الكشف عن هذه الخصائص؛ نعرض لأحد مؤرخى اليمن بدراسة معمقة. ومؤرخنا المختار هو عماد الدين إدريس بن على بن عبدالله الحمزى (ت ٧١٤ هـ)، وكتابه المنتقى هو «كنز الأخيار فى معرفة السير والأخبار».

ينتمى عماد الدين إلى الأسرة الحسينية التى لعبت دورا سياسيا مهما فى اليمن خلال عصرى الأيوبيين وبنى رسول. فوجد من أفرادها من كان يهادنهم، وتصدى آخرون لمعارضتهم. فقد انحاز والده إلى بنى رسول، وهادنهم عماد الدين أيضا وآزرهم فى حروبهم؛ حتى أصبح من أشهر قوادهم؛ برغم زيديته واعتناقهم المذهب السنى.

(١) روزنتال: المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(٢) أبو سمرة الجعدى: طبقات فقهاء اليمن، ص ٤٢، القاهرة ١٩٥٧.

اشترك فى الحروب رفقة والده مذ كان فتى فى مقتبل عمره، وتولى القيادة حين بلغ سن العشرين. أغدق عليه بنو رسول المال والأرض فتعاظمت مكانته حتى ترأس قومه، فاشتد جاهه وتعاظم نفوذه[١].

ولم يحل ذلك دون شغفه بالعلم؛ إذ تتلمذ على كبار فقهاء الزيدية[٢]. فدرس علوم عصره الدينية، وشغف بالأدب وقرض الشعر. كما اهتم بالتاريخ وألف فيه، وصنف فى أصناف معرفية أخرى[٣]. ويعد كتابه الذى نحن بصدده من خيرة تواريخه.

والكتاب خاص بتاريخ اليمن؛ إذ يؤرخ لأحداثها منذ البعثة النبوية حتى سنة ٦٤٧ هـ. أما الأحداث التى عاصرها؛ فكان شاهد عيان لها، وهى تتعلق بالفترة ما بين عامى ٦٧٩، ٧١٤ هـ.

وإذ يعرض الكتاب للأحداث السياسية والوقائع الحربية فى اليمن. فقد تضمن أيضا معلومات فى الجغرافيا والعمران، فضلا عن أخرى موجزة عن القوى الخارجية ذات الصلة بأحداث اليمن؛ مثل مصر والحجاز.

وباستعراض الكتاب؛ نقف على معلومات مهمة عن الصراعات بين السنة والشيعة، كذا بين الزيدية والإسماعيلية[٤]. كما عرض المؤلف لسيرته الذاتية والتحاقه بخدمة بنى رسول ونصرتهم ضد خصومهم[٥]. ويحوى معلومات عن الأحوال الاقتصادية، معظمها يتعلق بسنوات القحط وغلاء الأسعار[٦]، ونظام الإقطاع وغيرها[٧].

أما عن منهج المؤلف ورؤيته؛ فقد استند إلى مرجعية تعتمد النقل عن مؤرخين سابقين؛ فيما يتعلق بالأحداث السابقة على عصره. إذ نقل من

---

(١) عماد الدين إدريسى الحمزى: كنز الأخيار فى معرفة السير والأخبار، ص ٩ من مقدمة المحقق، الكويت ١٩٩٢.

(٢) ابن حجر: الدر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة؛ جـ١، ص ٣٤٦، حيدر أباد ١٩٢٩.

(٣) الخزرجى: العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، ص ٣٢٦، القاهرة ١٩١٤.

(٤) كنز الأخيار، ص ٧٥.

(٥) نفسه، ص ١٢٦، ١٢٧.

(٦) نفسه، ص ١٣.

(٧) نفسه، ص ١٣٨ وما بعدها.

الهمداني والرازى والحمادى اليماني وغيرهم من مؤرخى اليمن السابقين، كما اعتمد على اليعقوبى والسيوطى وابن الأثير والمسعودى[١].

وإن كان ينفى ذلك معلنا أن جل معلوماته من لدنه. يقول: «وقد اجتهدنا فى الاحتراز فى النقل، وأكثر الكتب التى نقلنا منها من أعمالنا»؛ وهو قول مبهم يحمل معنيين متضاربين؛ إذ ينفى النقل ويعترف به فى آن.

وبخصوص ترتيب الأحداث؛ فقد سلسلها وفق النظام الحولى؛ وإن تجاوزه باستطرادات تخل بالسياق[٢].

أما عن موضوعيته؛ فمشكوك فيها؛ إذ بالغ فى ذكر فضائل بنى رسول، كما اشتط فى ذكر مآثر أسرته، وبرر موقفها المتذبذب «بمناصرة الحق»[٣]. وحال تشيعه الزيدى دون حياده؛ فقد بجل على بن أبى طالب وأردف ذكر اسمه بعبارة «صلوات الله عليه»[٤]، وندد بخلفاء بنى أمية[٥]. كما تعصب لمذهبه الزيدى، ونعت كل إمام من أئمتهم بصفة «عليه السلام»[٦].

ووصف أعلام الزيدية بأنهم «القائمون بأمر الله»[٧]، بينما نعت أعلام الإسماعيلية «بالخبث واللعنة»[٨]. برغم ذلك التزم الموضوعية؛ حين اعترف بهزائمه فى بعض المعارك[٩]، واعترف بإقطاع الملك الرسولى له إحدى الضياع[١٠].

أما عن مذهبه فى التعليل والتأويل؛ فهو جد متنوع؛ إذ يفسر بعض الأحداث تفسيرا اقتصاديا، فقد علل المجاعات والأوبئة بارتفاع أسعار السلع والبضائع، كما أرجع تدهور العمران إلى الكوارث الطبيعية وتداعياتها[١١]. وفى أحيان أخرى يعول على التفسيرالأخلاقى [١٢]، وفى ثالثة يقدم تفسيرات خرافية تربط بين حركة الكواكب والنجوم وبين مصائر البشر[١٣].

---

(١) نفسه، مقدمة المحقق، ص ١٧.
(٢) كنز الأخيار، ص ٤٧، ٤٨ من النص.
(٣) نفسه، ص ١٦ من مقدمة المحقق.
(٤) نفسه، ص ٢٩ من النص.
(٥) نفسه، ص ٥٢.
(٦) نفسه، ص ٦٤.
(٧) نفسه، ص ٦٥.
(٨) نفسه، ص ٦١.
(٩) نفسه، ص ١٣٧.
(١٠) نفسه، ص ١٣٨،
(١١) نفسه، ص ٧١.
(١٢) نفسه، ص ٥٧.
(١٣) نفسه، ص ٣٦، ٥٥، ٦٨، ٦٩.

وطغت الرؤية الدينية على تفسيراته فى معظم الأحيان؛ إذ يفسر الكوارث والأعوام الشداد والجوائح بأنها «انتقام إلهى» من البشر(١).

أما عن عرض الأحداث؛ فهو جد مضطرب، تختلط فيه الموضوعات ويختل السياق(٢). ويستشهد بالقرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الأئمة الزيدية والشعر؛ كحجج على مصداقية منحاه(٣).

يميل إلى السجع أحيانا فى صنعة وتكلف، ويفتقر إلى الوضوح فى صياغة المعانى والفكر.

خلاصة القول؛ إن الكتاب فى مجمله أنموذج دال على سلبيات الكتابة التاريخية الكثيرة، وإيجابياتها المحدودة فى بلاد اليمن فى عصر الإقطاعية العسكرية؛ بحيث لم تخرج عن خصائص الفكر التاريخى فى العالم الإسلامى آنذلك.

(ب) الفكر التاريخى فى الحجاز:

سبق وأوضحنا فقدان مدن الحجاز دورها السياسى الموجه فى العالم الإسلامى على إثر انتقال الخلافة من الراشدين إلى الأمويين ومن بعدهم العباسيون، إذ ورثت دمشق وبغداد دور المدينة كحاضرة لدار الإسلام. وما يعنينا أن بلاد الحجاز أصبحت مرتعا لحركات المعارضة ضد بنى أمية وبنى العباس؛ ومعظمها قام بها العلويون وأخفقوا لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها؛ اللهم إلا عجز الحجاز بمقوماته الاقتصادية و«الجغرا ـ سياسية» عن مواجهة الشام أو العراق. ومع ذلك حافظ الحجاز على مكانته الروحية الكامنة فى قدسية مكة والمدينة؛ فلم يتأثر الحجيج إليهما بما آل إليه الإقليم من تدهور سياسى.

على أن تلك المكانة الروحية ازدادت وتعاظمت على إثر ابتلاء العالم الإسلامى بأخطار الصليبيين والمغول، وتدهور أوضاعه من جراء سيطرة نظم إقطاعية عسكرية طاغية لم تدخر وسعا فى قمع الثورات الاجتماعية واضطهاد أهل العلم والأدب. لذلك حل اليأس فى نفوس العلماء، وزهد

---

(١) نفسه، ص ٤١؛ كمثال.

(٢) نفسه، ص ٤٧، ٤٨؛ كمثال.

(٣) نفسه، ص ٢٥؛ كمثال.

بعضهم فى الحياة ومال إلى التصوف، وأقبلوا على العبادة والنسك طريقا إلى الخلاص.

ولعل ذلك يفسر لماذا هجر الكثيرون أوطانهم واستقروا فى مكة والمدينة وعاشوا فيهما «مجاورين» متنسكين. وإن واصل بعضهم جهوده فى الاشتغال بالعلم تحصيلا وتدريسا وتأليفا.

بديهى أن يكون بين هؤلاء المجاورين مشتغلون بالتاريخ، وبديهى أن يسهموا فى إحياء هذا العلم الذى كان مزدهرا فى صدر الإسلام ثم انتكس؛ حتى إن بلاد الحجاز لم تقدم مؤرخا واحدا ذا شأن خلال القرون المنصرمة.

شهدت مدن الحجاز يقظة فى حقل الكتابة التاريخية بفضل هؤلاء المؤرخين القادمين من المشرق والمغرب. على أن جهودهم لم تسفر عن أدنى إبداع فى مجالات العلم موضوعا ومنهجا ورؤية؛ فكانوا لذلك نقلة مقلدين، بل تدهور العلم على أيديهم نظرا لغلبة النزعة الدينية على تواليفهم بصورة أكثر من نظرائهم فى الأقاليم الأخرى؛ فانتفت الكتابة فى كثير من الموضوعات ذات الصبغة الدنيوية. وأمعن المؤرخون فى إحياء مناهج المحدثين فى صرامة وتعصب، ولونت رؤاهم بالغيبية حينا والخرافة أحيانا. وابتسرت مقاصدهم فى التعريف بالأماكن المقدسة والحض التعليمى على أداء المناسك(١)، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ونظرة على مؤرخى العصر وثقافاتهم قمينة بإثبات ما ذهبنا إليه(٢).

وأول ما نلاحظه أن جل هؤلاء المؤرخين كانوا وافدين أقاموا بالحجاز، وأن الكثيرين منهم كانوا أصحاب رحلة. جالوا فى الكثير من الأمصار قبل إقامتهم بالديار المقدسة، وأن ثقافتهم كانت دينية قحة، فالقسطلانى (ت ٦٨٦ هـ) عرف بتعمقه فى الفقه والحديث إلى جانب التاريخ، وكان له

---

(١) روزنتال: المرجع السابق، ص ٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) نشير إلى أننا سنعتمد أساسا على ما قدمه المرحوم الدكتور شاكر مصطفى من قوائم بأسماء المؤرخين ومؤلفاتهم، ونتعامل معها كمادة أولية نعمل فيه النظر بهدف تحويلها من مجرد تراجم إلى موضوعات وأفكار تعبر عن الفكر التاريخى، موضوعا ومنهجا ورؤية ومقصدا.

كما سنعول على المنهج السميوطيقى فى قراءة عناوين المؤلفات بهدف استخلاص الدلالات؛ نظرا لفقدان غالبيتها.

رحلة إلى مصر والشام والعراق. والمحب الطبرى (ت ٦٩٤ هـ) كان محدثا، تولى مشيخة الحرم المكى، وله رحلة إلى اليمن. والفيروز ابادى (ت ٨١٧ هـ) تبحر فى علوم الدين واللغة، وله رحلة إلى الشام ومصر والعراق وإيران، والتقى الفاسى (ت ٨٣٢ هـ) وهو مغربى وافد، له رحلة أيضا إلى مصر واليمن. والعبدرى (ت ٨٣٨ هـ) مغربى أيضا، له رحلة إلى إيران والعراق والشام، وتولى قضاء مكة. أما السمهودى (ت ٩١١ هـ) فأصله من مصر، والديار بكرى (ت ٩٩٠ هـ) من ديار بكر اشتغل بتدريس الفقه وتولى القضاء، بينما كان النهروالى (ت ٩٩٠ هـ) مفتيا فى مكة(١).

ويشى هذا العرض بغلبة الثقافة الدينية والصوفية على مؤرخى العصر، كما يكشف عن اشتغال معظمهم بوظائف دينية أيضا كالقضاء والإفتاء والتدريس، وسيكون لذلك تأثيره فى صياغة نظرتهم إلى التاريخ.

كما تكشف مؤلفاتهم عن اختزال مفهوم التاريخ ومناهج كتابته وتفسيره؛ فضلا عن تقليص موضوعاته.

إذ انصب الاهتمام على التأريخ للحرمين الشريفين بغية التعريف بهما، كذا على مدن الحجاز؛ خصوصا مكة والمدينة وجدة والطائف. مثال ذلك ما كتبه الفيروز ابادى عن «أحاسن اللطائف فى محاسن الطائف» و«تهييج الغرام إلى البلد الحرام». كما ألف التقى الفاسى «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» و«العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين». أما العبدرى فقد صنف «تاريخ مكة». وألف ابن فهد عن «مكة وخصائصها». وصنف السمهودى «خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى». بينما كتب الديار بكرى رسالة عن «الكعبة والمسجد الحرام»، والنهروالى عن «تاريخ مكة المشرفة» والقسطلانى عن الموضوع ذاته فى كتابه «خبر القرى فى زيارة أم القرى»(٢).

كما اهتم مؤرخو العصر بسيرة الرسول (ص) وأزواجه وأصحابه؛ فكتبوا فى مناقبهم ومآثرهم. صنف ابن فهد فى هذا الصدد «سيرة الرسول (ص)»، كما كتب الديار بكرى عن سيرة النبى والكعبة وتاريخ الراشدين فى مؤلفه «الخميس فى أحوال أنفس نفيس»، وألف

(١) أنظر: شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٤٠٠ ـ ٤١٤.

(٢) نفس المرجع والصفحات.

القسطلانى «الرياض النضرة فى مناقب العشرة»، و«ذخائر الوقت فى مناقب ذوى القربى» و«السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين»(١).

وبديهى أن يتناول المؤرخون قصص الأنبياء وأنساب قريش؛ فصنف ابن فهد «قصص الأنبياء» و«مفاخر قريش»، وكتب الفيروز ابادى عن «الأكراد والجراكسة»؛ نظرا للصلات الوثيقة بين الحجاز وبين الأيوبيين، ومن بعدهم المماليك فى مصر.

ونظرا لانتشار التصوف؛ إهتم المؤرخون - خصوصا المتصوفة - بالكتابة فى طبقات الصوفية وكراماتهم ونمط حياتهم. وللقسطلانى كتاب طريف بعنوان «تحريم المعيشة فى تحريم الحشيشة»؛ نتيجة تعاطيه من قبل الدراويش فى هذا العصر.

كما كتب المؤرخون عن طبقات الفقهاء والمحدثين والمذاهب الفقهية والقضاة؛ كما هو شأن الفيروزابادى(٢).

وبخصوص المنهج؛ جرى إحياء منهج المحدثين فى «الجرح والتعديل»؛ وان اقتصر على التحقق من الإسناد.

وعول المؤرخون فى مرجعيتهم على شهادة العيان والسماع؛ فضلا عن النقل من مؤلفات السابقين.

كما سادت الرؤية الدينية فى التعليل والتأويل، وتحددت المقاصد فى الوعظ والإرشاد والتعليم والتعريف بالأماكن المقدسة، واستجاشة مسلمى العالم الإسلامى لأداء مناسك الحج.

ولسوف نقف على المزيد من خصائص الكتابة التاريخية من خلال دراسة معمقة لمؤرخ حجازى هو جار الله محمد بن فهد (ت ٩٥٤ هـ) وكتابه «رسالة فى فضل جدة وشىء من أخبارها».

مؤلف الرسالة هو جار الله محمد بن عبدالعزيز بن محمد بن محمد بن فهد؛ ولد بمكة عام ٨٩١ هـ، وتوفى بها عام ٩٥٤ هـ. انتسبت أسرته إلى البيت العلوى فحازت مكانة مرموقة(٣). عاش جد الأسرة بصعيد

---

(١) نفس المرجع والصفحات.

(٢) نفس المرجع والصفحات.

(٣) السخاوى: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ٣، ص ٥٢، القاهرة ١٣٥٤هـ.

مصر، ثم هاجر إلى الحجاز فجاور بمكة واستوطنها عام ٧٩٥ هـ. اشتهر آل فهد بالبلاء فى العلوم الدينية والتاريخ؛ فأنجبت فقهاء ومحدثين ومؤرخين طيلة القرنين التاسع والعاشر الهجريين.

نشأ محمد بن فهد وسط هذا المناخ العلمى والمكانة الروحية لأسرته؛ وتتلمذ على فقهاء مكة ومحدثيها، ثم رحل فى طلب العلم إلى المدينة المنورة؛ فجاور بها وسمع من السمهودى المؤرخ، فتأثر به وشغف بالتاريخ. كما رحل إلى اليمن ومصر والشام [1] والتقى بالعلماء والأدباء والمشاهير ثم عاد إلى مكة، وعكف على حضور مجالس العلم، ونال عدة إجازات فى العلوم الدينية.

أفاد مؤرخنا من ثقافته تلك فيما كتب من تواريخ؛ فصنف عدة مؤلفات منها «اقتطاف النور مما ورد فى جبل ثور»، و«الأقوال المتبقية فى بعض ما قيل فى مذاهب أئمة المذاهب الأربعة»، و«تحفة الإيقاظ بتتمة ذيل طبقات الحفاظ»، و«تحفة اللطائف فى فضائل الجد ابن عباس ووج الطائف»، و«تحقيق الصفا فى تراجم بنى الوفا» و«حسن القرى فى أودية أم القرى»، و«معجم الشيوخ والشعراء»، وغيرها.

ويستفاد من عناوين تلك المؤلفات، اتساع دائرة ثقافته الدينية والأدبية، والتأثر بها فى كتابة تواريخه ذات الطابع المحلى، شأنه فى ذلك شأن سائر مؤرخى الحجاز. كذا الإفادة من مناهج المحدثين والفقهاء فى صياغة منهجه فى دراسة التاريخ؛ وهو الجمع بين الرواية والدراية.

أما عن «الرسالة» موضوع الدراسة؛ فتتعلق بتواريخ المدن التى شاعت عند مؤرخى عصره؛ الذين أرخوا لمكة والمدينة والطائف وجدة.

وإذ يؤرخ ابن فهد لمدينة جدة؛ يشى ما كتبه بصددها عن أخطار باتت تهددها وتهدد الديار المقدسة برمتها. إذ كانت المدينة ميناء تجاريا قام بدور مهم فى تجارة العبور العالمية؛ خصوصا بعد تحول الأساطيل التجارية إلى البحر الأحمر بدلا من الخليج العربى الذى غص بأعمال القرصنة. كما كانت أحد المراكز الأساسية لتجار «الكارم» الذين احتكروا سلع الهند من التوابل ونحوها منذ أواخر العصر الفاطمى؛ وحتى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح. لذلك كانت جدة على صلات وثيقة بمدن

---

(١) نفسه، ص ٥٢.

مصر وموانيها التى قامت بدور مهم أيضا فى الوساطة التجارية مع عالم البحر المتوسط.

تمثل الخطر المحدق بجدة فى طموحات البرتغاليين للاستيلاء عليها؛ وهو خطر لا يستهدف النشاط التجارى فحسب، بل رأى فيه محمد بن فهد تهديدا للأماكن المقدسة ذاتها؛ حيث اعتبر جدة ثغر أوروبا للدفاع عن تلك المقدسات.

لذلك يمكن القول إن هدف المؤرخ من كتابة رسالته، سياسى وعسكرى واقتصادى فى آن؛ إذ صيغت فى شكل «بلاغ» منه إلى القوى الإسلامية فى الحجاز والدول الإسلامية المجاورة بغية استنفارها وحثها على إعداد العدة لمواجهة الخطر المنتظر.

استهل المؤلف رسالته بحديث تقليدى عن فضائل جدة وميزاتها؛ ودورها الدينى والدنيوى فى خدمة الإسلام والمسلمين(١)؛ مدعما عرضه بالأحاديث النبوية ومأثورات الصحابة.

كما أبدى اهتماما زائدا بخططها ومساجدها، وعمارتها ومرافقها(٢). ثم عرض لتاريخها منذ بداية تأسيسها على يد الفرس. كما ذهب - حتى عصره(٣). كما عرض لأهميتها التجارية ودورها المحورى فى النشاط التجارى البحرى خصوصا مع الهند. ولم يعرض لحياة ساكنيها وعوائدهم ونحلهم؛ نظرا لتركيزه أساسا على خشيته من سقوط جدة فى يد البرتغاليين.

ثم عرض المؤلف لخرابها نتيجة إغارات الأعراب، وإعادة عمرانها بفضل جهود بعض الأشراف الحسينيين(٤). ويسترسل فى وصف معالمها ومصانعها وبيوتها التى بنيت من الحجارة، كذا متاجرها العامرة وثراء أهلها. ثم أنهى عرضه بتحديد وضعيتها الإدارية فى عصره؛ فذهب إلى تبعيتها لمكة(٥).

---

(١) جار الله محمد بن فهد: رسالة فى فضل جدة وشىء من خبرها، نص محقق فى مجلة معهد المخطوطات العربية ص ٨، مجلد ٣١، ص ٢٠٠، القاهرة ١٩٨٧.

(٢) نفسه، ص ٢٠٢.

(٣) نفسه، ص ٢٠٤.

(٤) نفسه، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

(٥) نفسه، ص ٢٠٥.

أما عن مصادره؛ فقد عول على شهادة العيان فى الأخبار الخاصة بالفترة التى عايشها. أما عن العصور السابقة؛ فقد اعتمد النقل عن مصنفات محلية مثل «أخبار مكة» للفاكهى[١]، و«شفاء الغرام» للفاسى[٢]؛ فضلا عن مصادر أخرى من أشهرها «رحلة ابن جبير»[٣] وابن الأثير[٤].

ولم يتقاعس محمد بن فهد عن ذكر مصادره؛ إذ عول على الإسناد أحيانا؛ معتمدا نهج المحدثين. وكثيرا ما تغاضى عن الإسناد مكتفيا بقوله: «على ما بلغنى»[٥].

واتسم عرضه بالسرد والوصف؛ مع بعض التعليقات أحيانا. كما استشهد بالأحاديث النبوية حين تحدث عن فضائل جدة، باعتبارها «ثغر جهاد» و«رباط» للدفاع عن مكة[٦].

ويعاب عليه؛ الإسراف فى ذكر المأثورات المتواترة التى تحفل بالأساطير والمبالغات المجوجة؛ كقوله مثلا إن «الصلاة بجدة بسبعة عشر صلاة، والدرهم فيها بمائة ألف»[٧]، وقوله إن «جدتنا حواء كانت أول من استوطنها»[٨]، وذكره أن الله حماها؛ فمن مسها بسوء تعرض لنقمته[٩].

وربما استهدف من وراء ذكر هذه الأقاويل والمبالغات استجاشة الرعايا والعوام؛ إضافة إلى الحكومات فى مواجهة الأخطار المحدقة بالمدينة. يفهم ذلك أيضا من قوله بأن قدر المدينة أن تكون «موضع نزف دماء»[١٠].

أما عن أسلوبه؛ فهو نثرى مرسل واضح وخال من الأخطاء النحوية والأسلوبية واللغوية.

---

(١) نفسه، ص ١٩٩، ٢٠٣؛ كمثال.

(٢) نفسه، ص ٢٠١.

(٣) نفسه، ص ٢٠١.

(٤) نفسه، ص ٢٠٣.

(٥) نفسه، ص ٢٠١.

(٦) نفسه، ص ١٩٩.

(٧) نفسه، ص ٢٠٠.

(٨) نفسه، ص ٢٠٣.

(٩) نفسه، ص ٢٠٤.

(١٠) نفسه، ص ٢٠٠.

وبرغم اقتضاب الرسالة، فإنها بالغة الدلالة فى التعبير عن خصائص الكتابة التاريخية عند مؤرخى الحجاز.

خلاصة القول؛ إن الفكر التاريخى فى شبه الجزيرة العربية ينطوى على قاسم مشترك مع نظيره فى العالم الإسلامى آنذاك؛ وإن تميز بشىء من الخصوصية التى ترجع لعوامل جغرافية وتاريخية ودينية.

المبحث الثانى

الفكر التاريخى فى المشرق الإسلامى

أولا..قبل سقوط الخلافة العباسية

ثمة إشكالية منهجية فى تبويب دراسة الفكر التاريخى فى الشرق الإسلامى. إذ لا نستطيع تناوله حسب التبويب الإقليمى الذى اتبعناه فيما سبق، وسنعول عليه فيما بعد؛ نظرا لاختلاف طبيعة الواقع التاريخى بين المشرق وقلب العالم الإسلامى، وجناحه الغربى. إذ تميز هذا الواقع فى المشرق بخطورة الأحداث وتلاحقها؛ بحيث تغيرت الخريطة السياسية تغيرا مستمرا؛ فلم تستقر أوضاعها على حال. فقد تعرض المشرق لتحولات كبرى متتابعة بعد سقوط الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ؛ بل وحتى قبلها. فاجتاحت المنطقة غزوات كبرى للعناصر التركية والمغولية أفضت إلى التداخل والتمازج فى أحداث المنطقة المصيرية.

أعنى أن الإمبراطورية السلجوقية التى سيطرت على معظم أقاليم المشرق الإسلامى تمزقت إلى عدة كيانات متصارعة متناحرة فى إيران والعراق وكرمان وخراسان، وتدهور نفوذها فى بلاد ما وراء النهر التى كانت موئل قيامها ومستقره [١]. وإذ نجح السلطان سنجر فى تحقيق نوع من الاستقرار النسبى فى تلك الأنحاء؛ فإنه لم يعمر طويلا. ذلك أن واليه على خوارزم - قطب الدين محمد الملقب بخوارزم شاه - ما لبث أن رفع راية العصيان وطمح إلى بسط نفوذه على الهند وسجستان. كما تطلع خلفه «أتسز» إلى الاستيلاء على خراسان وإسقاط الحكم السلجوقى فيها؛ فاستعان بعناصر تركية مغامرة - قبائل القره خطائيين - الذين اجتاحوا المنطقة ووقعوا فى صراع معه واستولوا على خراسان بعد هزيمة السلطان سنجر سنة ٥٣٦ هـ، وقضوا على الحكم السلجوقى فى المشرق. لكن أمير خوارزم محمد خوارزم شاه الثانى ما لبث أن أوقع الهزيمة بهذه القبائل سنة ٥٩٦ هـ ومد نفوذه إلى العراق وبلاد الجزيرة وصاقب حدود بيزنطة.

لم تعمر الإمبراطورية الخوارزمية الفتية طويلا؛ إذ ظهر المغول كقوة جديدة تمكنت من إسقاطها، واجتاحت العراق - بعد إخضاع بلاد ما وراء النهر وخراسان وإيران - وأسقطت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ؛ كما هو معروف.

---

(١) فضلا عن تمزق الإمبراطورية فى غربى آسيا؛ إذ شهدت هذه المنطقة دولتين: سلاجقة الشام، وسلاجقة الروم، فضلا عن أتابكية الموصل.

لكن إمبراطورية المغول ما لبثت أن تمزقت إلى كيانات متناحرة بالمثل؛ منها دول الجغتاى، والقبيلة الذهبية، والقفجاق والإلخانيين فى فارس والعراق. وقد توطدت دعائم هذه الدولة بعد اعتناق حاكمها - غازان - الإسلام. ثم اتجهت إلى الشمال الغربى فقضت على الأتابكيات وعلى مغول القبيلة الذهبية ووصلت، إلى حدود بيزنطة الشرقية.

لكن موجة مغولية أخرى تزعمها تيمورلنك اكتسحت الدولة الإيلخانية، وأقام تيمورلنك إمبراطورية مغولية جديدة ضمت بلاد ما وراء النهر وإيران والعراق وأرمينية وأذربيجان(١).

أما عن الهند الإسلامية؛ فقد تداول حكمها الغوريون الذين ورثوا حكم الغزنويين، ومن بعدهم الخلجيون، ثم حكمها آل تغلق؛ إلى أن غزاها تيمورلنك سنة ٨٠١ هـ وبسط نفوذه على معظم أقاليمها. ونجح سلاطين مماليك «دهلى» فى إقامة سلطنة قصيرة العمر - من عام ٨١٧ - ٨٣٥ هـ - إلى أن أسقطها المغول أيضا سنة ٨٥٣ هـ .

على أن إمبراطورية تيمورلنك ما لبثت أن عمتها الفوضى؛ فتمزقت إلى عدد من الكيانات المغولية المتناحرة؛ منها مغول الخفتاى الذين توسعوا فى الهند الهندوكية وأقاموا دولة كبرى فى عهد السلطان «بابر» وخليفته «أكبر». وظل المغول يحكمون الهند حتى سقوطها على يد الغزاة الانجليز(٢).

تلك هى الأحوال السياسية المضطربة فى المشرق الإسلامى. أما عن الأحوال الاقتصادية؛ فقد سبق لنا - فى المجلد الأول من الجزء الثالث من المشروع - إثبات سيادة نمط الإقطاع العسكرى فى تلك الأصقاع. كما أصبح «الغزو» فى حد ذاته مصدرا مهما من مصادر الاقتصاد؛ نتيجة السلب والنهب والمصادرة.

وعلى الصعيد الاجتماعى؛ تدهورت الطبقة الوسطى - خصوصا شريحتها التجارية - نتيجة كساد التجارة الداخلية وتقلص «تجارة العبور» من جراء الحروب الضارية والدائمة. كما ظهرت «أرستقراطية عسكرية» جديدة

---

(١) عن مزيد من المعلومات: راجع: حسين مؤنس: أطلس التاريخ الإسلامى، ص ٢٣٧ وما بعدها، القاهرة ١٩٨٧.

(٢) نفسه، ص ٢٥٣ وما بعدها.

تبوأت الرتبة الأعلى فى السلم الاجتماعى. واتسعت طبقة العامة نتيجة تدهور شرائح عديدة من الطبقة الوسطى؛ فلحقت بطبقة العامة. كذا نتيجة تزايد الرق من جراء الحرب والأسر، فأصبح سلعة رائجة للحاجة إليه فى الحروب وتسخيره فى الأعمال الشاقة. وتعاظمت النزعات العنصرية الإثنية؛ حتى غدت بديلا للبنية الطبقية المخلخلة والمائعة.

وعلى المستوى الثقافى؛ شهدت أقاليم المشرق ما شهدته سائر أقاليم «دار الإسلام» من انحطاط فكرى كنتيجة لسيادة الإقطاع العسكرى، والحروب المتوالية التى أدت إلى هجرة الكثيرين من علماء المشرق إلى الشام ومصر؛ كما أوضحنا سلفا. وإن كان من الإنصاف الإشارة إلى أن بعض سلاطين المغول - خصوصا من اعتنق منهم المذهب الشيعى - أولوا الثقافة والعلم بعض الاهتمام وأبدوا الكثير من التسامح الذى عاش فى كنفه الكثيرون من حملة العلم - خصوصا من الشيعة - فحافظوا على بقايا تراث العصر السابق وأسهموا فى إحداث «صحوة فكرية» عابرة وخافتة.

بديهى أن يتأثر الفكر التاريخى فى المشرق الإسلامى بتلك المعطيات.

وقبل ولوج بابه؛ نشير إلى نقطة منهجية مهمة؛ فحواها استحالة معالجة الفكر التاريخى خلال هذا العصر وفق التصنيف الإقليمى الذى اعتمدناه سابقا وسنعمل وفقه لاحقا. بمعنى أن نرصد هذا الفكر حسب وجوده الجغرافى؛ فنتحدث عنه مستقلا فى أقاليم إيران، ثم ما وراء النهر ثم الهند ينطوى على مفارقة. وإذ جاز الأخذ بهذا النهج خلال الفترة ما بين قيام السلاجقة وحتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ؛ فلا يمكن التعويل عليه خلال العصور اللاحقة، لا لشىء إلا لدوام التغير فى الخريطة السياسية بحيث لم تستقر الأمور على حال واحد؛ من ناحية. ومن أخرى، أن الفكر التاريخى كان - آنئذ - وحدة لا يمكن تجزئتها؛ نظرا لانطلاقه من ثقافة واحدة هى الثقافة الفارسية التى غزت تلك الأصقاع. كما أن مؤرخى العصر - وجلهم من الفرس - كانوا دائمى الترحال بين حواضر إيران والهند وخوارزم؛ وكلها أمور تحفز إلى معالجة الفكر التاريخى فى المشرق بعد سقوط الخلافة العباسية وفق معيار الزمان وليس المكان.

تأسيسا على ذلك؛ سنعرض الموضوع خلال طور زمانى يبدأ بمنتصف القرن الخامس الهجرى؛ وحتى منتصف القرن السابع الهجرى. أى اعتبار

سقوط بغداد حدا فاصلا بين الطورين. وهذا التقسيم لا يعنى ألبته تباينا نوعيا فى تطور هذا الفكر؛ إذ كان حاله فى الطورين واحدا؛ سواء فى موضوعاته أو فى مناهجه ورؤاه، أو فى مقاصده.

وجريا على هذا النهج؛ سنعرض للفكر التاريخى فى إيران ومدى تأثيره فى بلاد ما وراء النهر والهند أولا، ثم نواصل تتبعه فى تلك الأقاليم ذاتها خلال طوره الزمانى الثانى.

(أ) الفكر التاريخى فى المشرق قبل سقوط الخلافة العباسية:

كانت إيران هى مركز الثقل فى الكتابة التاريخية فى هذا العصر، بالرغم من تبعيتها لبغداد مركز الخلافة؛ فكثيرون من مؤرخى المشرق عموما كانوا من الفرس، ومنهم من التحق بالنظم الحاكمة فى خوارزم والهند؛ كمؤرخى بلاط.

فماذا عن هوية هؤلاء المؤرخين، وما هى ثقافتهم؟

يمكن تصنيفهم حسب المذهب، وحسب المهنة فى آن؛ إذ إن معظمهم كانوا على المذهب السنى؛ برغم تشيع معظم الفرس. كما وجد مؤرخون من الشيعة؛ منهم من كان إسماعيليا، ومنهم من كان إثنى عشريا.

أما عن مؤرخى السنة؛ فقد كان معظمهم على المذهب الشافعى فى الفقة؛ وهو المذهب الرسمى للخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية. كما كانوا أشعرية فى الأصول؛ نظرا لتبنى الخلافة والسلطنة أيضا مذهب الأشعرى فى الكلام.

من أشهر هؤلاء المؤرخين؛ الشيرازى (ت ٤٧٤ هـ)، والنسفى (ت ٥٣٧ هـ)، وكان محدثا ومتصوفا. منهم من تولى الوزارة؛ مثل نظام الملك وزير السلاجقة، وشرف الدين القاشانى (ت ٥٣٢ هـ). ومنهم من كان من رجال البلاط؛ كنظامى عروضى (ت ٥٦٠ هـ)، وناصر الدين بن على (ت ٦٢٢ هـ) كاتب الخليفة الناصر العباسى. ومنهم من عمل فى الدواوين؛ مثل ابن البلخى (ت أواخر القرن السادس الهجرى)، والكرمانى (ت ٦١٢ هـ) الذى كان كاتبا بديوان الإنشاء. ومن الفقهاء؛ نقف على اسم الرازى (٦٠٦ هـ) [١].

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ١٢٧، ٣٩٠، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٩، ٤٠٢، ٤٠٥.

أما عن مؤرخى الشيعة؛ فمنهم السهروردى (ت ٥٣٢ هـ)، وابن بابوية القمى (ت ٥٨٥ هـ)، وابن شهراشوب (ت ٥٨٨ هـ)؛ وكانوا إثنى عشرية. أما ناصرى خسرو (ت ٤٨١ هـ) فكان على المذهب الإسماعيلى[١].

وبخصوص ثقافتهم، كانت دينية؛ إذ تعمق معظمهم فى علوم القرآن والفقه والحديث وعلم الكلام، فضلا عن علوم اللغة والأدب، وأجاد معظمهم اللغة العربية والفارسية. واختص مؤرخو الشيعة بعلوم الحكمة والفلك وبرع بعضهم فى الرياضيات والطب. وجمع التصوف بين السنة منهم والشيعة، وإن كان التصوف الشيعى عرفانيا. وقد جرى اضطهاد مؤرخى الشيعة فى هذا العصر بعد أن حمل الغزالى عليهم، كما أغدق سلاطين السلاجقة على المؤرخين السنة، وأناطوهم بالتأريخ لأنسابهم وأعمالهم وتاريخ دولهم.

أما عن أجناس الكتابة التاريخية وموضوعاتها؛ فنلاحظ تضاؤل الاهتمام بكتابة «تواريخ عالمية»؛ إذ لم نقف إلا على مصنف واحد لمؤرخ شيعى هو السهروردى، وآخر لمؤرخ سنى هو ابن فندق (ت ٥٦٥ هـ) الذى صنف كتاب «مشارب التجارب وغوارب الغرائب». وينم العنوان عن خلط بين العلم والخرافة[٢].

وإذ طغت سلطة السلاجقة على نفوذ الخلافة، فقد تبارى مؤرخو العصر لكتابة تاريخهم تملقا ورياء. إذ ألف شرف الدين القاشانى كتاب «فتور زمان الصدور المنبئ عن القرون الخالية فى العصور»، ويتناول تاريخ السلاجقة حتى عصره. كما كتب أحمد بن على الكاشى «تاريخ السلاجقة»، والراوندى «راحة الصدور وآية السرور»[٣].

اهتم مؤرخو الفرس بالتواريخ الإقليمية تعبيرا عن نزعة شعوبية[٤] من ناحية، وتفشى التجزئة الإقطاعية من ناحية أخرى. وفى هذا المجال صنف أبو القاسم الرافعى (ت ٦٢٢ هـ) كتاب «التدوين فى أخبار قزوين»، وكتب ابن سفنديار (ت ٦٢٥ هـ) «تاريخ طبرستان»، وألف الجرجانى (ت ٤٦٨ هـ) «تاريخ جرجان»، كما كتب المأمون البغدادى (ت ٥٧٣ هـ) «تاريخ

---

(١) نفسه، ص ١٢٧، ١٣١، ٣٨٩.
(٢) نفسه، ص ١٢٧ ، ٣٩٥ .
(٣) نفسه، ص ٣٩٣، ٣٩٧، ٤٠٠.
(٤) روزمنتال: المرجع السابق، ص ٢١٩.

خراسان»[1]. وتحفل هذه المؤلفات بمعلومات جغرافية وسياسية وحضارية فى آن[2].

وحظيت الكتابة فى المدن باهتمام فائق تعبيرا عن الولاء للمدينة لا الدولة؛ ولا غرو فقد جرت نسبة المشاهير والأعلام إلى مدنهم لا إلى الدول التى عاشوا فى كنفها. كتب الهمدانى (ت ٥٠٩ هـ) وابن أبو منصور (ت ٥٥٨ هـ) عن مدن همدان وأصفهان وشيراز وقم، كما أرخ ابن القصار لمدينة شيراز، والأبيوردى (ت ٥٠٧ هـ) لمدينة أبيورد ونسا وغيرهما. وصنف الهروى (ت ٥٠١ هـ) عن هراة، والبيهقى عن بيهق، وكذلك ابن فندق. كما أرخ النسفى لمدينة سمرقند فضلا عن بخارى[3].

ونظرا للصراع بين الخلافة والسلطنة، ومكانة الفرس فى مجال النظم والإدارة، صنف مؤرخو العصر فى «أدب السياسة» ونظم الحكم. كتب نظام الملك كتابه الشهير «سياستنا مه»، وألف الرازى «تاريخ الدول» فى سياسة الملك وتدبيره. كما صنف نظامى عروضى (ت ٥٦٠ هـ) كتاب «نظامى»[4]. وقد نهلت هذه المؤلفات من التراث الفارسى القديم وعلم الأخلاق الإغريقى؛ مستهدفة تقديم تصور مثالى لما يجب أن يكون عليه الحكم[5].

كما كتب المؤرخون الفرس فى الملل والنحل؛ نظرا للصراع المذهبى الكلامى والفقهى الذى تعاظم فى هذا العصر. وفى هذا المجال كتب الرازى «الملل والنحل»، منحازا إلى الأشعرية فى الكلام، منددا بفرق الشيعة. كما كتب أيضا عن «مناقب الإمام الشافعى»[6] بنزعة متعصبة، وممالئة لإيديولوجية السلطة. ولا غرو؛ فقد صاغ الغزالى هذه الإيديولوجية، حين جمع بين الأشعرية والمذهب الشافعى والتصوف فى صيغة واحدة، جرى الترويج لها بتأسيس «المدارس النظامية» فى مواجهة الإيديولوجية الإسماعيلية ومركزها الأزهر.

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٧، ٢٨، ٢٩.

(٢) روزمنتال: المرجع السابق، ص ٢٢١.

(٣) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٤، ٢٩، ٣٤، ٣٥، ١٢٧.

(٤) نفسه، ص ٣٩، ٤٠٢، ٣٩٤.

(٥) روزمنتال: المرجع السابق ص ١٦٢.

(٦) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ٤٠٢.

واهتم مؤرخو الفرس بالكتابة فى الأنساب[1] إحياء للنزعة الشعوبية التى أججوها فى القرن الثانى الهجرى، وتعبيرا عن سخطهم على الخلافة العباسية العربية والسلطنة السلجوقية التركية.

كما صنف مؤرخون وجغرافيون فى أدب الرحلة، كما هو حال البيهقى وناصرى خسرو.

وكتب مؤرخو العصر موسوعات تحوى معارف عامة[2]، وإن شابها الخلط وسوء الترتيب، كما هو الحال بالنسبة لمؤلف الرازى «جامع العلوم» الذى صنفه وأهداه لعلاء الدين خوارزماه.

وإذ شهد بعض مؤرخى العصر فاجعة سقوط بغداد فى يد المغول سنة ٦٥٦ هـ؛ فقد أرخوا لها؛ كما هو الحال بالنسبة للجوينى (ت ٦٩١ هـ) الذى كتب كتاب «تسكين الإخوان» عن تلك الحادثة وأخبارها[3]. كما دون أخبار معاركهم فى آسيا الوسطى وإيران التى سبقت غزو بغداد[4].

أما عن الكتابة فى التراجم والطبقات؛ فكانت محدودة وتتسم بالإقليمية والطائفية؛ إذ ترجم المؤرخون لمن كانوا على مذهبهم ليس إلا، ولأهل الإقليم فى الغالب الأعم. مثال ذلك ما كتبه ابن القصار عن «طبقات أهل شيراز»، كما ترجم أيضا لأعلام المذهب الشافعى فى «طبقات الفقهاء». وترجم التيمى الأصفهانى (ت ٥٣٨ هـ) لمشاهير المتصوفة فى كتابه «سيرة السلف فى طبقات الصوفية العارفين»[5]. ويبدو أنه كان شيعيا، إذ إن الشيعة وحدهم اختصوا بالتصوف العرفانى. وقد حكم أحد المحدثين الثقاة بهزال ومحدودية ما كتبه مؤرخو العصر فى الطبقات[6]. على أن المصنفات التاريخية العامة لم تهمل ذكر أخبار الوفيات.

وهذا يقود إلى التعريف بكتابات المؤرخين الشيعة وتميزها النسبى؛ نتيجة اتساع دائرة معارفهم. ومع ذلك فقد أرخوا لمذاهبهم ليس إلا، إذ

---

(١) روزمنتال: المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ٤٠، ٤٠٣.

(٣) عباس المغراوى: المرجع السابق، ص ١٠٢، ١١٣.

(٤) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٥٧١، القاهرة ١٩٩٠.

(٥) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ١٢٧.

(٦) أنظر: جب: المرجع السابق، ص ١١١.

كتب ابن بابويه القمى «تاريخ الشيعة». كما اهتموا بالتأريخ للمعارف الدنيوية التى أوشكت أن تنقرض من جراء حملة الغزالى عليها؛ إذ أفتى بتحريمها وتجريم المشتغلين بها. كتب ابن شهراشوب عن «معالم العلماء»، كما صنف ناصرى خسرو الإسماعيلى فى الأدب الجغرافى كتابه «سفرنامه» الجامع بين الجغرافيا والتاريخ(١).

ومن المؤكد أن الشيعة الإسماعيلية فى إيران اهتموا بالتأريخ لجماعاتهم؛ لكن كل ما كتبه مؤرخوهم أحرق عام ٦٠٨ هـ بعد حملة السلاجقة على قلعة «ألموت»، وتبعهم فقهاء السنة من أهل قزوين فأحرقوا مكتباتها (٢). وينم ما بقى من كتب الشيعة عموما فى هذا العصر(٣) عن سعة أفق ودقة ودراية، إذا ما قيست بتواريخ مؤرخى السنة(٤).

تلك هى موضوعات تواريخ الفرس فى هذا العصر؛ فماذا عن نظائرها فى بلاد ما وراء النهر والهند؟

بخصوص بلاد ما وراء النهر؛ من المؤكد أنها شهدت كتابات متعددة فى التاريخ؛ كامتداد للعصر السابق الذى أرخنا للفكر التاريخى إبانه.

لكننا لم نقف على أسماء مؤرخين عاشوا فى هذا الإقليم خلال هذا العصر؛ وإن ذكرت أسماء فى أقاليم أخرى تنتمى إلى مدن خوارزم. وهذا يرجح الظن بأن المؤرخين - شأنهم شأن غيرهم من المشتغلين بالعلم - هجروا مواطنهم من جراء الاضطرابات السياسية والحروب المتوالية التى عرضنا لها سلفا. لذلك صدق من قال إن ما كتب عن تاريخ الإقليم لا نعرفه إلا من خلال كتابات تتعلق بأقاليم أخرى(٥).

وبالتحرى؛ وقفنا على بعض أسماء مؤرخين خوارزميين - من بلاد ما وراء النهر - أقاموا فى فارس، وصنفوا عن تاريخ بلادهم منهم الحافظ الخوارزمى (ت ٥٦٨ هـ) الذى كتب «أخبار خوارزم»، والقباوى (ت ٥٧٤ هـ)

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ ٢، ص ١٣٠، ١٣١.
(٢) السيد محمد العزاوى: فرقة النزارية، ص ٩، ١٠، القاهرة ١٩٧٠.
(٣) قيل أن مؤرخا مجهولا كتب سيرة الحسن الصباح بعنوان «أبواب بابا سيدنا السبع»، نفس المرجع والصفحة.
(٤) روزمنتال: المرجع السابق، ص ٩٢.
(٥) أنظر: بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، الترجمة العربية، ص ٢، القاهرة، د. ت.

الذى أرخ لمدينة بخارى، ومحمد بن زفر (ت ٥٧٤ هـ) الذى ذيل على كتاب «تاريخ بخارى» للنرشخى، وله مؤلف آخر بعنوان «تاريخ سمرقند». كما ترجم النسفى لعلماء سمرقند[1].

أما عن مؤرخى الهند؛ فكان معظمهم وافدين من إيران والتحقوا ببلاطات سلاطين الهند الغزنويين والغوريين، منهم البيهقى (ت ٤٧١ هـ) الذى التحق ببلاط السلطان محمود الغزنوى، وأصبح كاتبا فى ديوانه الخاص[2]. أما الجوز جانى (ت ٦٩٨ هـ) فقد التحق ببلاط الغوريين[3]. وألف كتاب «طبقات ناصرى» فى التاريخ العام، كما كتب الكثير عن الغزنويين والغوريين، وعن حروب المغول؛ كشاهد عيان[4]. لذلك امتازت كتاباته بمعلومات غزيرة وعلى قدر كبير من الأهمية[5].

فماذا عن مرجعيات مؤرخى المشرق الإسلامى؟

نظرا لكون الكثيرين من هؤلاء المؤرخين تولوا مناصب رسمية؛ كالوزارة والكتابة، ولأن بعضهم شارك فى الأحداث، فقد كانوا شهود عيان دونوا ما شاهدوا؛ فذكروا الأحداث مفصلة ودون بعضهم بصددها مذكرات يومية؛ كما هو الحال بالنسبة لنظام الملك والجوزجانى والبيهقى، على سبيل المثال. واتسمت معلومات بعضهم بالدقة والجدة والنصاعة والتنوع، كما هو حال ناصرى خسرو الذى كان جاسوسا للفاطميين، والتحق بخدمة الغزنويين والغوريين والسلاجقة؛ بهدف جمع معلومات عن القوى السنية وتقديمها للفاطميين فى القاهرة؛ لخدمة مشروع سياسى توسعى يروم إسقاط الخلافة العباسية والنظم التابعة لها فى المشرق.

كما استمد بعض مؤرخى العصر معلوماتهم من شهود عيان شاركوا فى أحداث العصر؛ كالجوزجانى الذى كان على صلة بقواد المغول ورجالات البلاط فى الدولة الغورية[6]، ونصير الدين الطوسى

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٣٧، ٣٩.

(٢) نفسه، ص ٣٨٦.

(٣) السيد محمد العزاوى: المرجع السابق، ص ٩.

(٤) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٥٧٠، القاهرة ١٩٩٠، توفيق محمد لقبابى: التطور السياسى لدولة الغور الإسلامية، رسالة ماجستير بآداب القاهرة، ص ٤، القاهرة ١٩٨٦.

(٥) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ٧٦، ٧٧.

(٦) نفس المصدر ،الصفحات.

الذى كان على صلة بالإسماعيلية فى ألموت، ثم التحق بخدمة المغول[1].

واعتمد الكثيرون فى تواريخهم على الوثائق؛ باعتبارهم من كتاب الدواوين، وكان بعضهم وزراء أو كتابا فى بلاطات الخلفاء والسلاطين؛ كما أوضحنا من قبل.

هذا بخصوص الكتابات المعاصرة للأحداث؛ أما ما كتب عن العصور السابقة، فكان عمدتها النقل عمن سبقوا، وفى معظم الأحيان لم يشر النقلة إلى مصادرهم[2].

أما عن المنهجية والرؤية؛ فنلاحظ عدم اعتماد الإسناد؛ لندرة وجود مؤرخين محدثين؛ على عكس الأقاليم الأخرى، كما لم تصنف الوقائع وفق النظام الحولى؛ بقدر ما جمعت لتعالج موضوعات مكتملة.

واهتم المؤرخون غالبا بالحبكة الروائية والحكى القصصى؛ وتلك خصيصة تميز بها المؤرخون الفرس حتى فى العصور السابقة. وجرى الاستشهاد بالحكم والأمثال الهندية والفارسية، كما زخرفوا المادة التاريخية بالشعر، بل نظم بعضهم أراجيز شعرية فى موضوعات تاريخية.

أما عن التزام الموضوعية والحياد فيما كتب؛ فكان أمرا بعيد المنال، إذ ماذا ننتظر من كتابات من كان معظمهم مؤرخين رسميين أو مشتغلين فى الدواوين ودوائر البلاط؟ لذلك جرت العادة «بكيل المديح للحكام»[3] تملقا ورياء؛ طمعا فى الثروة والجاه. فى ضوء ذلك يمكن تفسير تقلب الكثيرين من مؤرخى العصر فى ولائهم للحكام، ولم يبخل الآخرون عليهم بالهبات والعطايا، طالما امتدحوا شخوصهم وأشادوا بأسرهم الحاكمة[4].

غلبت الرؤية الدينية على ما كتبه مؤرخو العصر بوجه عام[5]. كما اعتمد بعضهم النجامة والخرافة فى التحليل وفى التعليل وفى التأويل[6]. وإن شذ بعض مؤرخى الشيعة عن القاعدة؛ فنظروا إلى التاريخ باعتباره

(١) نفسه، ص ٨٨، ٨٩.

(٣) توفيق محمد لقبابى: المرجع السابق، ص ٤.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

(٥) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ٧٦.

(٦) روزمنتال: المرجع السابق، ص ٩١.

نتاج فعاليات بشرية؛ لذلك حرصوا على معرفة العلل والأسباب الكامنة وراء الوقائع والأحداث[١].

أما عن الغايات والمقاصد؛ فجمعت بين الارتزاق وبين المواعظ والاعتبار؛ لذلك انطوت الكتابات التاريخية على نزعة تعليمية[٢]. وكانت العظات تدور حول التنبيه على أن دوام الأحوال محال[٣]؛ بما يفصح عن نزعة تشاؤمية من جراء استشراء الفساد، وتتابع تداول الدول وزوالها.

أما عن الأسلوب؛ فقد كان راقيا فى الغالب الأعم، خصوصا فى التواريخ المدونة بالفارسية، كما يشهد المتخصصون. لكن ما كتب بالعربية، أو ما ترجم إليها من فارسية؛ شابته الركاكة والعجمة والإسراف فى الصنعة والتكلف.

وليس أدل على تدهور الفكر التاريخى فى هذا العصر من تصنيفه فى مكانة وسطى بين العلوم الدينية والأدب[٤]. كذا تحديد مباحث فى «الألغاز والنسب وطول العمر ودوام أعمال الأنبياء والملوك والحكام والملل»، حسب تصور أحد فقهاء العصر[٥]. ولا غرو؛ فقد اعتبر هؤلاء الفقهاء التاريخ علما مساعدا فى دراسة علومهم الدينية؛ لكنه أدنى منها مرتبة وقيمة[٦].

ثانيا: فى العصر المغولى:

سبق وأوضحنا الخلفية التاريخية والثقافية لهذا العصر الذى يعد امتدادا طبيعيا للعصر السابق؛ ومن ثم كان الفكر التاريخى يدور فى نفس الإطار. لذلك أخطأ من تصور أن العصر المغولى شهد انعطافة فى الفكر التاريخى؛ بحيث تطور نوعيا؛ إلى حد الحديث عن نهضة تاريخية[٧] شملت الفكر التاريخى موضوعا ومنهجا ورؤية.

---

(١) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ١٢.

(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٧١.

(٣) روزمنتال: المرجع السابق، ص ٥٧.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

(٥) هو الفقيه محمد بن محمود الآملى؛ صاحب كتاب «نفائس فى عرائس العيون». عن مزيد من المعلومات، راجع روزمنتال: المرجع السابق، ص ٥٧ وما بعدها.

(٦) نفسه، ص ٥٧.

(٧) أنظر: جب: المرجع السابق، ص ١٠٤، شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٢٩٧.

ويبدو أنهم اغتروا بكثرة عدد المؤرخين، كذا بتعاظم إنتاجهم. لكن هذا الزخم يعزى إلى اتساع إمبراطورية المغول التى امتدت من الصين شرقا إلى حدود بيزنطة والشام غربا، كما دخلت الهند ضمن نطاق هذه الإمبراطورية. وفى العصرين معا قاد المؤرخون الإيرانيون حركة الكتابة التاريخية؛ دون تغيير يذكر فى نوعيتها ومضامينها.

لذلك؛ سنعرض للفكر التاريخى فى إمبراطورية المغول كوحدة متكاملة؛ دونما ضرورة لرصده فى كل إقليم على حدة؛ لخضوع كل هذه الأقاليم لظروف تاريخية واحدة؛ إقتصاديا واجتماعيا وثقافيا.

وجريا على طريقتنا فى معالجة الموضوع؛ سنقوم برصد الفكر التاريخى؛ من خلال تصنيف مؤرخى العصر، وتبيان ثقافتهم، وتحديد أجناس الكتابة التاريخية، وتبيان المرجعية، والوقوف على المنهج والرؤية والمقاصد. ولتأكيدنا - مرارا - على حقيقة توحد الفكر التاريخى فى العصر المغولى والعصر السابق عليه الممتد إلى منتصف القرن الخامس الهجرى؛ سنقوم بدراسة مجهرية لمؤرخ أنموذج تتجسد فيه خصائص العصرين معا.

بخصوص مؤرخى العصر؛ سنعول فى تصنيفهم حسب مهنهم من ناحية، وانتماءاتهم المذهبية من أخرى.

وأول ما نلاحظه فى هذا الصدد تعاظم ظاهرة «المؤرخ الرسمى» أو «مؤرخ البلاط»؛ بصورة تسترعى الانتباه؛ بدأت إرهاصاتها فى العصر السابق؛ كما أوضحنا سلفا. فكان الكثيرون من مؤرخى المغول من الوزراء والكتاب ورجال البلاط؛ وحتى من أباطرة المغول أنفسهم.

وندر وجود المؤرخ - المحدث، كما ظهر شأن مؤرخى الشيعة والمتصوفة؛ لتشيع بعض سلاطين المغول من ناحية، وذيوع روح التسامح من ناحية أخرى. إذ اهتم الحكام بأمور السياسة والحرب ولم يشغلوا أنفسهم بالصراعات المذهبية الكلامية أو الدينية أو الفقهية. كما أقدم السلاطين على الاستعانة بالمؤرخين(١)؛ وتوظيفهم فى الدعاية السياسية.

من الظواهر اللافتة للانتباه أيضا؛ أن جل مؤرخى العصر وفى سائر أقاليم الدولة المغولية كانوا من الفرس، وأن بعضهم تنقل فى مدن آسيا

(١) محمود قمر: فصول من تاريخ الحضارية الإسلامية فى آسيا الوسطى، ص ١٣٥، القاهرة ٢٠٠٠.

الوسطى والهند وفارس؛ بحيث أصبح من الصعب الحديث عن مؤرخ هندى وآخر خوارزمى أو فارسى.

وهى ظاهرة بدأت إرهاصاتها فى العصر السابق أيضا. وقد سبق لنا التمثيل بالجوزجانى والجوينى فى هذا الصدد. كما ضمت إمبراطورية المغول مناطق جديدة مثل بلاد الجزيرة وآسيا الصغرى.

ومع ذلك خضع هذان الإقليمان لذات المعطيات التى عمت سائر أنحاء الإمبراطورية. إذ عرفا «مؤرخى البلاط» - شأن الأقاليم الأخرى - فكان النخجوانى مؤرخ بلاط الأتابكة قبل خضوع بلادهم للمغول[١]. كما كان ابن البيبى (ت ٦٨٤ هـ) مؤرخ بلاط السلاجقة الروم قبل وقوع الأناضول فى أيدى المغول[٢]؛ بما يؤكد وحدة التاريخ ووحدة الفكر التاريخى فى سائر أقاليم الإمبراطورية المغولية فى آن.

من أشهر مؤرخى العصر؛ وفى مقدمتهم جميعا؛ يقف رشيد الدين فضل الله (ت ٧١٢ هـ) الذى وزر للسلطانين غازان وأولجايتو[٣]. وهو الذى أغرى الأول باعتناق الإسلام، وأقنع الثانى بالتشيع.

منهم أيضا؛ شرف الدين اليزدى (ت ٨٥٠ هـ)، وهو سنى المذهب كان على صلة وثيقة بالأسرة المغولية الإيلخانية[٤]؛ شأنه فى ذلك شأن رشيد الدين. كما خدم محمد بن فصيح (ت حول منتصف القرن التاسع الهجرى) فى البلاط التيمورى، وكذلك كان حافظ إبرو (ت ٨٣٤ هـ) الذى التحق بخدمة «شاه رخ» بعد وفاة تيمور[٥]. وقبلهما خدم نصير الدين الطوسى الشيعى (ت ٦٧٢ هـ) وعلاء الدين عطا الجوينى (٦٥١ هـ) السنى فى بلاط هولاكو؛ قبل أن يلتحق الأخير بخدمة الغوريين فى الهند[٦]. كما التحق فخر الدين البناكتى (ت ٧٣٠ هـ) - وكان سنيا - بخدمة السلطان غازان الإيلخانى[٧].

---

(١) عباس إقبال: المرجع السابق، ص ٥٧.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) توفيق محمد لقبابى: المرجع السابق، ص ز من المقدمة.
(٤) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ٢٢١.
(٥) محمود قمر: المرجع السابق، ص ١٣٦، ١٣٧،
جب: المرجع السابق، ص ١٠٨.
(٦) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ١٠٢.
(٧) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٢، ص ١٩.

كما كتب بعض سلاطين المغول مصنفات تاريخية؛ إذ نعلم أن تيمورلنك دون كتاب «تزكات» فى صورة مذكرات يومية سجل فيها خططه الحربية ومشروعاته السياسية[1]. كما كتب السلطان «بابر» - إمبراطور الهند - «مذكرات همايون» و«تاريخ رشيدى»[2].

ومن المؤرخين المشتغلين بالدواوين؛ نذكر اسم الكاشانى (ت ٧٣٥ هـ)؛ وكان شيعيا متصوفا[3].

أما عن ثقافة هؤلاء المؤرخين؛ فقد جمعت فى الغالب الأعم بين العلوم الدينية وعلوم اللغة والأدب؛ وإن تميز مؤرخو الشيعة بسعة دائرة معارفهم. فقد أحاط رشيد الدين فضل الله بعلوم الأوائل، وبرع فى الفلك والطب - فكان طبيب السلطان غازان قبل توليه الوزارة - لذلك اتهم فى عقيدته، كما أجاد العربية والفارسية والتركية والمغولية[4]. وأجاد صديقه المستوفى القزوينى (ت ٧٥٠ هـ) الفارسية والتركية والمغولية[5]. أما نصير الدين الطوسى الشيعى المتصوف؛ فكان أكثر أهل زمانه علما على الإطلاق؛ إذ أحاط بعلوم الحكمة والرياضيات والفلك، وأقام مرصدا، وعول على التجريب. وقد استمد معارفه من المكتبة الإسماعيلية فى «ألموت» قبل إحراقها من قبل فقهاء السنة[6]. كما اشتهر ميرخواند (ت ٩٠٤ هـ) بالاعتكاف فى مكتبته الخاصة؛ متفرغا للبحث والدرس، وصنف فى العديد من العلوم الدينية والدنيوية كالأنثروبولوجيا الاجتماعية والأخلاق[7]. وهذا يفسر لماذا تميزت تواريخ الشيعة بتفوق نسبى؛ إذا ما قيست بكتابات السنة.

أما عن أجناس الكتابة التاريخية؛ فقد ازداد الاهتمام بتصنيف «تواريخ عالمية». ولا يرجع ذلك إلى اتساع دائرة معارف المؤرخين؛ بقدر ما يعود إلى اتساع الإمبراطورية المغولية واتصالها بأمم وشعوب غير إسلامية؛ فى بيزنطة وأوروبا الشرقية. ولعل من أشهر مؤلفات هذا الصنف من الكتابة؛

---

(١) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ٢١٥.
(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٢٩٣.
(٣) نفسه، ص ٣٦٦.
(٤) نفسه، ص ٣٠١.
(٥) نفسه، ص ٣٣٥.
(٦) السيد محمد العزاوى: المرجع السابق، ص ٩.
(٧) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٣٤٠.

«جامع التواريخ» لرشيد الدين فضل الله؛ إذ زخر بمعلومات عن الصين والهند والهندوكية وأوروبا[١]، وقد نقل عنه معاصروه ومن جاءوا بعده، كما قام بعضهم بتأليف «مختصرات» عنه و«ذيول» له[٢]. وصنف حافظ إبرو (ت ٨٣٤ هـ) «زبدة التواريخ» الذى بدأه بأخبار عن بدء الخليقة[٣]. وألف ميرخواند (ت ٩٠٤ هـ) «روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفا» بالفارسية، ولحقه [٤]خواندمير (ت ٩٤٢ هـ) بكتاب «حبيب السير فى أخبار الأفراد والبشر»؛[٥] وهو تاريخ عالمى أيضا.

وكتب بعض مؤرخى العصر فى «التاريخ الإسلامى العام»؛ كما هو حال النخجوانى فى «تجارب السلف فى تاريخ الخلفاء والوزراء»[٦]. وصنف الخوانى (ت حول منتصف القرن التاسع الهجرى) كتاب «محمل فيصحى»؛ وهو مختصر يبدأ مع بداية التاريخ الهجرى[٧]. ويعد كتاب «مطلع السعدين» تأريخا للدول والشعوب الإسلامية؛ حتى عصر مؤلفه كمال الدين عبدالرازق (ت ٨٨٧ هـ) [٨].

واهتم مؤرخو العصر بالكتابة عن «الأسرات الحاكمة» مثال ذلك تأريخ ميرخواند للدولة السلجوقية، واعتبرت معلوماته عنها جد متميزة [٩]. وعن الأتراك ودولهم؛ كتب الجوينى «تاريخ جهانكشا» بالفارسية[١٠]. كما صنف شيبانى نامه كتاب «تاريخ الأوزبك»[١١]. وألف فضل الله الشيرازى (ت أوائل القرن الثامن الهجرى) «إيلخانات المغول فى إيران»[١٢]. وعن الدولة نفسها كتب فضل الله الموسوى (ت حول منتصف القرن التاسع الهجرى) «تاريخ خيرات» بالفارسية[١٣]. وعن تاريخ المغول عموما؛ ألف

---

(١) جب: المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٢) نفسه، ص ١٠٦.

(٣) محمد محيى الدين الإدريسى، التطور السياسى للدولة الإيلخانية، ص ٩، رسالة ماجستير، آداب القاهرة، مخطوطة، ١٩٨٧.

(٤) فامبرى: تاريخ بخارى، الترجمة العربية، ص ٩، القاهرة، د. ت.

(٥) محمد عبدالرحمن: كرمان منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية الدولة الطاهرية، ص ١٨، رسالة ماجستير، آداب عين شمس، مخطوطة، ١٩٩٩.

(٦) عباس إقبال: المرجع السابق، ص ٥٧.

(٧) محمود قمر: المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٨) فامبرى: المرجع السابق، ص ١١.

(٩) نفسه، ص ١٠.

(١٠) نفس المرجع والصفحة.

(١١) نفسه، ص ١١.

(١٢) توفيق محمد لقبابى: المرجع السابق، ص أ من المقدمة.

(١٣) محمود قمر: المرجع السابق، ص ١٣٧.

شـرف الدين اليـزدى «ظفـرنامـه »[١] بطلب من أحـد سـلاطين الإيلخانيين. كما أرخ معيد الدين اليزدى (ت ٧٨٩ هـ) لدولة الأتابكة؛ بتكليف من أحد أمرائها[٢].

ونلاحظ أن التأريخ للمدن تقلص فى هذا العصر؛ ربما لما حل بها من خراب ودمار. فقد صنف ابن زركوب كتاب «شيراز نامه» عن مدينة شيراز، وهو كتاب يجمع بين الجغرافيا والتاريخ[٣]. أما عن كتاب «روضات الجنات فى أوصاف مدينة هراة»؛ فقد ألفه معين الدين الأسفزازى (ت أواخر القرن التاسع الهجرى) [٤]. وصنف خسرو الدهلوى (ت ٧٢٥ هـ) عن مدينة «دهلى» بالفارسية[٥] كما كتب أيضا كتاب «تفتيت الأكباد فى واقعة بغداد» عام ٦٥٦ هـ بعد سقوطها فى يد المغول[٦].

كما اهتم المؤرخون بالكتابة فى «السير»؛ فألف الكاشانى «سيرة السلطان أولجاتيو» [٧]. وكتب اليزدى «ظفرنامه» عن سيرة تيمورلنك [٨]. كما أرخ شيبانى محمد «سيرة شيبانى خان» أحد حكام الأوزبك [٩]. ولم تقتصر الكتابة فى هذا المجال على الحكام، بل اهتم مؤرخو الصوفية بكتابة سير مشايخهم. فصنف ابن البزاز «صفوة الصفا» عن الشيخ صفى الدين الأردبيلى [١٠]، وألف الصوفى (ت ٦٣٥ هـ) «لباب الألباب» فى سير الصوفية ومناقبهم [١١].

وكتب مؤرخو الشيعة والمتصوفة فى مجال «العقائد» إذ صنف مؤلف مجهول عن «عقائد الإسماعيلية». وفى الموضوع ذاته صنف نصير الدين الطوسى «روضة التسليم» [١٢].

---

(١) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ٢٢١.
(٢) عباس إقبال: المرجع السابق، ص ٥٧.
(٣) نفسه، ص ٥٧.
(٤) محمود قمر: المرجع السابق، ص ١٣٨.
(٥) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٣٦٤.
(٦) نفسه، ص ٣٦٢.
(٧) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ١٥٧.
(٨) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤ ص ٣٣٩.
(٩) فامبرى: المرجع السابق، ص ١١.
(١٠) عباس إقبال: المرجع السابق، ص ٥٧١.
(١١) جب: المرجع السابق، ص ١١٢.
(١٢) السيد محمد العزاوى: المرجع السابق، ص ١١.

وفى مجال «الأنساب»؛ ألف فخر الدين البناكتى «روضة الألباب فى تواريخ الأكابر والأنساب»[1]. وألف الشبانكارى كتاب «مجمع الأنساب» [2].

وفى مجال «التراجم» و«الطبقات»؛ انصب الاهتمام على الوزراء والمتصوفة والشعراء؛ دون الفقهاء والمحدثين لتدهور مكانتهم فى هذا العصر. فكتب خواندمير «دستور الوزراء»، وألف يوسف فضلى (ت ٨٨٣ هـ) «آثار الوزراء» [3] وتراجمهم. وترجم أبو الخير الدهلى (ت ٧٤٩ هـ) لأولياء المتصوفة وشيوخهم[4]، كما صنف أحمد بن محمد الملقب بـ«معين الفقراء» لشيوخ بخارى وأوليائهم [5]. وكذلك الصوفى الذى ترجم للمتصوفة والشعراء، وعلى نهجه سار الفراهى (ت ٦٤٠ هـ) [6].

وشهد العصر أراجيز شعرية تؤرخ لبعض العصور؛ كما هو حال حمدالله المستوفى القزوينى [7].

تلك هى الموضوعات التى كتب فيها مؤرخو العصر؛ وهى لا تختلف كثيرا عن نظيرتها فى العصر السابق؛ فماذا عن مرجعيتهم؟

اعتمد المؤرخون شهادة العيان بخصوص الفترات التى عايشوها؛ خصوصا أن الكثيرين منهم شاركوا فى الأحداث أو عاينوها. من أهم هؤلاء خواندمير الذى يعد ما كتبه فى هذا الصدد وثيقة فى حد ذاته (٨).

وقدر لمؤرخى البلاط والمشتغلين بالكتابة فى الدواوين الاطلاع على الوثائق؛ فدونوها فى مؤلفاتهم [9]؛ كما هو حال رشيد الدين فضل الله فى كتابه «جامع التواريخ» الذى قدمه للسلطان غازان [10].

كما عول المؤرخون على السماع والمساءلة؛ فاستمدوا معلوماتهم من

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٣٦٠.
(٢) عباس إقبال: المرجع السابق، ص ٥٧.
(٣) جب: المرجع السابق، ص ١١٢.
(٤) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ١٩٠.
(٥) محمود قمر: المرجع السابق، ص ١٣٨.
(٦) عباس إقبال: المرجع السابق، ص ٥٧٣.
(٧) جب: المرجع السابق، ص ١٠٦.
(٨) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ٢٢٦.
(٩) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٩.
(١٠) نفسه، جـ ٤، ص ٣٠١.

شهود العيان؛ كما هو حال عطاء ملك الجوينى الذى اعتمد فى مؤلفاته على عدد كبير من رواة معاصرين للأحداث [١].

أما عن العصور السابقة؛ فكان النقل من مؤلفات السابقين نغمة سائدة؛ حتى إن بعض المؤرخين نقلوا كتبا بأكملها أو لخصوها؛ كما هو حال ميرخواند فى كتابه «روضة الصفا» الذى نقل الكثير من فصوله عن صاحب «حبيب السير» [٢] الذى كان قد نقل «تاريخ جهان كشا» للجوينى [٣]؛ الذى طالما نقل منه المؤرخون اللاحقون [٤].

كما عول بعض مؤرخى العصر ممن هجروا أوطانهم واستقروا فى أوطان جديدة على الذاكرة؛ حين كتبوا عن مواطنهم الأولى؛ كما هو حال الجوزجانى [٥].

وفى معظم الأحيان، لم يشر الناقلون إلى مصادر معلوماتهم.

أما عن المنهج؛ فقد ندر الإسناد؛ لندرة المؤرخين - المحدثين. ورتب البعض الأحداث و«الوقائع حسب النظام الحولى، ورتبها آخرون لخدمة موضوعات متكاملة» [٦]؛ كما كان الحال فى العصر السابق.

وكان حظ المؤلفات التاريخية من الموضوعية والحياد ضئيلا؛ إذ أسرف المؤرخون - خصوصا مؤرخى البلاط - فى امتداح الحكام تقربا وزلفى، أو خشية وخوفا. بل إن الكثير مما كتب فى هذا العصر تم بناء على طلب الحكام. فقد كتب اليزدى سيرة تيمورلنك «ظفرنامه» بأمر منه [٧]. كما ألف الجوزجانى «طبقات ناصرى» حسب رغبة ناصر الدين محمود الغورى [٨]. وصنف كمال الدين السمرقندى «ظفرنامه» بأمر من أحد الأمراء التيموريين [٩]. لذلك

---

(١) جب: المرجع السابق، ص ١٠٥.
(٢) فامبرى: المرجع السابق، ص ٩.
(٣) نفسه، ص ١٠.
(٤) نفسه، ص ١١.
(٥) توفيق محمد لقبابى: المرجع السابق، ص س من المقدمة.
(٦) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ٢٢٢.
(٧) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٣٣٩، ٣٠١.
(٨) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ٧٦.
(٩) نفسه، ص ٢٢٣.

اتسمت هذه الكتابات بالدعاية السياسية والمبالغات فى ذكر فضائل السلاطين والصمت عن مثالبهم (١).

أما عن العرض التاريخى؛ فقد غلب عليه الوصف والسرد، كما جرى ترصيع ما كتب بالقصص والحكايات، فضلا عن الإسراف فى ذكر العجائب والغرائب؛ كما هو حال أبى نصر الفراهى فى كتابه «شيراز نامه» (٢)؛ على سبيل المثال.

وغلب تعليل الأحداث بحتمية القدر؛ وإن فسرها البعض فى إطار الواقع بصورة منطقية ومقبولة؛ كما هو الحال بالنسبة للجوينى (٣). وفى كل الأحوال سادت الرؤية الغيبية القدرية الممزوجة بالخرافة أحيانا (٤). واعتمدت «الكرامات» والخوارق فى تفسيرات المؤرخين الصوفيين؛ كما هو حال القاشانى فى «تحفة الإخوان فى خصائص الفتيان» (٥). كما ربط الكثيرون بين أحداث التاريخ وبين حركة الأفلاك؛ كما هو شأن المستوفى القزوينى؛ على سبيل المثال (٦).

وأحيانا ما جرى تقويم سياسات الحكام حسب معيار أخلاقى؛ كالخير والشر، أو الحسن والقبح (٧).

أما عن الأسلوب؛ فغلبت عليه مسحة أدبية؛ كما هو شأن الجوينى، أو العجمة والركاكة، كما هو حال رشيد الدين فضل الله (٨). وعرف البعض بالبلاغة ورشاقة الأسلوب وانسيابه؛ وهو ما تمثل فى كتابات شرف الدين يزدى (٩)، والنخجوانى (١٠)؛ بينما غلبت الصنعة والتكلف على كتابات الشيرازى (١١). وإذ بلغت البلاغة ذروتها فى كتابات شرف الدين يزدى (١٢)؛ فقد بلغت سفح انحطاطها عند ميرخواند؛ إذ غلب على ما كتبه

---

(١) محمد محيى الدين الإدريسى: المرجع السابق، ص ز من المقدمة.
(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ ٤، ص ٥٧٣.
(٣) عباس العزاوى: المرجع السابق، ص ١٠٢.
(٤) عباس إقبال: المرجع السابق، ص ٥٧٠.
(٥) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤ ص ٣٦٦ جب: المرجع السابق، ص ١١٢.
(٦) شاكر مصطفى جـ٤، ص ٣٣٥.
(٧) عباس إقبال: المرجع السابق، ص ٥٧٢.
(٨) شاكر مصطفى جـ٤، ص ٣٣٥.
(٩ فامبرى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٣٠١.
(١٠) عباس إقبال: المرجع السابق، ص ٥٧٠، جب: المرجع السابق، ص ١٠٨.
(١١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ٤، ص ٥٧١.
(١٢) جب: المرجع السابق، ص ١٠٨.

التهويل والطنطنة والضعة المتكلفة [١]، ومع ذلك أصبح أسلوبه نمطا يحتذى عند مؤرخى عصره؛ خصوصا مؤرخى الهند والأناضول [٢].

لذلك كله؛ نرى أن الفكر التاريخى تدهور فى هذا العصر كشأنه فى العصر السابق؛ بله فى سائر أقاليم العالم الإسلامى. إذ ساد التكرار والاجترار، وندر الإبداع والابتكار[٣]. كما ذوت الموضوعية وعزت المصداقية، وجرى الاهتمام بالشكل على حساب المضمون. فما كتب من تواريخ باللغة الفارسية، غلف بمسحة أدبية، وما كتب بالعربية سادته النزعة الدينية[٤].

تلك هى خصائص الفكر التاريخى فى الشرق الإسلامى؛ خلال عصر الإقطاعية العسكرية؛ إذ عبر عن تدهور الثقافة الإسلامية برمتها خلال «عصر الانحطاط»؛ على حد حكم ابن خلدون.

للمزيد من تأكيد هذه الحقيقة؛ نفرد دراسة معمقة لأنموذج يمثل مؤرخى المشرق عامة؛ وهو رشيد الدين فضل الله وكتابه «جامع التواريخ».

ينتمى رشيد الدين إلى أسرة يهودية؛ فنشأ على دينها ثم اعتنق الإسلام على المذهب السنى؛ الشافعى فقها. ثم تشيع فاعتنق المذهب الإسماعيلى. والتحق بقلعة الإسماعيلية فى «ألموت»، ثم غادرها بعد أن اجتاحتها جيوش المغول. وخدم رشيد الدين فى بلاط الإيلخانيين فى عهد غازان الذى اعتنق الإسلام بنصيحة منه، وبعد موت غازان خدم رشيد الدين خليفته أولجايتو، وأغراه بالتشيع، فاعتنق المذهب الإسماعيلى مثله. ويوحى عرض سيرته؛ بتقلب مواقفه العقيدية والسياسية، وهو أمر انعكس سلبا على كتاباته التاريخية.

أما عن ثقافته؛ فكان مثقفا من طراز رفيع إذ أحاط بعلوم الدين والدنيا، وبرع فى الطب والفلك وعلوم الحكمة من طبيعيات ورياضيات وفلسفة [٥]. وأجاد العربية والعبرية والفارسية والمغولية والتركية؛ وهو أمر أهله لتولى الوزارة والسفارة لسلاطين الإيلخانيين [٦].

---

(١) نفسه، ص ١١٠.

(٢) نفسه، ص ١١١.

(٣) نفسه، ص ١٠٨.

(٤) نفسه، ص ١١٢.

(٥) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، الترجمة العربية، جـ١، ص ٧ من مقدمة المحقق، القاهرة ١٩٦٠.

(٦) فؤاد عبدالمعطى الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله، ص ٩٠، القاهرة ١٩٦٧.

وإبان فترة توليه الوزارة أسهم بجهد دائب فى مجال النشاط العمرانى؛ فأعاد للمدن التى خربها المغول رونقها. كما أظهر عن آراء وأفكارا تشى بزندقته فعزل من الوزارة وقتل.

كتب مصنفات شتى فى عديد من المعارف، ويعد كتابه «جامع التواريخ» خير ما كتب فى عصره؛ إذ أصبح أنموذجا يحتذى فى الكتابة التاريخية؛ لذلك نقل عنه معاصروه ولاحقوه، وجرى اختصاره والتذييل عليه.

عرض رشيد الدين - فى هذا الكتاب - لأصول العناصر التركية والمغولية، فأظهر طول باع فى مجال الإثنولوجيا. كما قدم إثنولوجيا ثقافية فى دراسته لتاريخ الفرس؛ سواء قبل الإسلام أو بعده؛ وحتى سقوط بغداد. كما ينطوى الكتاب على معلومات جغرافية قيمة عن آسيا الوسطى.

ثم عرض تاريخ المغول، فوصف أنماط حياتهم وحدد هويتهم الإثنية، وسجل حروبهم وغزواتهم منذ تأسيس دولتهم حتى عهد هولاكو. لذلك؛ يعد الكتاب حجة فى تاريخ المغول، إذ أرخ لأصولهم ونمط حياتهم. كذا لحياة سلاطينهم الخاصة، وقدم لهم تراجم مختصرة لكنها عظيمة الفائدة.

كما يحوى الكتاب مادة نادرة عن الشيعة الإسماعيلية - إذ خالطهم فى قلعتهم - نتيجة اطلاعه على أمهات كتبهم. كذا معلومات ضافية عن الصلة بين هولاكو والخلافة العباسية، وقدم وثائق مهمة فى هذا الصدد، تتعلق بالمراسلات المتبادلة بين الطرفين، وحتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ. هذا بالإضافة إلى حروب هولاكو فى بلاد الجزيرة والشام، وحتى معركة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ. كما أفاض رشيد الدين فى ذكر ما ترتب على غزوات المغول من خراب العمران، كذا فى إيضاح جهودهم فى البناء والتشييد. وقدم صورة واضحة عن النشاط العلمى الذى تبناه السلاطين وتشجيعهم علماء الشيعة من أمثال نصير الدين الطوسى فى هذا المجال.

أما عن مصادره؛ فقد عول على شهادة العيان والمساءلة والمشافهة والسماع، كما نقل عن مؤرخين سابقين فى تأريخه للعصور السابقة. وبذل جهدا فى نقد وتقويم ما نقل، وأعاد تصنيفه وتبويبه بصورة متسقة ومتجانسة (١). ونشر الوثائق التى حصل عليها من سجلات الدواوين وضمنها مؤلفه (٢).

---

(١) نفسه، ص ٢١٣.

(٢) نفسه، ص ٢٤٢.

ومع ذلك يعاب عليه اعتماد روايات متناقضة أثبتها دون تمحيص، ويحمد له اعترافه بهذه النقيصة وتبريرها بكبر سنه [1]. وأغلب الظن أنه نقل هذه المعلومات على حالها؛ إدراكا منه بأن السابقين كانوا أكثر دراية بخبايا عصورهم [2]. أما ما كتبه عن الفترة التى عاصرها، فهو جد دقيق؛ نظرا لإسهامه فى وضع سياسات السلاطين [3]. إذ صنف كتابه هذا من أجل ترشيدهم، ولأنه ألفه حسب طلب السلطان غازان؛ فقد افتقر إلى الموضوعية فيما أورده عن الإيلخانيين.

كان رشيد الدين «مؤرخ بلاط» منحازا بطبيعة الحال؛ إلا أن ذلك لم يمنعه من ذكرالحقائق أحيانا؛ فقد أشاد بجهود سلاطين المماليك وسلامة خططهم فى حروبهم مع المغول[4]. ولم يتحرج فى إظهار مدى ما اتسمت به حروب أسياده من تخريب وإسراف فى سفك الدماء [5]. كما أشاد - فى الوقت نفسه - بقوانين المغول «شريعة الياسا» واعتبرها صالحة فى التشريع لحكم إمبراطورية كبرى [6].

وفى المجلد الثانى من الجزء الأول للكتاب؛ قدم رشيد الدين فضل الله معلومات مهمة عن النظم الإدارية والمالية والعسكرية والمغولية، وأشاد بعبقرية المغول فى هذا المجال [7]. كما قدم معلومات مهمة فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى؛ إذ عرض للنوائب الطبيعية والكوارث الاجتماعية التى ترتبت على حروب المغول. فأرخ للمجاعات والأوبئة، لتعامل الرعية معها بالعلاج الشعبى [8]. وعرض لأنماط حياة المغول حكومة وشعبا، ووصف طقوسهم وأعيادهم وعاداتهم [9].

كما أرخ للجوائح الاقتصادية، ونظم الجباية، وأوضح ما انطوت عليه من إسراف وشطط [10].

---

(١) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ؛ جـ١، ص ٢٠٠.
(٢) نفسه، ص ٣١٠.
(٣) نفسه، ص ٢٢٠.
(٤) نفسه، ص ٣٣٠.
(٥) نفسه، ص ٣٢٣.
(٦) نفسه، ص ٢٥٨.
(٧) نفسه، جـ١، مجلد ٢، ص ١٨٤.
(٨) نفسه، ص ٢٤٤.
(٩) نفسه، ص ٢٥٧.
(١٠) نفسه، ص ٢٣٠.

وكشف عن نظم البلاط المغولى ورسومه التى كانت محاكاة للنظم والتقاليد الفارسية [١]. كما ترجم لمشاهير رجال الإدارة، من أمراء ووزراء وقواد عسكريين؛ موضحا انتماءاتهم الإثنية والعقدية والمذهبية [٢].

واختص نصير الدين الطوسى باهتمام خاص؛ فأشاد بعلمه وتدينه واعتبره «نصير الملة والدين»، وامتدح أخلاقه وعدد شمائله وصفاته. وأشاد بدوره فى الوساطة عند السلاطين لتحسين أحوال الرعية [٣].

أما عن منهجه، فلم يعول على الإسناد، وجمع بين النظام الحولى وبين التأريخ لموضوعات متكاملة، مرتبا أحداثها وفق التسلسل الزمنى.

وكثيرا ما علل الأحداث تعليلا دنيويا؛ وبرغم ما اتسمت به رؤيته من مسحة دينية، إلا أنها كانت باهتة ومصطنعة.

ويعاب عليه الإسراف فى المديح والمبالغة فى الانحياز للحكام؛ شأنه فى ذلك شأن مؤرخى عصره [٤].

أما عن أسلوبه، فيكتسى مسحة أدبية، وإن غلبت عليه الركاكة أحيانا. كما أسرف فى الصنعة والمجاز، لكن دون إخلال بالمعانى التى عرفها بفهم ووعى واتساق ووضوح [٥]. كما يستشهد كثيرا بالقرآن الكريم والشعر[٦].

خلاصة القول؛ إن كتاب «جامع التواريخ» [٧] يعد أفضل ما ألف فى المشرق الإسلامى فى عصر الإقطاعية العسكرية، لكنه لا يرقى إلى مرتبة تواريخ عصر الازدهار الذى أرخنا له من قبل. لذلك

---

(١) نفسه، ص ٢٣٢.

(٢) نفسه، ص ٢٣٥.

(٣) نفسه، ص ٢٠٣.

(٤) نفسه، ص ١٨٥.

(٥) نفسه، ص ٢٣٤.

(٦) نفسه، ص ٣٤١؛ كمثال.

٧) ننبه إلى اعتمادنا على الجزء الأول منه ـ فى مجلدين ـ فقط؛ لأنه كفيل بإعطاء صورة عن مفهومه للتاريخ؛ وهو مقصدنا الأساسى فى هذا الكتاب.

صدق من نبه إلى ضرورة مراعاة طبيعة العصر الذى كتب فيه هذا المؤلف عند تقويم الكتاب؛ وحق له الحكم بأنه برغم موسوعيته جاء مضطربا ليعبر عن عصر مضطرب أيضا (١).

هكذا لم يختلف الفكر التاريخى فى المشرق عن نظيره فى قلب العالم الإسلامى، كذا عنه فى الغرب الإسلامى الذى سنتناوله فى المبحث التالى.

---

(١) أنظر: فؤاد عبدالمعطى الصياد: المرجع السابق، ص ٢٩٢، ٤٥٧.

المبحث الثالث

الفكر التاريخى فى الغرب الإسلامى

توحد تاريخ بلاد المغرب والأندلس سياسيا فى بعض العصور؛ لكن وحدته الحضارية شملت كل العصور؛ حتى إن المؤرخين القدماء عبروا عن ذلك بمصطلح «العدوتين». فبعد الفتح الإسلامى للمغرب، انطلق المسلمون لفتح الأندلس بجيش من البربر وقائد بربرى أيضا هو طارق بن زياد، ثم تلاه آخر عربى بربرى يقوده موسى بن نصير. لذلك كانت الأندلس تتبع والى «إفريقية» إداريا ردحا من الزمن. وإذ استقلت الأندلس عن الخلافة العباسية عام ١٣٨ هـ، حيث جرى إحياء الدولة الأموية بزعامة عبدالرحمن «الداخل» استقلت بلاد المغرب أيضا، بتأسيس إمارات بورغواطة ونكور وبنى مدرار وبنى رستم والأدارسة. كما قامت الإمارة الأغلبية فى إفريقية، وكانت تابعة إسميا للخلافة العباسية، فى حين استقلت الإمارات السابقة عن العباسيين تماما. وكانت الصلة وثيقة بين هذه الإمارات وبين الدولة الأموية بالأندلس، لمواجهة خصم مشترك يتمثل فى الأغالبة والعباسيين.

وإذا انتهى عصر الاستقلال فى بلاد المغرب بقيام الخلافة الفاطمية عام ٢٩٧ هـ، تحولت الإمارة الأموية فى الأندلس إلى خلافة أيضا عام ٣١٦ هـ فى عهد عبدالرحمن الناصر. ولما اندلع الصراع بينهما؛ كانت ساحته فى بلاد المغرب الأقصى، إلى أن انتهى بنزوح الفاطميين إلى مصر وامتداد النفوذ الأموى إلى بعض الأقاليم الشمالية فى المغرب الأقصى.

وفى الوقت الذى تمزقت فيه بلاد المغرب نتيجة قيام دويلات زناتية متصارعة؛ وجدت هذه النزعة أصداءها فى بلاد الأندلس أيضا، حيث تأسست عدة كيانات صغرى متطاحنة فى عصر ملوك الطوائف.

ولما قامت الدولة المرابطية فى بلاد المغرب؛ تطلعت إلى الأندلس ونجحت فى ضمها، وفى مواجهة الخطر النصرانى الطامع فى «الاسترداد».

وواصلت الدولة الموحدية المغربية هذا الخطر أيضا بعد أن ورثت نفوذ المرابطين فى الأندلس.

وإذ تعرضت بلاد المغرب لأخطار النورمان من قبل؛ فقد تعرضت الأندلس أيضا لأخطار «الفيكنج». فضلا عن النصارى بالأندلس. وأسهم المغاربة بدور مهم فى مواجهة الخطرين معا.

ولماتمزقت الدولة الموحدية بظهور دول بنى حفص وبنى عبدالواد وبنى مرين على إثر سقوط الحكم الموحدى؛ ورث المرينيون دورها فى محاولة استنقاذ الأندلس من خطر «الاسترداد» النصرانى.

تلك صورة موجزة عن ارتباط تاريخ «العدوتين» سياسيا ارتباطا وثيقا. وقد تعاظم هذا الارتباط على الصعيد الحضارى؛ إثنيا وتجاريا وثقافيا. إذ أصبح البربر أحد أهم عناصر السكان بالأندلس، ولم تنقطع الهجرات المتبادلة من وإلى العدوتين. ولعبت التجارة دورا مهما فى توثيق الصلات الحضارية بين الإقليمين، كما أثرت «الرحلة فى طلب العلم» تأثيرا متبادلا بالمثل. ووصلت المؤثرات الحضارية الشرقية ـ عبر مصر ـ لتغمر بلاد المغرب والأندلس سواء بسواء. ويقدم الأدب الجغرافى وكتب الطبقات دليلا ناصعا على هذا التواصل؛ إذ كثيرا ما استوطن علماء وأدباء وفقهاء المغرب مدن الأندلس، والعكس يصح.

وعلى الصعيد الاقتصادى؛ شهدت بلاد المغرب والأندلس سيادة النمط الإقطاعى منذ العصر المرابطى.

وعلى الصعيد الاجتماعى؛ تخلخلت البنية الطبقية والإثنية فى العدوتين معا وفق سياق واحد.

وعلى مستوى الثقافة؛ شهد الإقليمان نفس المعطيات؛ من غلبة الاتجاهات النصية على حساب العقلانية الليبرالية. وغلب فقه مالك على الإقليمين معا، وأثر فقه ابن حزم الظاهرى الأندلسى فى صياغة إديولوجية الموحدين. وكان جل فلاسفة العصر مواطنين أندلسيين ومغاربة فى آن.

بديهى أن يتأثر الفكر التاريخى ـ موضوع الدراسة ـ بتلك المعطيات، وحسبنا أن الكثيرين من مؤرخى العصر استوطنوا الإقليمين معا؛ أو على الأقل كانت لهم رحلات علمية متبادلة. لذلك كثيرا ما كتب مؤرخو المغرب عن الأندلس؛ والعكس صحيح.

لكن هذه الوحدة الفكرية المغربية ـ الأندلسية لا تعنى انفصال الغرب الإسلامى ثقافيا عن المشرق؛ كما تصور بعض المستشرقين والباحثين المغاربة المحدثين. فقد عم العالم الإسلامى ثقافة واحدة، وشهد عصرنا ـ الذى نؤرخ له ـ انحطاط هذه الثقافة فى المشرق والمغرب على السواء. وإذ أثبتنا تلك الحقيقة

فى المجلدين السابقين من المشروع؛ فسنعول على تأكيدها على صعيد الفكر التاريخى فى هذا السفر. وإذ نعالجه فى كل إقليم على حدة؛ فالأمر لا يتعدى نهجا إجرائيا اعتدناه لتسيير الدراسة ليس إلا.

أولا.. فى المغرب:

سنعول على نهجنا المعهود فى دراسة الفكر التاريخى فى بلاد المغرب فى عصر الإقطاعية العسكرية؛ إذ سنعالج الموضوع من خلال رصد وتغطية عدة محاور تتضمن تصنيف مؤرخى العصر حسب المهنة والمذهب، والوقوف على ثقافتهم. وتحديد أجناس الكتابة التاريخية التى طرقوها؛ راصدين ما اندثر منها، وما استحدث، وما استمر. كذا الوقوف على المرجعية التى استمد منها مؤرخو العصر مادتهم التاريخية. ثم التعرف على مناهجهم ورؤاهم، فضلا عن المقاصد التى توخوها من الكتابة فى التاريخ، وتقويم الفكر التاريخى بعامة بعد مقارنة نتاج مؤرخى المغرب بنظيره فى أقطار العالم الإسلامى. وأخيرا؛ دراسة مؤرخ مغربى من خلال أحد أهم مصنفاته كأنموذج يجسد خصائص الكتابة التاريخية فى عصره.

وقبل ولوج باب الدراسة؛ من المفيد التوقف قليلا عند بعض الأحكام الشائعة الخاطئة عن وجود مدرسة مغربية مستقلة فى دراسة التاريخ لا صلة لها بالتاريخ فى المشرق؛ جريا على أحكام علمية شائعة أيضا عن وجود «قطيعة معرفية» عامة بين المشرق والمغرب.

ونلاحظ أن هذه الدعوى ليست بدعا؛ بقدر ما هى نقل عن بعض المستشرقين. يقول أحدهم: «انفصل الفكر التاريخى المغربى والأندلسى عن المشرق تماما» (١). ويذهب غيره - فى السياق نفسه - إلى أن «التاريخ المغربى اختلف عن تاريخ الشرق؛ فى مجال الاهتمام أساسا بالأحداث الداخلية لا الخارجية» (٢). وعلى الوتيرة نفسها مضى أحد تلامذتنا المغاربة النجباء - ولو فى تحفظ - حيث قال: «تعكس المصنفات المغربية الزاخرة بروز الشخصية المغربية، وولوج أعماق شعوبها المنبثقة من جغرافية المغرب»(٣).

---

(١) أنظر: روزنتال: المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٢) أنظر: إيف لاكوست: العلامة ابن خلدون، الترجمة العربية، ص ٢٤٥، بيروت، د.ت.

(٣) أنظر: هاشم العلوى القاسمى: مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجرى، ص ٢١، الرباط ١٩٩٥.

ولن نخوض طويلا فى جدل نظرى مع هذه المقولات؛ إذ سبق لنا مناقشة ما طرح منها على صعيد الفكر بعامة. كما أن العرض التالى كفيل بإثبات هشاشة هذا الزعم. لكننا نذكر بما طرحناه بخصوص الفكر التاريخى فى المباحث السابقة؛ حيث أوضحنا أن نشأة الفكر التاريخى فى المغرب ارتبطت بمعطيات شرقية. وبالمثل أثر مؤرخون مغاربة فى الفكر التاريخى الشرقى بالإيجاب، وقد أوضحنا هذا الدور من خلال هجرة الكثيرين منهم إلى الشرق واستيطان بعضهم العراق والشام ومصر والحجاز؛ كالبرزالى (ت ٧٢٨ هـ) التونسى الأصل الذى استوطن الشام وأسهم بدور فى تعريف مؤرخيها بأحوال المغرب، وعبدالواحد المراكشى (ت النصف الأول من القرن السابع الهجرى) الذى استوطن بغداد وحظى بمكانة مرموقة فى البلاط العباسى(١)، والتجيبى (ت ٦١٠ هـ) الذى قسم إقامته بين الأندلس والمغرب والشرق (٢). كما سبق لنا ذكر الكثيرين من المؤرخين المغاربة الذين استوطنوا الحجاز وجاوروا فى الحرم المكى؛ بما يغنى عن التكرار. وحسبنا الوقوف على سيرة ابن خلدون لتأكيد تجسد مفهوم «التواصل» الثقافى الإسلامى العام؛ حيث أقام فى كل من الأندلس والمغرب ومصر والشام.

ننوه أيضا بوجود الكثيرين من المؤرخين المغاربة الذين استوطنوا الأندلس، كذا بوجود أندلسيين عاشوا فى بلاد المغرب، مثل القاضى عياض (ت ٥٤٤ هـ) الذى أقام ردحا من عمره فى المغرب، وآخر فى الأندلس (٣). أما ابن دحية (ت ٥٤٨ هـ) فقد ولد فى الأندلس، ثم رحل إلى بجاية وتونس ومكة والشام والعراق وإيران وخراسان واستقر به المقام فى مصر (٤). كما تقلب ابن خلدون وابن الخطيب بين حواضر المغرب والأندلس وعملا معا بالسياسة (٥).

ولعل هذا يفسر لماذا كتب مؤرخو المشرق كثيرا عن المغرب والأندلس، كما صنف المغاربة والأندلسيون عن الشرق الإسلامى. ويفسر أيضا اهتمام مؤرخى الغرب بتاريخ الأندلس، والعكس صحيح.

---

(١) عبدالله علام: الدولة الموحدية، ص ١٩، القاهرة د. ت.

(٢) عبدالواحد ذنون طه: موارد تاريخ ابن عذارى المراكشى عن الأندلس، مجلة المعهد العلمى العراقى، جـ٤، مجلد ٣٧، ص ٣٤٧، بغداد ١٩٨٦.

(٣) محمد بن عياض: التعريف بالقاضى عياض فى المغرب، ص ٢، المحمدية، د. ت.

(٤) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسى، الترجمة العربية، ص ٢٠٤، القاهرة ١٩٥٥.

(٥) ابن الخطيب: كناسة الدكان بعد انتقال السكان، ص ٥، ٦، القاهرة، د. ت.

نبدأ دراستنا عن مؤرخى المغرب بتصنيفهم إلى مؤرخين رسميين أو مشتغلين بالسياسة على الأقل، وآخرين امتهنوا القضاء أو العمل فى الدواوين أو التدريس، أو احترفوا الكتابة فى التاريخ وتفرغوا لها. كان معظم هؤلاء سنة مالكية، وبعضهم خوارج إباضية، وقليلون منهم كانوا شيعة إسماعيلية.

أما عن مؤرخى البلاط؛ فشكلوا كثرة التحقت بالحكام الذين أغدقوا عليهم ليكونوا أبواق دعاية ضد خصومهم؛ كما هو الحال فى معظم أقاليم العالم الإسلامى. كان هؤلاء المؤرخون سنة مالكية فى الغالب الأعم، نظرا لغلبة المذهب المالكى على فقه المذاهب الأخرى التى لفظها المجتمع المغاربى. من هؤلاء عبدالواحد المراكشى الذى اضطهده الموحدون؛ فهاجر إلى بغداد والتحق بالبلاط العباسى وكتب كتابه «المعجب» بتكليف من أحد الخلفاء [(1)]. كما كان ابن خلدون (ت ٨٠٩ هـ) على صلة بحكام سائر الدول التى عاش فيها؛ كما هو معروف. أما ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) فقد اشتغل بالكتابة فى دواوين بنى حفص، وتولى بعض الوظائف العليا، ثم امتحن ونفى خارج تونس [(2)]. وينطبق الوضع ذاته على القاضى عياض (ت ٥٤٤ هـ) الذى اصطدم بالموحدين وهاجر إلى الأندلس [(3)]. أما الفتح بن خاقان (ت ٥٢٩ هـ)؛ فمات مقتولا من قبل أحد رجال المرابطين لتطاوله عليهم [(4)]. وخدم ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) وزيرا فى بلاط أمراء بنى الأحمر بغرناطة؛ إلا أنه اصطدم بهم؛ فنفى إلى المغرب [(5)].

ومعلوم أن البيذق (ت حول منتصف القرن السادس الهجرى) كان من رجالات الدولة الموحدية الذين دونوا أخبار مؤسسيها[(6)]. واشتهر ابن القطان (ت ٦٦٥ هـ) بانحيازه للموحدين فيما كتب من تواريخ [(7)]؛ نظرا لتوليه القضاء والإفتاء على مذهب دولتهم.

---

(١) عبدالله علام: المرجع السابق، ص ٢١٩،

على أدهم: بعض مؤرخى الإسلام، ص ١١٢، القاهرة، د. ت.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ٧، ١٩، القاهرة، د. ت.

(٣) محمد بن عياض: المرجع السابق، ص ١٦.

(٤) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٩٧.

(٥) ابن الخطيب: المرجع السابق، ص ٥ من المقدمة.

(٦) البيذق: أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين، ص ٥، الرباط ١٩٧١.

(٧) محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس، ص ١١، القاهرة ١٩٦١.

واشتغل محمد بن عياض (ت أواخر القرن السادس الهجرى) بالقضاء فى المغرب؛ ثم رحل إلى الأندلس فى رفقة والده بعد محنته[١]. كما رحل البرزالى (ت ٧٤٨ هـ) إلى الشام واشتغل بتدريس الحديث [٢]. أما ابن عذارى (ت أواخر القرن السابع الهجرى) فلم يتقلد وظائف عامة وكرس جهده للبحث والدرس [٣].

أما عن مؤرخى الشيعة، فلم نقف منهم إلا على اسم ابن حماد (ت ٦٢٨ هـ) نظرا لاندثار التشيع الإسماعيلى من المغرب بعد رحيل الفاطميين إلى مصر [٤].

ونظرا لوجود الخوارج فى المغرب حتى بعد سقوط دولهم؛ اهتم مؤرخوهم بالتأريخ للمذهب وأعلامه. من هؤلاء الدرجينى (ت ٦٧٠ هـ)، والجنادونى (ت نهاية القرن الخامس الهجرى) [٥]. وسعيد بن سرحان الأذكوى الذى لا نعلم عنه أكثر من ورود اسمه فى المصادر الإباضية المتأخرة. [٦] يقال الأمر ذاته عن سليمان بن يخلف [٧]. منهم أيضا البرادى (ت ٦٩٧ هـ) والشماخى (ت ٩٢٨ هـ) اللذين كتبا فى الطبقات والسير [٨].

تلك لائحة بمشاهير مؤرخى المغرب فى هذا العصر؛ فماذا عن ثقافتهم؟

تميز مؤرخو المغرب بحظ لا بأس به من الثقافة المنفتحة؛ لا لشىء إلا لأن معظمهم كانوا فقهاء أو كتابا، وندر وجود مؤرخين - محدثين. إذ إن عقلية الفقيه تميل إلى التفكير العقلانى؛ تأسيسا على أن علم الفقه - فى تعريفه - هو علم استنباط الأحكام. أما المؤرخ - المحدث فهو محافظ متشبث بالرواية والسماع؛ لذلك يفكر المحدث بذاكرته على عكس الفقيه الذى يعول على العقل.

---

(١) محمد بن عياض: المرجع السابق، ص ٣ من المقدمة.
(٢) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٨٤.
(٣) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق، ص ١٤.
(٤) ابن حماد: أخبار ملوك بنى عبيد، ص ٥ من مقدمة المحقق، القاهرة، د. ت.
(٥) عبدالإله بلمليح.. الرق فى المغرب والأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجرى، ص ٣٠، ٣٥، رسالة دكتوراه، كلية الآداب بفاس، مخطوطة، ٢٠٠٠.
(٦) بوربه مجانى: النظم الإدارية فى بلاد المغرب خلال العصر الفاطمى، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة، ص خ من المقدمة، مخطوطة، قسنطينة ١٩٩٥.
(٧) محمود اسماعيل: الخوارج فى بلاد المغرب، ص ١٥، الدار البيضاء ١٩٧٦.
(٨) نفسه، ص ١٩، ٢٠.

وقد تطور الفكر المالكى - برغم محافظته - ليواجه مستجدات ومستحدثات كان عليه أن يواجهها، وأن يقدم حلولا لمشكلاتها. فانفتح باب الاجتهاد - على الأقل - فى مواجهة المشكلات الحياتية اليومية. ولم يعد الفقيه يعول على الأحكام الفقهية فحسب، بل دعمها بالأعراف السائدة[١]، ومقتضى العادة. كما اجتهد الفقهاء فى إيجاد حلول «للنوازل» - أى المسائل المستحدثة التى تشذ عن الأحكام التقليدية [٢] - فظهر لأول مرة فقه النوازل الذى كان القاضى عياض [٣] رائده بلا منازع. وكانت الإجابة عنها تشكل فقها جديدا يمكن أن نطلق عليه «الفقه العملى» أو «فقه الواقع»، وهو ما أطلق عليه القدماء «العمل المطلق» [٤].

تميزت الثقافة الغربية أيضا باستمرار الكتابة فى علم الكلام والفلسفة - وقد جرى تحريمها فى الشرق - الأمر الذى أثرى معارف المؤرخين. هذا بالإضافة إلى احتدام الصراع الفقهى والكلامى؛ بما يعكس صراعا أعم على الصعيد السياسى. ذلك أن دولتى المرابطين والموحدين قامتا تأسيسا على دعوة مذهبية؛ الأمر الذى انعكس على الفكر التاريخى إيجابا أو سلبا؛ كما سنوضح فى موضعه.

ومع ذلك سادت الثقافة الدينية؛ نتيجة تدهور العلوم الطبيعية والرياضية؛ كظاهرة عامة شملت العالم الإسلامى بأسره، وإن خفف من وطأتها اهتمام المؤرخين بعلوم اللغة والأدب.

لذلك لا ندهش إذا علمنا أن مؤرخا مثل الشماخى صنف فى الفقه، وقدم شروحا فى المنطق، فضلا عن تعمقه فى أصول مذهبه الإباضى وفروعه [٥]. ولسوف نلاحظ أن ما ألفه فى التاريخ «كتاب السير» انطوى على معلومات كلامية وفلسفية؛ كالحدوث والخلق والأزلية [٦]، فضلا عن مباحث فى الحلال والحرام والنوازل الفقهية [٧]. هذا بالإضافة إلى تقديم نماذج من أشعاره [٨].

---

(١) هاشم العلوى: المرجع السابق، ص ٢١.
(٢) نفسه، ص ٢٩.
(٣) القاضى عياض: ترتيب المدارك، جـ١، ص ٦٥، الرباط ١٩٨٣.
(٤) هاشم العلوى: المرجع السابق ص ٣٢، ٣٣.
(٥) أنظر: الشماخى.. كتاب السير، جـ١، ص ج من مقدمة المحقق، عمان ١٩٨٧.
(٦) نفسه، ص ٤٢.
(٧) نفسه، ص ٤٢، ٧٦، ١٠٦، ١٤٠.
(٨) نفسه، ص ٢٠١.

ونعلم أن فقيها مثل القاضى عياض كان موسوعة فى العلوم الدينية[١]، وحجة فى الأنساب وعلوم اللغة [٢]. كما برز ابن الأبار فى الفقه والحديث والمسائل والشروط والأدب [٣].

واتسعت دائرة معارف مؤرخى الشيعة ـ كشأنهم فى العالم الإسلامى عموما ـ إذ نعلم أن ابن حماد ـ المؤرخ الشيعى المغربى الوحيد ـ أحاط علما بالعلوم الدينية وعلم الأصول وعلوم اللغة والأدب والتاريخ، فضلا عن عقائد مذهبه [٤].

لذلك كله؛ تأثرت الكتابة التاريخية المغربية بثقافة المؤرخين؛ موضوعا ومنهجا ورؤية ومقصدا وأسلوبا.

أما عن الموضوعات التى طرقها مؤرخو العصر؛ فنلاحظ أنهم أغفلوا الكتابة فى «التاريخ العالمى»، واهتموا بالتاريخ الإسلامى العام، وتاريخ المغرب وأسراته الحاكمة على نحو خاص. كما صنفوا فى السير والأنساب ـ خصوصا أنساب البربر ـ والمدن والتراجم؛ شأنهم فى ذلك شأن نظرائهم فى الشرق.

وننوه بأن أحد كبار مؤرخى الغرب المحدثين قدم تصنيفا لأجناس الكتابة التاريخية فى المغرب. فصنفها صنفين؛ أحدهما يتعلق بتاريخ الدول والأقطار والبلدان المغربية، فضلا عن التراجم. والثانى قصره على الأدب الجغرافى والموسوعات ومدونات النوازل الفقهية والأنساب ودواوين الشعر والمناقب [٥].

لكننا فى غنى عن هذا التصنيف؛ لا لشىء إلا لأنه لا يتعلق بالفترة التاريخية موضوع دراستنا فقط؛ بل يتجاوزها إلى ما قبلها وما بعدها. وسنعتمد تصنيفا آخر معياره؛ وفرة أو ندرة ما ألف من مؤلفات، كذا التعويل على المذهبية باعتبارها معيارا واقعيا شئنا أم أبينا.

---

(١) محمد بن عياض: المرجع السابق، ص ١٧، ١٨.

(٢) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٦٦.

(٣) الحلة السيراء، جـ١، ص ١٦.

(٤) تاريخ ملوك بنى عبيد، ص ٧ من مقدمة المحقق، الجزائر ١٣٤٦ هـ.

(٥) أنظر: محمد المنونى: المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الحديث، جـ١، ص ١٨، الدار البيضاء، ١٩٨٣.

فى حقل التواريخ الخاصة بالمغرب؛ صنف ابن خلدون كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر»؛ الذى عالج فيه تاريخ المغرب حتى عصره (١). ويتسم بتكرار المعلومات نظرا لمنهجه الغريب فى التأريخ. إذ نراه يؤرخ مرة حسب تسلسل الدول، وأخرى يؤرخ فيها للقبائل المغربية.

أما ابن عذارى؛ فقد صنف كتاب «البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب». وبرغم ميله إلى الاختصار؛ فيعد أكثر تواريخ المغرب حيادا وموضوعية. هذا فضلا عن غزارة مادته فى الجوانب الحضارية (٢). كما صنف المراكشى كتاب «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» (٣). ولعل سبب هذا التلخيص راجع إلى أنه استمد معلوماته من الذاكرة؛ إذ كتبه لأحد خلفاء بنى العباس إبان إقامته فى بغداد، بعد أن طرد من المغرب زمن الموحدين. وقد اهتم فيه بذكر قبائل المغرب وأنماط حياتها على نحو خاص. كما كتب ابن القطان كتاب «نظم الجمان» الذى أرخ فيه لتاريخ *المغرب منذ الفتح الإسلامى إلى نهاية عصر الموحدين* (٤). *وصنف ابن أبى* زرع (ت ٧٤١ هـ) «الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»؛ أما عن بقية الأقاليم الأخرى؛ فاكتفى بذكر أهم أحداثها (٥).

أما عن تاريخ الدول المغربية؛ فجد قليل فى تلك الفترة؛ نظرا لمصادرة الموحدين الكتابة عن خصومهم المرابطين، كذا لانسحاب الفاطميين من قبل إلى مصر. ومن أهم ما كتب فى هذا المجال مؤلف ابن حماد «أخبار ملوك بنى عبيد»؛ إذ أرخ فيه للدولة الفاطمية فى المغرب، كما تابع أخبارها فى مصر حتى سنة ٥٦٤ هـ(٦). وعن قيام دولة الموحدين كتب البيذق «أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين»؛ أرخ فيه للدعوة التومرتية ونظامها وتحولها إلى ثورة ثم دولة؛ حتى عهد عبدالمؤمن بن على (٧).

---

(١) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٥٩، وما بعدها.

(٢) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى خلال القرن السادس الهجرى، ص ١٩، بيروت ١٩٨٣.

(٣) عبدالله علام: المرجع السابق، ص ١٩.

(٤) نفسه، ص ٢٣، ٢٤.

(٥) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٨، الرباط ١٩٧٣.

(٦) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٧ من مقدمة المحقق.

(٧) البيذق: المصدر السابق، ص ٥ من مقدمة المحقق.

وبخصوص قبائل البربر؛ صنف مؤرخ مجهول كتاب «مفاخر البربر» الذى يحوى معلومات مهمة عن الخريطة الديموغرافية للمغرب وما طرأ عليها من تغيرات حتى عصره، ويرجح الدارسون أنه عاش أوائل القرن الثامن الهجرى [١]. كما ألف ابن حماد كتاب «النبذة المحتاجة فى أخبار صنهاجة»؛ نظرا لدورها المهم فى مؤازرة الفاطميين[٢]. ونظرا لاعتناق قبائل زناتة وهوارة وتناوتة ولواتة ونفوسة المذهب الإباضى؛ كتب عنها الشماخى الإباضى باستفاضة [٣]، بما يوضح تأثير الانتماءات المذهبية فى اختيار المؤرخين موضوعات كتاباتهم.

كما كتب مؤرخو العصر عن تاريخ الشرق الإسلامى والأندلسى؛ بما يؤكد الصلات الحضارية برغم الانفصال السياسى. كتب ابن دحية (ت ٥٤٨ هـ) - وهو مؤرخ مغربى استوطن مصر - كتاب «الإعلام المبين فى المفاضلة بين أهل صفين»، وله أيضا «النبراس فى ذكر خلفاء بنى العباس» [٤]. بل إن مؤرخا مجهولا - صاحب كتاب الاستبصار - ضمن مؤلفه معلومات مفصلة عن اثار مصر الفرعونية [٥]. وكتب ابن عذارى «البيان المشرق فى أخبار المشرق» [٦].

وصنف مؤرخون مغاربة عن المغرب والأندلس فى كتاب واحد؛ كما هو حال ابن عذارى فى «البيان المغرب». كما صنف مؤرخ مغربى مجهول مؤلفا عن تاريخ الأندلس؛ اعتمد فى معلوماته على مؤرخين أندلسيين؛ مثل الرازى والعذرى والحميرى [٧].

أما عن تواريخ المدن؛ فهى جد قليلة[٨] - بالقياس للعصور السابقة - نظرا لتحول الولاء إلى الدول المغربية الكبرى منذ نهاية عصر الاستقلال.

---

(١) بوبه مجانى: المرجع السابق، ص «ص» من المقدمة.

(٢) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٨.

(٣) الشماخى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٢٩ وما بعدها.

(٤) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٨٤، ص،

(٥) أنظر: مجهول: كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ٦ من مقدمة المؤلف، الإسكندرية ١٩٥٨.

(٦) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٧) عبدالمحسن رمضان: الحروب الصليبية فى الأندلس، ص ٤٨، ٤٩، القاهرة ٢٠٠١.

(٨) إبراهيم القادرى: تاريخ الغرب الإسلامى، ص ٦٢٥، بيروت ١٩٩٤.

فلم نقف إلا على مؤلف واحد هو «العيون الستة فى أخبار سبتة» للقاضى عياض [1]. ومع ذلك انطوت التواريخ المغربية العامة عن الكثير من أخبار المدن؛ كما هو الحال فى كتاب «البيان المغرب» لابن عذارى [2].

واهتم المؤرخون بالكتابة فى نظم الحكم؛ خصوصا فى موضوع «الإمامة». فصنف ابن صاحب الصلاة (ت أواخر القرن السادس الهجرى) «المن بالإمامة» عرض فيه لشروط توليهاونظمها ورسومها؛ مدافعا عن نظام الحكم الموحدى الذى وضعه المهدى بن تومرت متأثرا بالمفهوم الشيعى للإمامة [3].

وكتب مؤرخو الخوارج فى نفس الموضوع بعد القضاء على دولهم فى المغرب وتطلعهم إلى إحيائها. وفى هذا الصدد صنف الأذكوى كتاب «كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة»؛ داعيا فيه إلى إقامة «إمامة الظهور» [4]. وألف الشماخى كتاب «شرح متن الديانات»، فضلا عن رسائل فى «العقائد والملل» و«علم الكلام»؛ وكلها كتب تعرض لموضوع الإمامة وفق تعاليم المذهب الإباضى [5].

كما اهتم مؤرخو العصر بالتأريخ للأحوال الاقتصادية والاجتماعية ضمن مؤلفاتهم العامة، ولم يفردوا لها كتبا مستقلة. إذ غالبا ما تعرضوا للجوائح الطبيعية كالزلازل ومناسيب الأمطار والجبايات وسنوات القحط والجراد.. الخ. كما هو حال الشماخى فى كتاب «السير» الذى تضمن معلومات عن الطعام والشراب؛ حلاله وحرامه، وعن الفلاحة والرعى والسقاية.. إلخ[6].

وتحفل المؤلفات الخاصة بالفقه والنوازل بمعلومات أكثر غزارة وأهمية؛ إذ عرضت لموضوعات اقتصادية كالزراعة، والشراكة، والبيوع، والسمسرة

---

(١) بالنشيا: المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢) تضمن معلومات ضافية عن مدن فاس وسبتة وأصيلا وغيرها.

أنظر: ابن عذارى: المرجع السابق، جـ١، ص ٢٨٧، ٣٢٣، ٣٣١: كمثال.

(٣) سامية مصطفى مسعد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى إقليم غرناطة فى عهد المرابطين والموحدين، ص ١٠، رسالة دكتوراه، جامعة الزقازيق، مخطوطة ١٩٨٧.

(٤) بوبه مجانى: المرجع السابق، ص ح من المقدمة.

(٥) الشماخى: المصدر السابق، جـ١ ص ج، د من مقدمة المحقق.

(٦) نفسه، ص ٤٦ ـ ٤٩، ٧٦، ١٤٠ وما بعدها: كأمثلة.

والإفلاس والدين؛ موضحة آراء الفقهاء بصددها [١]. كما تحدث صاحب «كتاب الاستبصار» عن العملة والأسعار والإدارة المالية وأحكام الأسواق ونحوها [٢]. واهتم ابن عذارى [٣] بالنظم المالية كالخراج والجبايات الشرعية والمغارم وغيرها.

كما حظيت الأوضاع الاجتماعية باهتمام مماثل؛ فتحدث الشماخى[٤] - مثلا - عن الطرق الصوفية ومكانة المرأة، ونظام «العزابة» والرق. وعن الرقيق وفقهه زودنا محمد بن عياض بمعلومات ضافية عن شروط عتقه وأنواعه وتجارته.. الخ من المعلومات المهمة [٥] التى تكشف عن تغلغل ظاهرة العبودية فى مغرب القرنين الخامس والسادس الهجريين [٦].

وعزت الكتابة فى «الأنساب» لبروز دور البربر فى الحياة السياسية، واندثار نفوذ العرب؛ خصوصا بعد رحيل الفاطميين إلى مصر وظهور كيانات سياسية زناتية، تلتها إمبراطوريات بربرية، تبعتها دول مغربية ارتكزت على عصبيات قبلية من البربر. وهو أمر يشكك فى حكم أحد الدارسين بتعاظم ظاهرة الكتابة فى الأنساب بالمغرب [٧]. ولو صح ذلك؛ فلا ينطبق إلا على العصور التالية، حيث اهتم الأشراف العلويون بالكتابة فى الأنساب.

أما عن التراجم والطبقات؛ فقد تعاظمت الكتابة فيها؛ للصراع المذهبى والفقهى الذى اشتد لهيبه فى هذا العصر. وجرى ذلك على حساب الكتابة فى «السير»؛ إذ لم نقف إلا على مؤلف واحد؛ هو «سيرة المهدى بن تومرت» للبيذق. وما كتب فى السير تناول مشاهير الفقهاء الذين كتب بعضهم سيرهم الخاصة بأقلامهم؛ كما هو حال القاضى عياض. واعتمد ابنه محمد بن عياض على ما كتبه والده فى تدبيج سيرة له أوسع وأشمل [٨].

---

(١) أنظر: محمد بن عياض: المصدر السابق، ص ١٨ وما بعدها.
(٢) عز الدين موسى: المرجع السابق، ص ١٧.
(٣) البيان المغربى، جـ ١، ٢٠٦، ٢٠٧؛ كمثال.
(٤) كتاب السير، جـ٢، ص ١٢، ٦٧؛ كمثال.
(٥) التعريف بالقاضى عياض، ص ٢٠، ٢١.
(٦) عن مزيد من المعلومات راجع:
عبدالإله بلمليح: المرجع السابق، ص ٣٠، ٣٣، ٣٥، ٣٦.
(٧) أنظر: روزنتال: المرجع السابق، ص ١٢٧.
(٨) عرض محمد بن عياض سيرة والده مفصلة، إذ تحدث عن مولده ونشأته وشيوخه، كما عرض لأخبار أسرته معللا انتقالها من المغرب إلى الأندلس. كما سجل الكثير من مأثورات أقواله ودقائق أفعاله وأحواله.. وأسرف فى ذكر مآثره وفضائله ودوره فى خدمة الفقه المالكى وأعلامه. كذا استطرد فى عرض وقائع تتعلق بعدله حين تولى القضاء. محمد بن عياض: المصدر السابق، ص ٢ - ١٢، ١٥ وما بعدها، ١٧، وما بعدها، ٨٩، وما بعدها، ١١٣، وما بعدها، ١٣٧ وما بعدها.

واهتم مؤرخو الإباضية بالترجمة لشيوخ المذهب وأعلامه فى الغرب والشرق على السواء. وبالغوا فى ذكر مآثرهم إلى حد ذكر أساطير وكرامات وخرافات؛ كما هو الحال فى «سير الشماخى» و«طبقات الإباضية» للدرجينى، و«سير» أبى الربيع الوسيانى وغيرهم.

وعن طبقات المالكية كتب القاضى عياض (ت ٥٤٤ هـ) «ترتيب المدارك فى معرفة أعلام مذهب مالك»، وصنف الدباغ (ت ٦٨٦ هـ) «معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان»، وألف ابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ) «الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب». وتنطوى هذه المؤلفات على روح التعصب المقيت للمالكية، والتحامل على الأحناف والخوارج والشيعة والمعتزلة إلى حد اتهامهم بالكفر (١).

كما ترجم مؤرخو العصر للشعراء والأدباء؛ فصنف ابن الأبار كتاب «الحلة السيراء» الزاخر بمعلومات سياسية نادرة، فضلا عن أخرى تتعلق بالاقتصاد والاجتماع والثقافة (٢). كما كتب ابن الخطيب تراجم للفقهاء، وأخرى للشعراء؛ مثل كتاب «السفرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة» (٣). وبرغم ما تحويه هذه المصنفات من معلومات غزيرة؛ إلا أن حظها من الموضوعية جد ضئيل. لذلك حق لأحد تلامذتنا النجباء (٤) أن ينبه إلى توخى الحذر فى التعامل مع مادتها التاريخية.

كما جرى الاهتمام بالترجمة لشيوخ المتصوفة وأعلامهم. وننوه بأن كتب الطبقات المذهبية السابقة انطوت على تراجم ضافية لأعلام التصوف؛ نظرا لانتشاره بين أتباع الفرق والمذاهب الفقهية. كما صنف بعض المتصوفة تراجم مستقلة فى هذا الصدد؛ لعل من أشهرها كتاب «التشوف إلى رجال التصوف» للزيات (٥) (ت ٦٢٧ هـ)، وإن عابه الإسراف فى ذكر الخوارق والأساطير والكرامات.

تلك هى أجناس الكتابة التاريخية التى تطرق إليها مؤرخو العصر؛ فماذا عن مرجعياتهم؟

---

(١) محمود إسماعيل: مغربيات، ص ٥٧ وما بعدها، فاس ١٩٧٧.
(٢) ابن الأبار: المصدر السابق، جـ١، ص ٤٣؛ كمثال.
(٣) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٣٠٢.
(٤) أنظر: إبراهيم القادرى: المرجع السابق، ص ١٢٥.
(٥) عز الدين موسى: المرجع السابق، ص ٢١.

لا تختلف مرجعيات مؤرخى المغرب عن نظيرتها فى الشرق؛ إذ استمد المؤرخون معلوماتهم من مصادر متنوعة؛ مثل شهادة العيان والمساءلة والمشافهة والسماع والوثائق؛ فيما كتبوه عن العصر الذى عاشوه. كما اعتمدوا النقل فيما يتعلق بالكتابة عن العصور السابقة.

وعن شهادة العيان؛ سجل صاحب «كتاب الاستبصار» ما شاهده إبان تسفاراته إلى الشرق وإلى بلاد السودان(١). واعتمد مؤرخو البلاط هذه الوسيلة؛ خصوصا أن الكثيرين منهم شاركوا فى أحداث عصرهم؛ كما هو شأن ابن خلدون وابن الخطيب. كما أضاف بعض المؤرخين السماع والمساءلة إلى شهادة العيان؛ كالقاضى عياض وابنه محمد (٢). ويخبرنا ابن عذارى أنه استقى الكثير من معلوماته عن أحداث عصره من شهود عيان عن طريق السماع والمساءلة (٣). وأثبت الشماخى أسماء من سمع منهم وروى عنهم (٤)، إلى جانب من التقاهم من شيوخ الإباضية؛ فوصف صفاتهم وأخلاقهم وحظوظهم من العلم، بل وصف شخوصهم وسماتهم الجسدية وصفا دقيقا. وكذلك كان حال ابن صاحب الصلاة (٥).

أما عن الوثائق؛ فكان الاطلاع عليها ميسورا بالنسبة لمؤرخى البلاط وكتاب الدواوين؛ وحتى المؤرخين الرحالة. لذلك أثبت البيذق - مؤرخ الموحدين - الكثير من الوثائق الموحدية الخاصة بالدعوة والثورة فى كتابه «سيرة المهدى بن تومرت» (٦). كما انفرد ابن القطان بإثبات رسائل مهمة بين ابن تومرت وطلبته(٧).

ومن المؤرخين غير الرسميين؛ نعلم أن محمد بن عياض أثبت فى كتابه عن

---

(١) كتاب الاستبصار، ص. ح من مقدمة المحقق.
(٢) عبدالإله بلمليح: المرجع السابق، ص ٣٦.
(٣) البيان المغرب، جـ ١، ص ١٠٧.
(٤) كتاب السير، جـ١، ص ١٦٥: كمثال.
(٥) عز الدين موسى: المرجع السابق، ص ١٧.
(٦) البيذق: المصدر السابق، ص ٣٥.
(٧) عبدالله علام: المرجع السابق، ص ١١
عز الدين موسى: المرجع السابق، ص ١٨
سامية مصطفى مسعد: المرجع السابق، ص ٩.

سيرة والده الكثير من رسائله مع حكام عصره[1]. وأشار صاحب «كتاب الاستبصار» إلى اطلاعه على وثائق مرابطية تتعلق بمراسلات بين المرابطين وحكام غانه [2]. ولعل سهولة الحصول على مثل هذه الوثائق كان سببا فى إقدام ابن الخطيب على جمع الكثير منها وسجلها فى كتابه «كناسة الدكان» [3].

لذلك لم يخطئ أحد تلامذتنا النابهين حين حكم بأن الوثائق شكلت المصدر الأساسى لما كتب فى هذا العصر؛ سواء أكانت وثائق سياسية أو فقهية [4].

وفيما يتعلق بمرجعية ما كتب عن العصور السابقة؛ فعمدتها النقل من مؤلفات السابقين. وفى الغالب الأعم كان النقلة يشيرون إلى مصادرهم ويميزون بين ما نقلوه وبين ما أضافوه من عندياتهم بكلمة «قلنا»؛ كما هو حال مؤلف «كتاب الاستبصار» [5]. وكان مؤرخو الشيعة والخوارج لا ينقلون عن المصادر الشيعية أو الخارجية، وإن نقل بعضهم من مصادر مغايرة لمذهبهم. فالشماخى - مثلا - نقل من مصنفات إباضية سابقة، مثل كتابات ابن سلام[6] وأبى زكريا [7] الإباضيين، ومن غير الإباضية نقل عن المسعودى وأشار إليه [8].

وعرف عن ابن عذارى أمانته العلمية فى إثبات أسماء من نقل عنهم؛ كالتجيبى [9] وابن صاحب الصلاة[10] وابن حماد [11]. وكذلك كان حال ابن أبى زرع الذى غالبا ما ميز بين المنقول وبين ما أضافه من لدنه [12].

لكن بعض مؤرخى العصر أسرفوا فى النقل دون ذكر المصادر التى نقلوا عنها؛ كالفتح ابن خاقان [13].

---

(١) التعريف بالقاضى عياض، ص ١٦٧؛ كمثال.
(٢) مؤرخ مجهول: ص ت من مقدمة المحقق، الإسكندرية ١٩٥٨.
(٣) كناسة الدكان، ص ٤.
(٤) أنظر: هاشم العلوى: المرجع السابق، ص ٢٠.
(٥) كتاب الاستبصار، ص ب من مقدمة المحقق.
(٦) كتاب السير، جـ٢، ص ١٢.
(٧) نفسه، ص ١٢٤.
(٨) نفسه، جـ١، ص ٢٣٠.
(٩) البيان المغرب، جـ ١، ص ٧.
(١٠) نفسه، ص ١٩.
(١١) نفسه، ص ٢٧.
(١٢) الأنيس المطرب، ص ٣٢؛ كمثال.
(١٣) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٩٧.

وهذا يقودنا إلى الحديث عن منهجية هؤلاء المؤرخين.

لم يهتم المؤرخون عموما بالإسناد؛ نظرا لاستقرار الرواية وطول المدى الزمنى بين المؤرخين السابقين ومؤرخى العصر، فاكتفوا بنقل مضمون الرواية دون إسنادها مع الإشارة إلى المصدر الذى نقلوا عنه. وتقاعسوا فى بعض الأحيان عن المصدر مكتفين بذكر كلمة «قيل». ويبدو أن التحقق من صحة الإسناد كان منعدما، وفى الغالب الأعم؛ نقل المضمون حتى بأخطائه دون نقد للرواية. وإن شذ عن ذلك بعض المؤرخين من أمثال ابن عذارى. فحين نقل عن الرقيق القيروانى [١] والوراق وابن الخطيب وابن حماد [٢] وابن أبى الفياض وابن حزم والخشنى والواقدى والطبرى وغيرهم [٣]، أعمل فى روايتهم الفحص والنظر. يقول فى هذا الصدد «أخذت الأخبار عنهم بتحقيق» [٤].

أما عن ترتيب الحوادث؛ فقد اعتمدت قلة من مؤرخى العصر نظام الحوليات؛ فرتبوا الوقائع على حساب السنوات. لكن معظمهم مزج بين النظام الحولى ونظام الموضوع المتكامل؛ أى تحدثوا عن موضوعات ـ كعهد حاكم مثلا ـ ذاكرين كل ما يتعلق بأعماله وسياساته؛ مع مراعاة تسلسل الأحداث حسب توقيت وقوعها. وقد أطلق ابن عذارى على هذا النهج اصطلاح «نسق التاريخ» [٥]. وقد اتبع هذا النسق «لئلا ينقطع خبرها»[٦] أى خبر الموضوعات التى درسها كوحدة متكاملة. ولم يكن هذا النهج إبداعا لابن عذارى؛ فقد سبقه إليه ابن حماد[٧] فى المغرب، الذى استقاه بدوره من مصادر شرقية. كما عول عليه المراكشى فى كتاب «المعجب»[٨].

أما عن ترتيب التراجم؛ فقد صنفها البعض حسب حروف الهجاء؛ مثل القاضى عياض [٩]، ومنهم من رتبها حسب أهمية المترجم له؛ كما فعل

---

(١) البيان المغرب، جـ١، ص ٢٥.
(٢) نفسه، ص ٢٢٧.
(٣) نفسه، ص ١٤، ٢٧، ٢١٠.
(٤) نفسه، ص ٣.
(٥) نفسه، ص ٢٢٧.
(٦) نفسه، ص ٤.
(٧) تاريخ ملوك بنى عبيد، ص ٩٥.
(٨) عبدالله علام: المرجع السابق، ص ٢.
(٩) أنظر: محمد بن عياض: المرجع السابق، ص ١١٩.

بسام [١]. واهتم كتاب التراجم والطبقات بذكر معلومات ضافية عن المترجم لهم، إلى حد رصد دقائق صفاتهم [٢] الجسمانية.

أما عن خصائص العرض التاريخي؛ فقد ساد أسلوب السرد الوصفي، وإن أضاف إليه البعض أسلوب القص والحكى الحوارى؛ كما هو حال الشماخى على سبيل المثال [٣]. وكذلك كان حال البيذق [٤].

وأسرف البعض فى الإطناب والاسترسال، ومال البعض الآخر إلى الإيجاز والمباشرة، كما هو حال ابن عذارى [٥].

كما جرى الاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية وأقوال السلف[٦] . أما عن الاستشهاد بالشعر؛ فكان عاما عند معظم المؤرخين. بل منهم من نظم بعض موضوعات التأريخ شعرا؛ كالشماخى[٧] ومحمد بن عياض [٨].

أما عن الموضوعية؛ فتكاد تكون مفتقدة عند جل المؤرخين؛ خصوصا إذا ما تعلق الأمر بتقويم سياسات الحكام والدول؛ نظرا لكون غالبيتهم مؤرخى بلاط أو مؤرخين ذات انتماءات مذهبية.

بخصوص الصنف الأول، تحامل البيذق ـ مؤرخ موحدى ـ على المرابطين واتهمهم بالتجسيم المخالف للشرع [٩]. كما رماهم ابن القطان بالتهمة ذاتها [١٠].

وأثر عن ابن خلدون انحيازه إلى الحكام [١١]. ومن خالف هذا النهج

---

(١) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٩٠.
(٢) أنظر: الشماخى: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢؛ كمثال.
(٣) نفسه، جـ ١، ص ١١٨، ١٤٧، ١٦٠.
(٤) سيرة المهدى بن تومرت، ص ١٦؛ كمثال.
(٥) أنظر: البيان المغربى؛ جـ١، ص ٥٤؛ كمثال.
(٦) أنظر: الشماخى: المرجع السابق، جـ١، ص ١٧٢؛ كمثال.
(٧) نفسه، ص ٢٠١.
(٨) التعريف بالقاضى عياض، ص ١٧، ١٨.
(٩) أخبار المهدى بن تومرت، ص ٢١.
(١٠) عبدالله علام: المرجع السابق، ص ٢٦.
(١١) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٦٠.

تعرض للعنت والاضطهاد وعوقب بالنفى خارج البلاد؛ كما هو حال المراكشى [١] وابن الأبار[٢] فى عصر الموحدين.

لذلك تغاضى المؤرخون عن انتقاد الحكام وسياساتهم المشتطة؛ بل غالوا فى امتداحهم بالحق أو بالباطل[٣]. كما وصف البيذق المهدى تومرت بالإمام «المعصوم» [٤].

أما ابن عذارى؛ فبرغم عدم انحيازه إلى السلاطين؛ تجاوز الموضوعية حين تحامل على الخوارج والشيعة بصورة مقذعة. فنعت الخوارج بالزندقة والخروج عن الدين [٥]. أما الشيعة؛ «فمذهبم فاسد» [٦] وندد بعبيد الله المهدى ـ مؤسس الدولة الفاطمية ـ وأرجع نسبه إلى اليهود [٧].

كما اشتط مؤرخو المذاهب والفرق فى نقد الخصوم. مثال ذلك تحامل الشماخى على الإباضية «النكار»؛ لأنه كان إباضيا «وهبيا» [٨].

أما عن التعليل والتفسير؛ أى رؤية المؤرخين لأسباب الأحداث والوقائع؛ فقد غلبت عليها الغيبية والمذهبية والخرافة. وإذ تجاوز البعض ذلك؛ ففسر التاريخ كفعاليات بشرية وظواهر للعمران البشرى؛ فلم تتجاوز هذه الرؤية حد التنظير المجرد؛ كما هو حال ابن خلدون الذى ألح على الرؤية الشعوبية والقبلية حين كتب «كتاب العبر». لذلك أخطأ من حكم على الرؤية الخدلونية بأنها تمثل إرهاصات مادية جدلية [٩]، كذا من قال بأنه «أول من عرف النقد المنهجى» [١٠].

---

(١) نفى المراكشى إلى الشرق. أنظر: عبدالله علام: المرجع السابق، ص ١٩.
(٢) نفى ابن الأبار من الأندلس إلى المغرب. أنظر: الحلة السيراء، جـ١ ص ١٩.
(٣) وصف ابن الخطيب أحد حكام بنى نصر بصفات «الأسعد، الأوحد، الأسمى، الأمنع، الأنجب، الباسل، المعظم، المقدس، صاحب الجهاد المبرور والسعى المشكور». أنظر: كناسة الدكان، ص ٤٩.
(٤) سيرة المهدى بن تومرت، ص ١٢.
(٥) البيان المغربى، جـ ١، ص ٦٤.
(٦) نفسه، ص ١٦٦.
(٧) نفسه، ص ٢١٨، ٢١٩.
(٨) كتاب السير، جـ٢، ص ٣٤.
(٩) أنظر: طيب تيزينى: المرجع السابق، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٦.
(١٠) أنظر: إيف لاكوست، المرجع السابق، ص ١٨١.

صحيح أن ابن خلدون عرض فى «مقدمته» لهذه الرؤى المتطورة للتاريخ؛ لكنه لم يطبقها حين صنف كتاب «العبر»؛ الذى عول فيه على «العصبية» و«الدين»؛ باعتبارهما القوة الضاربة الكامنة وراء قيام الدول وسقوطها. وحتى مقولاته عن «العصبية» - التى زعم بعض الدارسين أنها من إبداع ابن خلدون وابتكاره [(١)] - نرى أنه اقتبسها من مؤرخ مغربى سابق؛ هو ابن أبى زع، وهو ما سنثبته موثقا فى نهاية هذا العرض. وقد سبق لنا إثبات اقتباسه جل النظريات التى ادعى أنها من عندياته؛ إذ أخذها عن إخوان الصفا، [(٢)] بل إنه خاصم العقل وآمن بالتنجيم وعول على الرؤية اللاهوتية؛ سواء فى مقدمته أو فى تاريخه.

لقد طغت الرؤية الغيبية على تعليلات البيذق وتفسيراته؛ حين وصم خصوم الموحدين بالزندقة [(٣)]، وحين فسر انتصارات الموحدين على نصارى الأندلس؛ فأرجع النصر إلى «الله الذى أخذهم أخذ عزيز مقتدر» [(٤)]. كما فسر بعض أحداث عصره معولا على التنجيم والرؤى المنامية[(٥)]، فضلا عن الكرامات والبركات [(٦)].

وعلى نفس الوتيرة؛ درج ابن عذارى حين فسر الأحداث الكارثية الكبرى بأنها من «غضب الله» على البشر، وحين أرجع ابتلاء بعض *الحكام الجائرين بالمرض العضال إلى انتقامات إلهية* [(٧)]. كما اعتمد الأسطورة أساسا فى التفسير؛ إذ أرجع تأسيس مدينة «سبتة» إلى رجل من ولد سام بن نوح يدعى «سبت» [(٨)].

وبلغت الأسطورة والخرافة والتفسير الغيبى الذروة عند مؤرخى الفرق. فقد وصف الشماخى - مثلا - أئمة الإباضية بأنهم «مجابو الدعاء» [(٩)]. وأن كراماتهم ظهرت إبان حياتهم وأثناء تشييع جنازاتهم وبعدها[(١٠)].

---

(١) قال بذلك عبدالله العروى؛ المؤرخ المغربى الكبير. أنظر: محمود إسماعيل: هل انتهت أسطورة ابن خلدون، ص ٢٠٥، ٢٠٦، القاهرة ٢٠٠٠.

(٢) أنظر: محمود إسماعيل: نهاية أسطورة، القاهرة ٢٠٠٠.

(٣) سيرة المهدى بن تومرت، ص ٦٧.

(٤) نفسه، ص ٨٢.

(٥) نفسه، ص ٤٢ .

(٦) نفسه، ص ٣٩.

(٧) البيان المغرب، جـ١، ص ٤٠٥؛ كمثال.

(٨) نفسه، ص ٢٨٧.

(٩) كتاب السير، جـ١، ص ١٨٠.

(١٠) نفسه، جـ٢، ص ٩.

ويقال الحكم ذاته على مؤرخى السنة المالكية؛ من أمثال محمد بن عياض الذى حكى عن والده قصصا أسطوريا يصل إلى حد الإتيان بالمعجزات [(١)]. كقوله بحضور الملائكة مراسم تشييع جثمانه[(٢)]، وأنه يحيا فى الجنة بصحبة عمر بن الخطاب [(٣)].

وعند البيذق؛ ربط بين انتصارات الموحدين وهزائمهم وبين «السعد والنحس» [(٤)]. كما ربط ابن حماد بين الأحداث على الأرض وبين حركات الكواكب والأفلاك؛ فذكر أن «القمر كسف كسوفا كليا يوم وفاة المهدى» [(٥)].

ولا نشاح ـ لذلك كله ـ فى حكم أحد تلامذتنا المغاربة النجباء حين اعتبر فكرة «البطل الأسطورى» قاسما مشتركا فى تفسيرات مؤرخى المغرب عامة فى هذا العصر [(٦)]؛ مشاركا فى ذلك أحد كبار المتخصصين [(٧)] المعاصرين فى تاريخ المغرب خلال العصور الإسلامية.

ومع ذلك وجد من مؤرخى العصر من اعتبر التاريخ أحداثا دنيوية جرى تعليلها وتفسيرها تفسيرا وضعانيا [(٨)]؛ خصوصا ما تعلق منها بالحياة العامة؛ كما هو حال القاضى عياض [(٩)]، وغيره من المؤرخين الفقهاء من أمثال ابن القطان [(١٠)].

وإذ تبارى المؤرخون الرسميون فى التأريخ للأسرات الحاكمة وسير سلاطينها؛ فلا نعدم وجود مؤرخين انحازوا لطبقة العامة؛ كما هو شأن ابن عذارى الذى عزف عن المناصب الرسمية وآثر الاعتكاف والتفرغ للبحث والدرس والتأليف. لذلك انطوت كتاباته على قدر من الحياد

---

(١) التعريف بالقاضى عياض، ص ١٧.
(٢) نفسه، ص ١٨.
(٣) نفسه، ص ٢٠.
(٤) سيرة المهدى بن تومرت، ص ٢٥.
(٥) أخبار ملوك بنى عبيد، ص ٤٩.
(٦) إبراهيم القادرى: المرجع السابق، ص ١٢٤.
(٧) أنظر: سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربى، ص ٩، الإسكندرية ١٩٩٥.
(٨) هاشم العلوى: المرجع السابق، ص ٢٩.
(٩) أنظر: القاضى عياض: ترتيب المدارك فى معرفة أعلام مذهب مالك، جـ ١، ص ٥، الرباط ١٩٨٣.
(١٠) عبدالإله بلمليح: المرجع السابق، ص ٣٠.

والموضوعية. بل يمكن الجزم بانحيازه للرعية ضد السلطة؛ إذ تعاطف مع حركات العوام وأرخ لها فى ثنايا «البيان المغرب» (١).

وهذا يقودنا إلى محاولة الكشف عن مقاصد مؤرخى العصر وغاياتهم المستهدفة من كتابة التاريخ.

ليس من شك فى أن بعض مؤرخى العصر صنفوا فى التاريخ لغاية معرفية صرفة، كما هو حال ابن عذارى الذى اتخذ من «المطالعة حلية»(٢) على حد قوله. ويرى بعض الدارسين أن مؤرخى الطبقات والتراجم تعرضوا لنفس المقاصد(٣). لكننا نرى العكس؛ إذ كتبت لغرض تعليمى سياسى فى الغالب الأعم. فمؤرخو الطبقات الإباضية استهدفوا الحفاظ على تراث المذهب فى وقت تعرض فيه الإباضية للأخطار. لذلك كتبوا بهدف دعوة جمهور الإباضية للتشبث بالمذهب والحفاظ عليه من الاندثار(٤). مصداق ذلك قول الشماخى فى مقدمة «كتاب السير» أنه ألفه «لمعرفة من مضى من أسلافنا وإظهار منهج الحق مشرقا»(٥).

كما استهدف البيذق غاية تعليمية ذات توجه سياسى اجتماعى فحواه «دفع المظالم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» (٦)؛ مستهدفا بذلك حكم المرابطين.

أما عن مؤرخى السلطة؛ فقد كتبوا لتحقيق غايتين؛ الأولى هى الدعاية للحكومات القائمة، والثانية هى الحصول على المال والجاه. مثال ذلك ما ذكره المراكشى فى مقدمة كتاب «المعجب»؛ مشيدا بمآثر الخلافة العباسية وإغداقها عليه حيث قال: «.... أيها السيد الذى توالت على نعمه، وأخذ بضبعى من حضيض الفقر والخمول.. إلخ» (٧).

---

(١) سعيد أبو زيد: الحياة الاجتماعية فى الأندلس فى عصر دولتى المرابطين والموحدين، ص ٩، القاهرة ١٩٩٦.
(٢) البيان المغرب، جـ١، ص ١٤.
(٣) أنظر:
إبراهيم القادرى: المرجع السابق، ص ١٢٦.
(٤) محمود إسماعيل: الخوارج، ص ١٩، ٢٠.
(٥) الشماخى: المرجع السابق، جـ١، ص ١.
(٦) البيذق: المرجع السابق، ص ٢.
(٧) المراكشى: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص ٦، القاهرة ١٩٦٣.

أما عن الأسلوب؛ فقد كتب مؤرخو العصر فى الغالب الأعم نثرا مرسلا بليغا فى بعض الأحيان. كما آثر آخرون أسلوب السجع والصنعة، دونما تذويق متكلف؛ كما هو حال محمد بن عياض[١]، وحال أبيه الذى كان من مشاهير أدباء عصره[٢]. وبلغت البلاغة آية ذروتها فى أسلوب ابن الخطيب[٣] وابن الأبار. أما ابن عذارى؛ فقد مزج بين النثر المرسل والسجع غير المتكلف[٤]؛ وكذلك كان حال ابن حماد[٥]. أما ابن خلدون فقد كتب نثرا مسجوعا متكلفا فى الجزء الخاص بحديثه عن المؤرخين [٦] ثم اتبع أسلوبا نثريا يكتنفه الغموض؛ نتيجة نقله عن السابقين دون وعى وروية[٧].

خلاصة القول؛ إن الفكر التاريخى فى المغرب حمل ذات الخصائص العامة لنظيره فى العالم الإسلامي. وإن تميز ببعض الخصوصية المنبثقة من خصوصية البنية الإثنية للمجتمعات المغربية.

ومن أجل تأكيد هذا الحكم نعرض لمؤرخ مغربى فى شيء من التفصيل كأنموذج يجسد خصائص الكتابة التاريخية فى عصره.

أنموذجنا المختار هو ابن أبى زرع (ت ٧٤١ هـ) وكتابه «الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس».

عاش ابن أبى زرع فى كنف دولة بنى مرين؛ كشاهد عدول فى مدينة فاس. ولا نعرف شيئا عن أصله أو ثقافته؛ لكن نهجه فى مؤلفه الذى نحن بصدده وطبيعة وظيفته تنم عن محدودية ثقافته. كما نستشف من مؤلفه أيضا أنه كان سنيا على مذهب الإمام مالك.

يؤرخ كتابه للدول التى قامت فى المغرب الأقصى فقط، على عكس ما يوحى به العنوان؛ عن كونه مؤلفا فى تاريخ المغرب العام. إذ إن ما ورد عن الكيانات الأخرى فى المغربين الأوسط والأدنى وإفريقية لا يتعدى رصدا

---

(١) التعريف بالقاضى عياض، ص ٩١؛ كمثال.
(٢) نفسه، ص ٩٥.
(٣) كناسة الدكان، ص ٥؛ كمثال.
(٤) الحلة السيراء؛ جـ١ ص ٥٣؛ كمثال.
(٥) البيان المغرب، جـ١، ص ٤٢٥؛ كمثال.
(٦) أخبار ملوك بنى عبيد، ص ٢٧٢، ٢٧٤؛ كمثال.
(٧) محمود إسماعيل: نهاية أسطورة، ص ١٥.

لأهم الأحداث وردت فى صورة أخبار موجزة، كتبها فى نهاية كل عهد من عهود حكام المغرب الأقصي.

وبرغم ضآلة مستوى التأليف؛ إلا أن الكتاب يحوى معلومات فريدة؛ نقلها ابن أبى زرع من مصادر مغربية مفقودة. وتتعلق هذه المعلومات بالجوانب الحضارية والسياسية فى آن.

أما عن محتوى الكتاب؛ فقد بدأ المؤرخ تأريخه للمغرب الأقصى فى عهد الدولة الإدريسية، أى أنه أغفل عصر الولاة الذى زخر بأحداث جسام تتعلق بثورات الخوارج. وفى تأريخه للأدارسة؛ لم يغفل التعرض لجذور الحركة الزيدية فى الشرق. ثم تناول الدولة فى عهد إدريس الأول(١)؛ موضحا جهوده فى تأسيسها، ومآثره فى نشر الإسلام بالمغرب الأقصي(٢).

ثم عرض لعهد إدريس الثاني (٣) مركزا على بناء مدينة فاس التى اختصها باهتمام كبير(٤)؛ مبالغا فى ذكر فضائلها على عادة مؤرخى المدن.

تناول بعد ذلك عهد محمد بن إدريس (٥)، ثم قطع السياق وعاد للحديث عن مآثر فاس. وأفرد دراسة مطولة عن «جامع القرويين»؛ كاسرا منهجه فى تسلسل الأحداث؛ حيث عرض له منذ بنائه حتى عصره، واقفا على ما لحق به من تجديدات خلال العصور المختلفة؛ مشيدا بجهود المرينيين فى هذا الصدد (٦).

ولا ندرى سبب توقفه عن التأريخ لخلفاء محمد بن إدريس؛ إذ فاجأنا بالحديث عن سقوط الدولة الإدريسية. وأنهى هذه الفترة بإثبات تراجم مقتضبة فى الوفيات عن أعلام مدينة فاس. كما قدم جردا للكوارث الطبيعية وآثارها الاقتصادية والاجتماعية؛ خصوصا ما تعلق بأسعار السلع والبضائع (٧).

---

(١) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ١٥ وما بعدها، الرباط ١٩٧٣.

(٢) نفسه، ص ٢٠ وما بعدها.

(٣) نفسه، ص ٢٥ وما بعدها.

(٤) نفسه، ص ٢٩، وما بعدها.

(٥) نفسه، ص ٤٧، وما بعدها.

(٦) نفسه، ص ٦٢ وما بعدها.

(٧) نفسه، ص ٩٦ وما بعدها.

وفى حديثه عن الفترة اللاحقة؛ أهمل التأريخ للإمارات الزناتية فى بلاد المغرب، واكتفى بالحديث عن إمارة موسى بن أبى العافية [١]، فى المغرب الأقصي. والحق أنه قدم بصددها معلومات ضافية وفريدة؛ إذ استعرض أحوالها الداخلية، وأشار إلى علاقاتها مع الكيانات المغربية المعاصرة. وفى نهاية تأريخه لها؛ أورد كالعادة إحصاء بوفيات مشاهير فاس فى تلك الفترة. كما اهتم بالكوارث الطبيعية كالزلازل والجراد ومناسيب الأمطار والقحط ونحوها [٢].

لم يؤرخ ابن أبى زرع للدولة الفاطمية فى المغرب؛ اللهم إلا ما تعلق بصراعها مع أمويى الأندلسى على أرض المغرب الأقصي [٣].

ثم انتقل فجأة للحديث عن قيام الدولة المرابطية مرتبا الأحداث والوقائع على تواريخ حكامها [٤]؛ ذاكرا تفصيلات مهمة عن توسعها فى المغرب الأقصى على حساب الإمارة البورغواطية. كما عرض لنشاطها العسكرى فى المغرب الأوسط بطريقة مجملة. ثم أرخ لجواز المرابطين إلى الأندلس؛ مفصلا الحديث عن انتصارهم على النصارى فى موقعة «الزلاقة»؛ ممتدحا يوسف بن تاشفين، معتبرا إياه حاميا حمى الإسلام. كما عرض لجوانب من سياسات المرابطين ونظمهم بنغمة تنم عن التبجيل والتوقير والثناء[٥]. ثم استعرض الوثائق المهمة فى المغرب الأدنى وإفريقية، كذا سجل مشاهير الوفيات فى فاس، فضلا عن عرض للكوارث الطبيعية وأسعار السلع [٦].

وفى تأريخه للدولة الموحدية، أبدى عداء لهم ودعوتهم؛ واعتبرهم «مارقين» [٧]. كما عرض لعمال الدولة وقضاتها وأطبائها[٨]. وتوقف عند معركة «الأرك» التى انتصر فيها الموحدون على نصارى الأندلس؛ دون أدنى إشادة بهم[٩]؛ بل حرمهم من نسبة هذا النصر إليهم وعزاه إلى

(١) نفسه، ص ١٠٢ وما بعدها.
(٢) نفسه، ص ١١٤ ومابعدها.
(٣) نفسه، ص ٩٢ وما بعدها.
(٤) نفسه، ص ١١٩ وما بعدها.
(٥) نفسه، ص ١٥٠ وما بعدها.
(٦) نفسه، ص ١٥٨ وما بعدها.
(٧) نفسه، ص ١٧٣ وما بعدها.
(٨) نفسه، ص ١٩٤ ومابعدها.
(٩) نفسه، ص ٢٢٠ وما بعدها.

الصلحاء والفقهاء [1]. ثم استعرض تاريخ سلاطين الموحدين بنبذة عدائية. وأبدى نوعا من التشفى لهزيمتهم فى معركة «العقاب» [2]. وأنهى تأريخه للدولة الموحدية ـ كعادته ـ بذكر أخبار الوفيات وكوارث الطبيعة.

وحين أرخ لدولة المرينيين ـ التى عاش فى كنفها ـ اعتبرها «الدولة السعيدة.. أطالها الله وخلد ملكها، وأعلى كلمتها وأيدها»؛ فأفاض فى ذكر «نسبها الصريح وقيامها بالحق والاعتقاد الصحيح، وأخبار ملوكهم وفتوحاتهم وغزواتهم وسيرهم الجميلة ومآثرهم»[3].

واهتم فى تأريخه بالجانب العسكرى على نحو خاص[4]. واستعرض حكام المرينيين واحدا بعد الآخر على نفس منواله فى التأريخ للدول السابقة[5]. وأنهى كتابه بأحداث سنة ٧٢٦ هـ.

وكعادته أيضا؛ قدم رصدا للأحداث المهمة فى صورة أخبار ليس إلا. ثم أثنى على سياسة المرينيين وأشاد بنهجهم فى الإصلاح وجهودهم فى البناء والعمران. وتوجه بالدعاء للسلطان المرينى ـ أبى سعيد عثمان «بدوام دولته»[6].

تلك هى محتويات الكتاب؛ فماذا عن مرجعية مؤلفه؟

عرض ابن أبى زرع لهذه المرجعية فى مقدمة كتابه؛ حيث قال: «انتقيت جواهره من كتب التاريخ والحفاظ والكتاب، وقيدته عن الرواه الثقاة الأمجاد»[7].

ويشى هذا القول باعتماد ابن أبى زرع على حشد هائل من كتب التواريخ المغربية عن العصور السابقة، وكان أمينا حين أشار إليهم فيما نقله عن مؤلفاتهم. منهم الوراق والبرنسى؛ وكتبهما مفقودة.

---

(١) نفسه، ص ٢٢٢.
(٢) نفسه، ص ٢٧٢.
(٣) نفسه، ص ٢٧٨.
(٤) نفسه، ص ٢٨٢ وما بعدها.
(٥) نفسه، ص ٢٨٢ ـ ٣٥٨ وما بعدها.
(٦) نفسه، ص ٤٠١ ـ ٤٠٣.
(٧) نفسه، ص ١٤.

كما نقل عن البكرى - وهو جغرافى أندلسى اهتم بتاريخ المغرب - الكثير من المعلومات وأشار إليه[١]. ونقل كذلك عن ابن غالب، فضلا عن كتب النسابة المغاربية. وهى جميعا مفقودة؛ الأمر الذى يعلى من قيمة منقولاته[٢]. واستمد معلومات أيضا من مؤلفات مغربية معروفة فى تأريخه لدولة الموحدين؛ مثل كتاب «المن بالإمامة» لابن صاحب الصلاة[٣].

أما ما يتعلق بعصره؛ فقد عول على شهود العيان «من أشياخ التاريخ والحفاظ والكتاب»[٤] المعاصرين له؛ دون ذكر أسمائهم.

كما اعتمد على الكثير من الوثائق المثبتة فى كتب السابقين وضمنها كتابه[٥].

ويخبرنا ابن أبى زرع - باعتباره شاهد عدل - عن إفادته من «تقييدات» فقهاء عصره؛ من أمثال أبى على المليانى [٦] عن العصر المرينى.

أما عن منهجه؛ فقد اتبع النهج السائد فى عصره؛ الجامع بين النظام الحولى ونظام الموضوع المتكامل. ولن نسترسل فى إيضاحه؛ إذ سبق لنا التعريف به. وما نؤكده أنه كان على وعى بأهميته وجدواه، وفى هذا الصدد يقول: «.... وأذكرهم أميرا بعد أمير، وملكا بعد ملك، وخليفة بعد خليفة، وأمة بعد أمة على حسب تواليهم وأعصارهم ومراتبهم فى دولتهم وأزمانهم»[٧].

لم يعول ابن أبى زرع على الإسناد؛ بل اكتفى بإثبات أسماء من نقل عنهم. كما ميز بين المنقول وبين ما أضافه من لدنه بعبارة «قال المؤلف»[٨]. ويعلل رفضه الإسناد بقوله «خيفة الإكثار والامتداد» [٩]. أما عن المعلومات التى نقلها عن السابقين؛ فكثيرا ما أجمل الروايات المتعددة فى رواية واحدة؛ فذكر - على سبيل المثال - «قال الوراق والبكرى والبرنسي». [١٠].

---

(١) نفسه، ص ٢٤.

(٢) نفسه، ص ٣٧، ١١٩.

(٣) نفسه، ص ١٨٨.

(٤) نفسه، ص ١٤.

(٥) نفسه، ص ٢٨.

(٦) نفسه، ص ٧٨.

(٧) نفسه، ص ١٣.

(٨) نفسه، ص ١٥.

(٩) نفسه، ص ١٤.

(١٠) نفسه، ص ٢٤.

وفى عرضه للموضوعات يأخذ بنهج التسلسل التاريخي، لكنه يستطرد أحيانا فى ذكر معلومات خارج السياق [١]؛ ثم يعود بعد ذلك إلى الموضوع الأصلي.

وقد اعتمد الإحصاء فى بعض الأحيان، خصوصا ما تعلق بأحداث عصره. إذ أحصى أعداد الأسرى والأسلاب والغنائم من الأموال والرجال والنساء والذرارى والحراب والسيوف والدروع عن إحدى المعارك التى انتصر فيها المرينيون على نصارى الأندلس[٢]؛ بما يؤكد استقاءه معلوماته عن شهود العيان.

واتسم عرض ابن أبى زرع بالميل إلى السرد والوصف والقص الحوارى أحيانا [٣]. كما يستشهد بالمأثور من أقوال السلف؛ مثل إدريس الأول وداود بن القاسم [٤].

أما عن التعليل والتأويل؛ فقد اعتمد الغيبية والمذهبية والبطولة الأسطورية. فقد علل نجاح الدعوة الموحدية بإرادة الله، و«عذوبة لفظ ابن تومرت ومكره ولسانه» إضافة إلى «جهل العامة» [٥].

وتتجلى الرؤية الغيبية فى تعليقه على انتصار المرابطين فى «الزلاقة» بقوله «أظهر الله الإسلام وأعز أهله» [٦]. كما عزى انتصار الموحدين فى معركة «الأرك» إلى «فقهاء المغرب وصلحائه» [٧] الذين رافقوا الجيش الموحدي. ولعل فى ذلك تفسير لتعاطفه مع المتصوفة[٨].

وبرغم غلبة المسحة الدينية والأسطورية[٩] على رؤيته؛ فقد فطن إلى التفسير القائم على «العصبية» فى قيام الدول وسقوطها؛ سابقا فى ذلك ابن خلدون الذى نسب إليه المحدثون هذا السبق واعتبروه تفردا اختصوا به ابن خلدون؛ دون تمحيص أو روية.

---

(١) نفسه، ص ٥٤.

(٢) نفسه، ص ٣١٨، ٣١٩.

(٣) نفسه، ص ٣؛ كمثال.

(٤) نفسه، ص ٢٦، ٤٧.

(٥) نفسه، ص ١٧٧.

(٦) نفسه، ص ١٤٩.

(٧) نفسه، ص ٢٢٢.

(٨) نفسه، ص ٢٦٦.

(٩) نفسه، ص ١٧٥.

يرى ابن خلدون أن الدولة «عظيمة الملك عريضة الاستيلاء» تستند إلى عصبية فتية تعيش حياة خشنة تجعلها تمتلك من قوة البداوة و«التوحش» ما يؤهلها إلى الانقضاض على الدولة فى مرحلة الدعة والترف والخمول؛ فتقضى عليها بالقوة والغلبة.

لقد سبق ابن أبى زرع إلى هذه النظرية حين فسر قيام دولة بنى مرين على أنقاض دولة الموحدين المهترئة نتيجة حياة الترف والخمول بعد انقضاض العصبية المرينية الزناتية الفتية عليها وإسقاطها.

ونص ابن أبى زرع فى هذا الصدد واضح كل الوضوح؛ إذ يصف العصبية الدينية بقوله: «هم أهل صحراء لا يدخلون تحت حكم سلطان، ولا يرضون بذل ولا هوان. لهم همة عالية ونفوس سامية، لا يعرفون الحرث ولا التجارة، ولا يشتغلون بغير الصيد وطراد الخيل»(١).

أما عن العصبية الموحدية المهترئة؛ فيصفها ابن أبى زرع «بالتهاون فى الأمور والاشتغال باللهو والخمور» (٢).

لذلك؛ نسجل لابن أبى زرع هذا السبق؛ الذى يؤكد حكمنا المعروف على ابن خلدون بالاقتباس من الآخرين ونسبته إلى نفسه.

أما عن موقف ابن أبى زرع من الدول المغربية التى أرخ لها؛ فيدور فى إطار دينى ومذهبى. فقد وصم نصارى الأندلس بأنهم «ملاعين»(٣). ووصف حكام إمارة بورغواطة الخارجية الصفرية بأن «مذهبهم سخيف وديانتهم خسيسة»(٤).

كما تعاطف مع الأدارسة لأنهم ينتمون إلى آل البيت. لذلك أردف ذكر كل إمام منهم بعبارة «رضى الله عنه»(٥).

---

(١) نفسه، ص ٢٨٢.
(٢) نفسه، ص ٢٨٣.
(٣) نفسه، ص ٢٣٥.
(٤) نفسه، ص ١٣٠.
(٥) نفسه، ص ٤٧.

كما انحاز إلى المرابطين لأنهم مالكية على نفس مذهبه؛ فأشاد بأنسابهم (١). وأردف ذكر كل حاكم من حكامهم بعبارة «رحمه الله»(٢). وعندما اختتم تأريخه لدولتهم ذكر عبارة «رحمهم الله تعالى بمنه وكرمه» (٣).

كما أبدى عداء مقيتا للموحدين؛ فاعتبر ابن تومرت داعيا للمهدوية(٤). بل عد التأريخ لدولتهم إثما اقترفه، فقال «قال المؤلف عفا الله عنه» (٥). كما نعت سلاطينهم بـ«المروق» (٦).

أما عن تأريخه لبنى مرين؛ فقد أسرف فى امتداحهم واعتبر حروبهم نوعا من «الجهاد» (٧). وزعم أنهم لذلك كانوا مظفرين فى كل ما خاضوه من معارك (٨). كما أشاد بسائر حكامهم الذين استهدفوا من الحكم «التخفيف عن الرعية» (٩).

ونظرا لمحدودية ثقافته؛ فقد وقع فى أخطاء تاريخية فادحة، خصوصا فيما أورده عن أخبار الزيدية فى الشرق (١٠). ناهيك عن التحريفات الخاصة بأسماء الأعلام (١١). كما أخطأ أيضا فى ذكر بعض الأخبار الخاصة بالمغرب؛ كقوله إن المغرب الأقصى لم تجر أسلمته إلا فى عهد إدريس الأول (١٢).

أما عن أسلوبه؛ فهو نثرى مرسل، وإن مال إلى السجع الساذج أحيانا. وتنم كثرة الأخطاء الإملائية عن فقره فى علوم اللغة.

خلاصة القول؛ إن فكر ابن أبى زرع التاريخى كان قاصرا وضحلا؛ ولا غرو فقد اعتبر التاريخ محض «غرائب ونوادر وعجائب» (١٣).

هكذا؛ كان الفكر التاريخى المغربى فى حالة من التدهور؛ خصوصا إذا ما قيس بالعصر السابق؛ شأنه فى ذلك شأن الفكر التاريخى فى سائر أقاليم العالم الإسلامى؛ بما يؤكد وحدة الحراك التاريخى فى صيرورته وتجلياته.

---

(١) نفسه، ص ١٥٧.
(٢) نفسه، ص ١٦٥.
(٣) نفسه، ص ١٥٨.
(٤) نفسه، ص ١٧٢.
(٥) نفسه، ص ١٧٢.
(٦) نفسه، ص ١٧٨.
(٧) نفسه، ص ٢٧٨.
(٨) نفسه، ص ٣١٢.
(٩) نفسه، ص ٤٠٤.
(١٠) نفسه، ص ١٥؛ كمثال.
(١١) نفسه، ص ١٩؛ كمثال.
(١٢) نفسه، ص ٢٠.
(١٣) نفسه، ص ١٢.

ثانيا: فى الاندلس

سبق وعرفنا بمعالم تاريخ الأندلس خلال عصر الإقطاعية العسكرية؛ وأوضحنا دور المرابطين والموحدين والمرينيين فى مواجهة أخطار حركة «الاسترداد» النصرانية. لذلك نكتفى بإضافة بعض المعلومات عن تعاظم هذه الأخطار نتيجة سقوط الدولة المرابطية وهى فى أوج فتوتها، وقيام الدولة الموحدية على أنقاضها. كما أن الموحدين شغلوا بمشكلات إمبراطوريتهم الواسعة التى شملت كل بلاد المغرب والأندلس؛ فتراخت عن مواصلة الجهاد فى الأندلس.

لذلك تعاظم الخطر النصرانى بعد اتحاد معظم ممالكهم، ومؤازرة البابوية لملوكهم، ومباركة جهودهم فى استرداد الأندلس. كما تضاعفت هذه الجهود بعد مساندة مملكة الفرنجة فى بلاد الغال للممالك النصرانية من جهة، وقيام النصارى داخل الأندلس بالتمرد والثورة من جهة أخرى.

لذلك تعاظم النشاط الصليبى فى الأندلس خصوصا بعد سقوط دولة الموحدين وتمزق وحدة المغرب إلى دول ثلاث؛ بنى حفص فى تونس، وبنى عبدالواد فى المغرب الأوسط، وبنى مرين فى المغرب الأقصى.

وبرغم محاولات المرينيين فى مواصلة الجهود لوقف الزحف الصليبى فى الأندلس؛ إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل، وتمكن النصارى من الاستيلاء على كل بلاد الأندلس، باستثناء غرناطة التى شهدت قيام إمارة بنى الأحمر.

ودبت الخلافات بين أفراد بنى الأحمر، وحاول المرينيون رأبها دون طائل. بل دب الضعف فى دولة بنى مرين نفسها من جراء صراعها مع دولة بنى عبدالواد بتلمسان. وتدخل أمراء بنى الأحمر فى هذا الصراع ولعبوا دورا مخربا فى إذكائه؛ بل تطلع أحد أمرائهم - محمد الغنى بالله - للقضاء على دولة بنى مرين؛ فأنفذ حملة لتحقيق هذا الغرض نجحت فى إسناد الحكم بفاس إلى أمير مرينى موال له، بينما أسس أمير مرينى آخر إمارة فى مراكش. وتفجر الصراع بين الطرفين، الأمر الذى فت فى قوة الدولة المرينية؛ فلم تستطع مواصلة جهودها فى مواجهة الخطر النصرانى فى الأندلس.

وانتهى الأمر إلى إسقاط إمارة بنى الأحمر ذاتها؛ بعد اتحاد ممالك

النصارى على يد فردينند وايزابلا؛ ودالت بذلك دولة الإسلام فى الأندلس سنة ٨٩٧ هـ.

تلك هى الخلفية التاريخية التى فى ظلها كتب مؤرخو الأندلس مصنفاتهم متأثرين بطابعها المأساوى.

فماذا عن الفكر التاريخى الأندلسى فى هذا العصر؟

سنحاول الإجابة عن هذا السؤال من خلال دراسة عدة محاور أساسية؛ سبق اعتمادها كمنهج فى دراسة الفكر التاريخى فى سائر أرجاء العالم الإسلامى. وهى التعريف بمؤرخى العصر وتصنيفهم، وتحديد طبيعة ثقافتهم. ثم الوقوف على مرجعيتهم، ومعرفة مناهجهم ورؤاهم ومقاصدهم التى استهدفوها من كتابة التاريخ. كذا دراسة أسلوبهم فى الكتابة، ومدى التزامهم بالموضوعية، وتقويم نتاج ذلك كله؛ مقارنا بنتاج مؤرخى عصرهم فى أقاليم العالم الإسلامى. ثم تقديم دراسة متأنية عن مؤرخ أندلسى من خلال أحد مؤلفاته.

بخصوص المحور الأول - التعريف بالمؤرخين - نشير إلى ملاحظتين هامتين: الأولى؛ أن بعض هؤلاء المؤرخين هجروا الأندلس واستوطنوا أقاليم أخرى فى المغرب والمشرق؛ كالعراق والشام ومصر والحجاز. وقد قمنا بالتعريف بهم وبمصنفاتهم حين عالجنا الفكر التاريخى فى هذه الأقاليم؛ ومن ثم لن نكرر ما سبق ذكره؛ إلا بالقدر الذى يخدم موضوع الدراسة.

أما الملاحظة الأخرى؛ فتتعلق بالتصنيف. لقد عولنا من قبل على هوية المؤرخ المذهبية كمعيار فى التصنيف، لكن هذا المعيار لن يكون له اعتبار بصدد مؤرخى الأندلس؛ لأن كل مؤرخى الأندلس كانوا من أهل السنة. لذلك سنعتمد الوظيفة، أو المهنة، أو التخصص المعرفى معيارا للتصنيف.

تأسيسا على ذلك؛ نلاحظ أن بعض مؤرخى العصر كانوا «مؤرخى بلاط»؛ أو على الأقل موالين للسلطة. ومنهم من اشتغل بالكتابة فى دواوينها، أو عملوا بالقضاء. ولم نعدم وجود مؤرخين من الحكام أنفسهم أو من وزرائهم. أما معظمهم فكانوا من الفقهاء والمحدثين والمشتغلين بالأدب.

من مؤرخى البلاط؛ نقف على أسماء ابن الصيرفى (ت ٥٧٠ هـ) مؤرخ

الدولة المرابطية[١]، وابن سعيد الذى سبق وعرضنا له مؤرخا للأيوبيين فى مصر. أما الحجارى (ت ٤٩٩ هـ) فكان على صلة بأمراء المرابطين[٢]. كما كان ابن الخطيب وزيرا لبنى الأحمر فى غرناطة ثم التحق بالمرينيين فى فاس. وكذلك كان ابن خلدون؛ كما أوضحنا من قبل حين عرضنا للفكر التاريخى فى المغرب. كما كان الطرطوشى على صلة بالبلاط الفاطمى بعد رحيله من الأندلس وإقامته فى مصر[٣].

ومن المؤرخين الأمراء أو الملوك: نقف على أسماء محمد بن عبدالله بن الأفطس؛ أمير بطليوس [٤]، وأبى الوليد بن الأحمر من ملوك غرناطة[٥].

أما عن المؤرخين الذين اشتغلوا بالكتابة فى الدواوين؛ فمنهم الغرناطى (ت ٥٧٧ هـ) الذى اشتغل فى دواوين المرابطين [٦]. ومن المؤرخين القضاة؛ نذكر ابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ) الذى تولى قضاء أشبيلية[٧]، والخزرجى (ت ٥٥٩ هـ) قاضى أشبيلية، ثم غرناطة [٨].

أما عن المؤرخين المحدثين؛ فمنهم ابن عبدالبر[٩]. (ت ٤٦٣ هـ)، والضبى (ت ٥٩٩ هـ) الذى يعد من أشهر محدثى عصره [١٠]. ومن المؤرخين الفقهاء، نذكر أبا زكريا الشبلى [١١] والشاطبى (ت ٥٨٤ هـ) [١٢].

ويعد ابن بسام (ت ٥٤١ هـ) من أهم الأدباء الذين كتبوا فى التاريخ[١٣]، كذلك كان أبو عامر السالمى (ت ٥٥٩ هـ) أديبا مبرزا[١٤].

---

(١) روزنتال: المرجع السابق، ص ١٣٧.
(٢) نفسه، ص ٢٧٢.
(٣) على أدهم: المرجع السابق، ص ١١٠.
(٤) عبدالواحد ذنون طه: موارد تاريخ ابن عزارى المراكشى عن الأندلس، مجلة المجمع العلمى العراقى، جـ٤، مجلد ٣، ص ٣٦١، بغداد ١٩٨٦.
(٥) عبد القادر زمامه: أبو الوليد بن الأحمر، ص ١١٦، ١١٨ ، الدار البيضاء، د . ت
(٦) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٤١.
(٧) نفسه، ص ٢٧٣.
(٨) نفسه، ص ٢٨٢.
(٩) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ ٣، ص ٢٨٠.
(١٠) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٧٦.
(١١) أحمد الطاهرى: عامة أشبيلية فى عصر بنى عباد، ص ٢٩ رسالة دكتوراة، مخطوطة، كلية الآداب بمكناس، ١٩٩٥.
(١٢) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٨٢.
(١٣) نفسه، ص ٢٩٤.
(١٤) عبدالواحد ذنون طه: دراسات فى تاريخ الأندلس، ص ٢١١، بغداد ١٩٧٥.

تلك نماذج لأصناف المؤرخين المشهورين؛ إذ وجد غيرهم كثيرون فقدت مصنفاتهم، فلم نستطع التعريف بهم؛ من أمثال ابن حبيش (ت ٥٨٤ هـ) وأحمد بن بلال (ت ٤٦٠ هـ) وابن بدرين (ت ٤٧١ هـ) وغيرهم.

أما عن ثقافة هؤلاء المؤرخين، فقد جمعت بين العلوم الدينية وعلوم اللغة والأدب، كما أحاط بعضهم ببعض المعارف الفلسفية وأدب السياسة. وقد قام الكثيرون برحلات إلى المغرب وبلاد الشرق [١]؛ فأضافوا إلى معارفهم الكثير من المعلومات الجغرافية.

نعلم أن ابن خير (ت ٥٧٥ هـ) كان واسع الاطلاع عالما فى الحديث والفقه وعلوم القرآن؛ فكان أستاذ عصره [٢]. واشتهر أبو الوليد بن الأحمر بالتعمق فى الحديث والأدب [٣]. وكان السالمى (ت ٥٥٦ هـ) أديبا أحاط بعلوم اللغة [٤]. وجمع ابن بسام بين علم الحديث والأدب [٥]. لذلك كان معظم مؤرخى الأندلس محدثين وأدباء.

أما عن أصناف الكتابة التاريخية، فلم يهتم مؤرخو العصر بالكتابة فى «التاريخ العالمى»؛ نتيجة ضحالة الثقافة من جهة، وإلحاح الموضوعات السياسية المحلية للكتابة فيها من جهة أخرى. فنظرا لتعاظم الخطر النصرانى، اهتم المؤرخون بالتاريخ الإسلامى العام؛ تشبثا بالهوية الإسلامية.

إذ كتب ابن سعيد «التاريخ المحلى» الذى يؤرخ للإسلام منذ البعثة النبوية وحتى عصره [٦]. كما ألف ابن الأحمر «نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان» فى الموضوع ذاته[٧]. وصنف السالمى كتاب «الأسرار فى التجارب والأخبار» عن الدول الإسلامية [٨].

(١) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص ٦، القاهرة، د. ت.

(٢) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٨١.

(٣) عبدالقادر زمامه: المرجع السابق، ص ١١٧.

(٤) عبدالواحد ذنون طه: دراسات، ص ٢١١.

(٥) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٩٤.

(٦) المغرب، ص ٦ من مقدمة المحقق.

(٧) عبدالقادر زمامه: المرجع السابق، ص ١١٧.

(٨) عبدالواحد ذنون طه: دراسات، ص ٢١٢.

ولنفس المعطيات السابقة، جرى الاهتمام بتاريخ الشرق الإسلامى، فكتب ابن سعيد «المشرق فى حلى المشرق»[١].

ونظرا لاتصال تاريخ الأندلس بالمغرب وتوحدهما فى عصرى المرابطين والموحدين؛ صنفت تواريخ تجمع بين العدوتين فى مؤلف واحد، كما خصصت مؤلفات أخرى عن بلاد المغرب وحدها. فكتاب «المسهب فى غرائب المغرب» للحجارى يعرض لفضائل أهل المغرب والأندلس[٢]. وأرخ الغرناطى لدولة المرابطين فى «أخبار لمتونة» [٣].

وعالج السالمى الصراع بين المرابطين والموحدين فى «أخبار الفتنة الثانية بالأندلس» [٤]. وصنف الغافقى (ت ٥٧٥ هـ) «فضائل أهل المغرب»، و«المغرب فى محاسن المغرب» فى ذات الإطار[٥]. كما كتب ابن الأحمر «روضة النسرين فى دولة بنى مرين» المغربية [٦].

أما عن تاريخ الأندلس؛ فقد كتب فيه الكثير من المؤلفات؛ سواء فى صورة تاريخ عام يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامى، أو عن الأسرات الحاكمة، أو الأقاليم والمدن. فصنف الواد آشى «تاريخ الأندلس». وتحت العنوان نفسه ألف الرندى (ت ٧٠٧ هـ)، كما كتب ابن بدرين (ت أواخر القرن الخامس الهجرى) «مختصر فى تاريخ الأندلس». وكتب ابن الفارق (ت ٦٩٠ هـ) «تاريخ بنى نصر» [٧].

واهتم مؤرخو الأندلس بالأقاليم والمدن، لتحول الولاء إلى الإقليم أو المدينة بعد فقدان الثقة فى النظم الحاكمة. ويرى أحد الدارسين [٨] أن الكتابات التى تعلقت بهذا الموضوع فقدت أهميتها بعد إغفال التأريخ للنظم والانصراف إلى الكتابة فى الأحوال الاجتماعية والعمرانية. وعندنا أن هذا الحكم مغلوط؛ فمن يطالع بعض المؤلفات يجد اهتماما فائقا بالنظم الإدارية والعسكرية - من جراء الصراع مع النصارى - فضلا عن الجغرافيا

---

(١) ابن سعيد: المغرب، ص ٩ من مقدمة المحقق.
(٢) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٧٢.
(٣) نفسه، ص ٢٤١.
(٤) نفس المرجع والصفحة.
(٥) نفسه، ص ٢٤٢.
(٦) عبدالقادر زمامه: المرجع السابق، ص ١١٧.
(٧) عبدالواحد ذنون طه: دراسات، ص ٢١٠.
(٨) أنظر: السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ١١٥.

والطبوغرافيا والديموغرافيا والعمران[١]؛ بالإضافة إلى الثقافة؛ وذلك من خلال الترجمة لمشاهير العلماء والأدباء والشعراء والمتصوفة[٢].

كتب المخزومى (ت ٦٥٨ هـ) «فضائل ميورقة وتاريخها»، كما أرخ للجزيرة الخضراء على نفس المنوال. وصنف البلفيقى (ت ٧١٥ هـ) «تاريخ المرية وبجانه» [٣].

ونظرا للإفلاس السياسى واستبداد الحكام؛ اهتم مؤرخو العصر بالكتابة فى «آداب السياسة» والأحكام والنظم. وحسبنا الإشارة إلى أهمية كتاب «سراج الملوك» للطرطوشى؛ الذى حاول ابن خلدون التقليل من قيمته؛ فاعتبره مجرد «نقل وترغيب شبيه بالمواعظ» [٤]؛ نقلها الطرطوشى من مقدمات مؤلفات سابقة. وتلك تهمة لا اعتبار لها؛ خصوصا وأن ابن خلدون نقل عنه الكثير دون الإشارة إليه[٥]. هذا بالإضافة إلى أن ما كتبه ابن خلدون فى «أدب السياسات» كان تبريرا ذرائعيا لسياسات الحكام؛ بينما أثر عن الطرطوشى الانحياز إلى الرعية، وتوجيه النصح إلى الحكام فى لهجة خشنة، بهدف إرشادهم عن طريق التسلح بالمعارف؛ لتبنى سياسات عادلة[٦].

وبديهى أن يكون ما كتبه بعض الحكام فى هذا الموضوع منحازا إلى السلطة؛ فلم يعد ـ فى نظر بعض الدارسين الثقاة[٧] - مجرد دعاية سياسية؛ كما هو حال ابن الأحمر.

وانطوت كتابات الأصوليين الفقهية على مادة مهمة فى فقه السياسة وتدبير الملك ونظم الحكم. نجد ذلك فى كتاب «التقسيم والتبيين» لأبى زكريا الشبلى[٨]. وبنفس القدر من الأهمية يحتل كتاب «آداب الوزارة»[٩]

(١) أنظر: على سبيل المثال: ابن سعيد: المغرب، ص ٤٠ وما بعدها.
(٢) نفسه، ص ٢١٨، وما بعدها.
(٣) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٣٠٥.
(٤) مقدمة ابن خلدون: ص ٤٣.
(٥) أنظر:محمود إسماعيل: نهاية أسطورة، ص ١٠٨.
(٦) على أدهم: المرجع السابق، ص ١٠٥ ـ ١١٠.
(٧) أنظر: عبدالقادر زمامه: المرجع السابق، ص ٢٧١، ٢٧٥.
(٨) أحمد الطاهرى: عامة اشبيلية فى عصر بن عباد، ص ٩، رسالة دكتوراه، مخطوطة، كلية الآداب بمكناس ١٩٩٥.
(٩) نفسه، ص ٥.

لابن الخطيب مكانا مرموقا؛ إذ هو خلاصة خبرة طويلة وممارسة ومكابدة فى مجال السياسة.

أفضى إسراف الارستقراطية الحاكمة فى حياة الترف، وتدهور الفكر وتعاظم الطرقية الصوفية بما تنطوى عليه من خرافات؛ إلى الكتابة فى العجائب والغرائب؛ بهدف الإمتاع والمؤانسة. كتب الحجارى «المسهب فى غرائب المغرب» [١]. كما صنف ابن سعيد «رايات المبرزين» من باب التسرية عن السلطان نجم الدين أيوب الذى احتضنه بعد أن استوطن مصر [٢]. وكتب الشاطبى «عجائب البحر»، وألف اللخميى «الفوائد المنتخبة والفرائد المستعذبة» [٣]، فى نفس الإطار.

أما عن الكتابة فى «السير»؛ فنلاحظ أنها لم تتعلق بالحكام، بل بسير المؤرخين وأسرهم؛ كما هو حال ابن خلدون فى كتاب «التعريف»، وابن سعيد فى «الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد» [٤].

تلك هى أجناس الكتابة وموضوعاتها التى كتب فيها مؤرخو الأندلس؛ وهى لا تختلف كثيرا عن كتابات نظرائهم فى شتى أقاليم العالم الإسلامى. ومن يطالع «فهرست» ابن خير (ت ٥٧٥ هـ) يجد مصداق تلك الحقيقة.

أما عن الطبقات والتراجم؛ فقد شهدت نفس الظاهرة؛ أى عدم الاهتمام بالترجمة للحكام والوزراء والكتاب ورجالات الدولة؛ بل الترجمة للعلماء والأدباء والشعراء والمتصوفة.

وقد تأثرت كتابة التراجم بالبعد الطبقى، حيث اهتم المؤرخون الموالون للحكام بالأعيان والموسرين؛ كما هو شأن الفتح بن خاقان فى «قلائد العقيان» [٥].

ونظرا لكون معظم مؤرخى العصر من المحدثين؛ فقد أولوا علماء الحديث اهتماما خاصا؛ كما هو حال ابن عبدالبر (ت ٤٦٣ هـ) فى كتاب «الاستيعاب». كما اهتم المؤرخون الأدباء بالترجمة للشعراء [٦] وغيرهم من

(١) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٧٣.

(٢) ابن سعيد: رايات المبرزين وغايات المميزين، ص ١٤، القاهرة ١٩٧٣.

(٣) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٤) ابن سعيد: المغرب، ص ٨٢٧.

(٥) أحمد أمين: ظهر، جـ٣، ص ٢٨٣.

(٦) نفسه، ص ٢٨٠.

الأعلام فى سائر جوانب المعرفة؛ كما هو حال ابن سعيد فى «المغرب» الذى يعد تراجم جامعة؛ مع اهتمام خاص بالأدباء والشعراء. إذ بدأ بالترجمة للحكام [١]، ثم ترجم عن من كان قرشى النسب [٢]، ثم الحجاب والوزراء [٣]، فعلماء القرآن [٤]، فعلماء الحديث [٥]، فعلماء اللغة [٦]، فالفلاسفة[٧]، فعلماء الموسيقى [٨]، فالأطباء[٩]، فالقضاة [١٠]، فالشعراء فالزجالين [١١]، ثم ترجم لأعلام كل مدينة من مدن الأندلس على حدة [١٢].

وذيل مؤرخو الطبقات على المؤلفات السابقة؛ فكتاب «الصلة» لابن بشكوال تذييل على ابن الفرضى، وكتاب «بغية الملتمسى» للضبى تذييل على الحميدى [١٣].

كما أفردت تراجم لشيوخ المتصوفة؛ مثل «أنوار الأفكار» للخزرجى، و«زهرة البساتين» و«نفحات الرياحين» للطيلسانى، و«أخبار الزهاد والعباد» للشاطبى [١٤].

واختص ابن سعيد شعراء الأندلس والمغرب وصقلية بكتاب «رايات المبرزين» [١٥]. كما أفرد ابن بسام فى «الزخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» فصولا ضافية عن الشعراء والأدباء والمتصوفة [١٦].

---

(١) ابن سعيد: المغرب، ص ٤٠ وما بعدها.
(٢) نفسه، ص ٥٨ وما بعدها.
(٣) نفسه، ص ٧٠ وما بعدها.
(٤) نفسه، ص ١٠٨، ١٠٩.
(٥) نفسه، ص ١٠٩ وما بعدها.
(٦) نفسه، ص ١١٢ وما بعدها.
(٧) نفسه، ص ١٣٠ وما بعدها.
(٨) نفسه، ص ١٢٧.
(٩) نفسه، ص ١٢٨، وما بعدها.
(١٠) نفسه، ص ١٥٥، وما بعدها.
(١١) نفسه، ص ١٦٧ وما بعدها.
(١٢) نفسه، ص ٢١٨، وما بعدها.
(١٣) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٧٣.
(١٤) نفسه، ص ٢٨٢.
(١٥) أنظر: ابن سعيد: رايات المبرزين وغايات المميزين، ص ٥ من مقدمة المحقق، حيث قدم دراسات ضافية عن الكتاب.
(١٦) سعيد أبو زيد: المرجع السابق، ص ١٢، ١٣.

تلك هى موضوعات الكتابة التاريخية؛ فماذا عن المرجعية؟..

لا تختلف مرجعية مؤرخى الأندلس عن نظيرتها فى العالم الإسلامى فى ذلك العصر. إذ عولوا على شهادة العيان والسماع والرواية والوثائق؛ فيما يتعلق بالتأريخ للفترة التى عايشوها. كما كان النقل قاعدةعامة فى التاريخ للعصور السابقة. نجد ذلك كله فى مرجعية ابن سعيد[1]، وأبى الوليد بن الأحمر؛ إذ كان شاهد عيان لبعض أحداث عصره. تمثل ذلك فى ذكر كلمة «رأيت». وما سمعه من شهود عيان سبقه بكلمة «سمعت». كما أطلع على وثائق مهمة، فضلا عما نقله عن المؤرخين السابقين [2]. بل إن بعض المؤرخين أسرفوا فى إثبات نصوص الوثائق بصورة تسترعى الانتباه، كما هو الحال بالنسبة لصاحب «الحلل الموشية» الذى سنفرد دراسة مطولة عنه.

أما عن المنهج؛ فقد أثبت جل مؤرخى العصر أسماء المؤرخين الذين نقلوا عنهم، مثل ابن سعيد الذى نقل عن الحجارى والرازى وابن غالب وابن حوقل وابن حيان والرقيق والحميدى وغيرهم [3]. وقد اهتم بنقد المصادر التى نقل عنها. يقول فى هذا الصدد: «والمملوك ـ أى شخصه ـ قد علق خاطره بهذا الفن ـ التاريخ ـ وتجول فى البلاد مجتهدا فى طلبه وانتقاده، ينخل ما تحصل له منه» [4].

أما عن الإسناد؛ فلم يعول عليه حتى المؤرخون المحدثون اللهم ذكر اسم الراوى الأخير للحدث. لكنهم استخدموا مصطلحات علم الحديث فى تحديد نوعية المروى؛ كقولهم «حدثنى» أو «أخبرنى».. إلخ. إذ لكل كلمة دلالتها الخاصة فى التمييز بين ما هو مروى أو سماعى أو مشاهدة أو ما إلى ذلك.

كما أغفلوا النظام الحولى فى تصنيف المعلومات وترتيبها؛ بل جمعوا بينه وبين الموضوعات المتكاملة فى نسق واحد. فإذا تحدثوا ـ مثلا ـ عن عهد حاكم ما راعوا التسلسل الزمانى فى العرض، تحاشيا للاجتزاء والتكرار.

ومع ذلك وقع الكثيرون فى منزلق التكرار والخروج عن الموضوع

(١) المغرب فى حلى المغرب، ص ١٣، ١٤، ٤٤؛ كأمثلة.

(٢) عبدالقادرزمامه: المرجع السابق، ص ٢٧٣.

(٣) المغرب، ص ١٤.

(٤) رايات المبرزين، ص ٣٢.

بالاسترسال فى سوق موضوعات أخرى جانبية، ثم يعودون بعد ذلك إلى الموضوع الأصلى [١]؛ كما هو حال ابن الأحمر وصاحب الحلل الموشية. على أن بعضهم تميز باتساق العرض وتسلسله وتكامله وإجادة الترتيب والتصنيف للموضوعات؛ كما هو حال ابن سعيد على سبيل المثال [٢].

كما جرى الاستشهاد بالشعر إلى درجة الإسراف؛ حتى إن بعضهم أورد قصائد مطولة كاملة أقحمها فى السياق؛ فأخلت به.

وتتسم جل تواريخ العصر بالافتقار إلى الموضوعية؛ خصوصا عند المؤرخين ذوى العلاقة مع الحكام. وكان انحياز مؤرخى البلاط لأسيادهم أمرا بديهيا، ناهيك عن التواريخ التى ألفها الحكام أو الوزراء. فقد انبروا لتبرير سياسات الحكام وتقريظ شخوصهم بدرجة مبالغ فيها فى معظم الأحيان. إذ اشتهر الحجارى فى كتاباته بالتملق والتزلف إلى حد إراقة ماء الوجه طمعا فى العطايا والهبات [٣]. وعرف عن ابن الأحمر انحيازه لحكام بنى مرين على حساب خصومهم [٤]. وكان ابن بسام يدبج المدائح بقدر ما ينال من عطايا، وكذلك كان حال الفتح بن خاقان [٥]. وأثر عن الشقندى تعصبه للأندلس وأهلها والحط من قدر المغرب والمغاربة [٦]. كما كان السقطى يجامل الحكام ويتحامل على الرعية [٧].

ومع ذلك؛ وجد من مؤرخى العصر من عرف بالنزاهة والحياد. كذا من وقف فى وجه الحكام من أجل الرعية؛ كما هو حال الطرطوشى[٨] وابن عبدالبر وابن سعيد[٩].

أما عن التعليل والتأويل؛ فقد اتسمت رؤى مؤرخى العصر بالطابع

---

(١) عبدالقادر زمامه: المرجع السابق، ص ٢٧٧.

(٢) راجع: مقدمة كتاب «المغرب»، ص ٩.

(٣) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٧٢.

(٤) عبدالقادر زمامه: المرجع السابق، ص ٢٧١.

(٥) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٨٩.

(٦) نفسه، ص ٢٩٩.

(٧) أحمد الطاهرى: عامة قرطبة فى عصر الخلافة، ص ٧، رسالة ماجستير، مخطوطة - كلية الآداب بفاس، ١٩٨٤.

(٨) على أدهم: المرجع السابق، ص ١٠٩، ١١٠.

(٩) المغرب، ص ٤٤، ٤٧، كمثال.

إذ عول المؤرخون على التفسير الدينى؛ كرد فعل للكوارث والخطوب السياسية والعسكرية نتيجة تعاظم حركة «الاسترداد» النصرانية وفشل حكام العصر فى مواجهتها [1]. كما نبعت النزعة العنصرية من جراء الصراع بين العرب والبربر [2]. وبرغم تميز ابن سعيد؛ فقد سقط فى منزلق الإقليمية [3]. وكذلك كان الشقندى؛ كما سبق القول.

ووصل الحال ببعض مؤرخى العصر فى الدفاع عن هذه النزعة إلى حد تنديده بنظرائه ممن تأثروا بثقافة المشارقة. يقول ابن بسام واصفا هؤلاء «يرجعون إلى أخبارهم ـ أى إلى المشارقة ـ رجوع الحديث إلى قتادة.. فغاظنى منهم ذلك، وأخذت نفسى بجميع ما وجدت من حسنات دهرى، وتتبع أهل بلدى وعصرى» [4]. ومع ذلك فقد تأثر فيما كتب بالثعالبى [5].

ويمكن الوقوف على ما يسمى برؤية طبقية عند بعض مؤرخى العصر؛ فكتابات ابن الأحمر ـ على سبيل المثال ـ منحازة إلى النخبة الموسرة وذوى النفوذ [6]، وكذلك كان ابن الأفطس [7]. ويأخذ بعض الدارسين على ابن بسام اهتمامه بالتأريخ للملوك والأمراء والرؤساء والأعيان؛ طمعا فى الهبات والعطايا بطريقة مبالغ فيها [8].

كمافشت الخرافة والشعوذة والكرامة والمعجزة فى معظم تواريخ العصر؛ فتحدث بعضهم عن عشق الجان للإنسان [9]. ولم يسلم منها حتى ابن سعيد برغم تميزه [10].

أما عن مقاصد وغايات مؤرخى العصر، فقليل ماهم من صنف فى التاريخ لهدف معرفى منزه. وكيف تتأتى النزاهة من مؤرخين كتبوا تواريخهم بأمر الحكام، أو كتبوها وأهدوها إليهم؟

---

(١) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ١١١.

(٢) روزنتال: المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٣) راجع: رايات المبرزين، ص ٧ من مقدمة المحقق.

(٤) ابن بسام: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، قسم ١، ص ١، القاهرة، د. ت.

(٥) أحمد أمين: ظهر، جـ٣، ص ٢٨٢، على أدهم: المرجع السابق، ص ٢٩٩.

(٦) عبدالقادر زمامه؛ المرجع السابق، ص ٢٧١.

(٧) عبدالواحد ذنون طه: موارد، ص ٣٦١.

(٨) أنظر: أحمد أمين: ظهر، جـ٣، ص ٢٨٠، على أدهم: المرجع السابق، ص ١٠.

(٩) عبدالقادر زمامه: المرجع السابق، ص ٢٧٨.

(١٠) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٤٨.

لذلك استهدفوا الحصول على المال أو الجاه أو هما معا. وكرست بعض المصنفات التاريخية للدعاية السياسية [١]. كما وظفت أحيانا للحض على الجهاد، أو تقديم النصح والإرشاد لطغام الحكام؛ كما هو حال الطرطوشى فى كتابه «سراج الملوك».

أما عن الأسلوب؛ فكان فى الغالب أحسن حالا من أساليب المؤرخين المشارقة الذين بهروا بالصنعة والزخرف. كتب معظم مؤرخى الأندلس بأسلوب نثرى مرسل بلغ الذروة فى البيان أحيانا؛ كما هو حال ابن بسام [٢]. وإذ مال البعض إلى السجع؛ فدون تكلف. وقد جمع بعضهم بين النثر المرسل والسجع؛ كما هو حال ابن خلدون فى مقدمته. إذ كتب الفصول الأولى مسجعة، أما بقية الفصول فمرسلة نثرية. ويشاركه فى ذلك صاحب «الحلل الموشية»؛ كما سنوضح بعد قليل.

لذلك كله؛ نرى أن الفكر التاريخى تدهور فى الأندلس؛ شأنه فى ذلك شأن بقية أقاليم العالم الإسلامى. ومن هنا أخطأ من قالوا بازدهاره. فقد ميزه بعضهم عن نظيره فى الشرق لخلوه من النزعة الدينية التى غلفت كتابات المشارقة[٣]. وفى السياق نفسه حكم البعض بدنيوته؛ فاعتبر الأندلسيون التاريخ من فعل البشر[٤].

ولو صح القول باختفاء النزعة الدينية ـ وهو لا يصح ـ فقد تعاظمت النزعة الإقليمية والعنصرية؛ كما أوضحنا سلفا. ناهيك عن استشراء الأسطرة والخرافة كقاسم مشترك فى كتابات المؤرخين المسلمين عموما فى هذا العصر.

لذلك أصاب من قال إن جل ما كتب من تواريخ أندلسية ـ خصوصا زمن المرابطين ـ اتسم بالسطحية والسذاجة[٥]. وحق لآخر الحكم بأنه «لم يظهر فى الأندلس مؤرخ مبدع بعد القرن الرابع الهجرى» [٦]، وأن العصر «لم يخرج مؤلفات ذات شأن فى التاريخ» [٧]. وهو حكم سبق وأكده ابن

(١) عبدالقادر زمامه: المرجع السابق، ٢١٣.

(٢) بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٣) أنظر: روزنتال: المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٤) أنظر: جب: دائرة المعارف الإسلامية، مادة: تاريخ، جـ٤، ص ٥٠١.

(٥) أنظر: Dozy: Histoire des Musulmanes d' Espagne, P. 248, Leydem, 1861.

(٦) أنظر: أحمد أمين: ظهر، جـ٣، ص ١٩٨.

(٧) أنظر: بالنثيا: المرجع السابق، ص ٢٤١.

بسام حين قال: «لم يصدر هذا الكتاب ـ الذخيرة ـ إلا عن صدر مكلوم الأحناء وفكر خانه الذكاء» (١).

لمزيد من إجلاء تلك الحقيقة؛ نقدم دراسة متأنية ومفصلة ـ نوعا ما ـ عن كتاب «الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية» لمؤرخ أندلسى مجهول؛ كأنموذج يجسد خصائص الفكر التاريخى الأندلسى فى هذا العصر.

لا نعلم شيئا عن مؤلف الكتاب، سوى أنه عاش فى القرن الثامن الهجرى فى كنف دولة بنى مرين بالمغرب الأقصى.

أما عن موضوع الكتاب؛ فهو مغاير لعنوانه؛ إذ يشى العنوان بأنه تأليف فى تاريخ مدينة مراكش؛ لكن محتواه الواقعى يؤكد أنه تأريخ للدولتين المرابطية والموحدية فى المغرب والأندلس، فضلا عن التأريخ للدولة المرينية فى المغرب الأقصى، وأوائل عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة.

يبدأ المؤلف عرضه بحديث عن مدينة مراكش؛ يشيد فيه بفضائلها، على عادة مؤرخى المدن عموما، ثم يعرض لاختطاطها كعاصمة لدولة المرابطين (٢). ويؤرخ لقيام هذه الدولة بذكر النسب المرابطى؛ فيرجعه إلى أصول عربية حميرية (٣).

ثم يعرض للدعوة المرابطية مشيرا إلى جهود زعماء قبائل صنهاجة اللثام فى توحيد الملثمين تحت لواء دعوة مذهبية قوامها المذهب المالكى، ونجاح هذه الجهود على يد قبيلة لمتونه. ويشيد بفضل يوسف بن تاشفين فى تحويل الدعوة المذهبية إلى دولة إمبراطورية.

ويقطع سياق الأحداث؛ فيقفز إلى الأندلس عارضا للخطر النصرانى بقيادة ألفونسو السادس الذى هدد ملوك الطوائف واستحوذ على الكثير من مدن الأندلس. وأمام هذا الخطر الزاحف؛ بعث الفقهاء برسائل إلى يوسف بن تاشفين(٤) للتصدى لوقفه ومواجهته. كما استحثه المعتمد بن عباد للقدوم بهدف الجهاد(٥).

(١) الذخيرة، قسم ١، ص ٦.
(٢) مجهول: الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية، ص ١٥ ـ ١٧، الدار البيضاء ١٩٧٨.
(٣) نفسه، ص ١٩ ـ
(٤) نفسه، ص ١٨ ـ ٣٠.
(٥) نفسه، ص ٣٨ ـ ٤٠.

ثم يقطع سياق العرض؛ فيتحدث عن يهود المغرب الأقصى والأندلس، موضحا دورهم فى الوساطة بين النصارى وملوك الطوائف لتحصيل الجزية التى فرضها ألفونسو عليهم[١].

ويعود لعرض وقائع الزحف النصرانى، وتهديده إشبيلية حاضرة العباديين، واستنجاد أميرها ووزراؤه وفقهاؤه بيوسف بن تاشفين[٢].

ثم يؤرخ لاستجابة الأخير وجوازه إلى الأندلس ونجاحه فى هزيمة النصارى فى معركة «الزلاقة»[٣]. ويتوقف عند هذه المعركة؛ ذاكرا تفاصيل خططية وعسكرية، معددا ما غنمه المسلمون من أموال وسلاح وأسرى[٤].

ثم يعود فيذكر لمعا من أخبار اليهود فى المغرب والأندلس[٥]. كما يعرض لأصداء انتصار الزلاقة فى الشرق الإسلامى، وما جرى فى هذا الشأن من اتصالات بين الخلافة العباسية ويوسف بن تاشفين، مستطردا فى ذكر أحداث مشرقية تتعلق بالخلافة العباسية[٦].

ثم ينتقل إلى الأندلس عارضا مجهود واليها على بن يوسف فى مواجهة النصارى[٧].

ويعود إلى المغرب عارضا لوفاة يوسف وتولى ابنه على زعامة المرابطين؛ مشيدا بمآثره فى عمران مراكش[٨].

ثم يعرض لبدايات الدعوة الموحدية فى المغرب[٩]. معرفا بزعيمها ـ المهدى بن تومرت ـ مرجعا نسبه إلى على بن أبى طالب[١٠]. ويقطع السياق؛ ليتابع مجريات الأندلس، مهتما بحدث إحراق كتب الغزالى؛ معتبرا إياه سببا لسقوط الدولة المرابطية[١١] !!

---

(١) نفسه، ص ٤٢.
(٢) نفسه، ص ٤٧ ـ ٥٠.
(٣) نفسه، ص ٥١ ـ ٥٧.
(٤) نفسه، ص ٥٧ ـ ٦٦.
(٥) نفسه، ص ٨٠، ٨١.
(٦) نفسه، ص ٨٥ ـ ٨٩.
(٧) نفسه، ص ٩١ ـ ٩٧.
(٨) نفسه، ص ٩٧، ٩٨.
(٩) نفسه، ص ١٠٠ ـ ١٠٢.
(١٠) نفسه، ص ١٠٣.
(١١) نفسه، ص ١٠٤.

ويعود إلى ساحة المغرب متابعا حديثه عن الدعوة الموحدية واستجابة البربر لها، وتحولها إلى ثورة؛ عارضا للصراع بين ابن تومرت وعلى بن يوسف [١]، وقيام ابن تومرت بحصار مراكش[٢].

ويقطع السياق ـ كالعادة ـ عارضا لأخبار إدارية واقتصادية؛ كفساد ولاة المرابطين، وارتفاع الأسعار [٣].

ثم يؤرخ لوفاة على بن يوسف وتولية ابنه تاشفين زعامة المرابطين، وصراع الأخير مع الموحدين، ووفاة ابن تومرت وتولية عبدالمؤمن بن على ومواصلة الصراع مع المرابطين [٤]؛ حتى سقوط مراكش ونهاية دولةالمرابطين [٥].

ثم يعرض للحركات المناوئة لدولة الموحدين فى المغرب فى إيجاز شديد[٦]. وينتقل إلى الأندلس، موضحا ترحيب الفقهاء بقيام الدولة الموحدية، واستدعائهم لسلطانها عبدالمؤمن للجهاد فى الأندلس، وتلبية الدعوة [٧].

ثم يقطع السياق؛ فيعرض لجهود الموحدين فى مد نفوذهم إلى المغرب الأوسط؛ مشيدا بجهودهم فى مواجهة الخطر النورمانى فى صقلية وجنوبى إيطاليا بعد إغارة النورمان على سواحل المغرب واستيلائهم على «المهدية»، ونجاح الموحدين فى طردهم منها [٨].

كما عرض فى إيجاز لموت عبدالمؤمن، وعدد من خلفوه؛ مشيدا بدورهم الجهادى فى الأندلس؛ متوقفا عند يعقوب المنصور الذى انتصر على النصارى فى معركة «الأرك» عام (٥٩١ هـ) [٩]؛ ثم يذكر أسماء من خلفوه فى عجالة وتوقف عند الخليفة المأمون الموحدى، ليشيد بتنكره لمذهب الموحدين وإحلال مذهب مالك محله[١٠].

---

(١) نفسه، ص ١١٢ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص ١١٩.

(٣) نفسه، ص ١٢٠ ومابعدها.

(٤) نفسه، ص ١٢٥ ـ ١٣٥.

(٥) نفسه، ص ١٣٦ ـ ١٤٥.

(٦) نفسه، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٧) نفسه، ص ١٤٦ ـ ١٤٨.

(٨) نفسه، ص ١٤٩ ـ ١٥٦.

(٩) نفسه، ص ١٥٧ ـ ١٦٠.

(١٠) نفسه، ص ١٦١ ـ ١٦٩.

ثم عرض لسقوط دولة الموحدين، وقيام دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى، واستعرض أسماء حكامها فى عجالة؛ مبررا ذلك بعزمه إفراد مؤلف مستقل عنها [١]؛ مكتفيا بإبراز جهودهم فى ميدان الجهاد بالأندلس. ثم توقف عند حكم السلطان المرينى عبدالرحمن المتوكل على الله؛ مشيدا بمآثره [٢].

ويقدم - دون مبرر - ثبتابأسماء الحكام المرابطين والموحدين [٣]. ويعود للحديث عن نسب بنى مرين ويرده إلى عرب الشام. ويستطرد فى ذكر أسماء قبائل زناتة - التى ينتمى المرينيون إليها - وأسماء سلاطين بنى مرين [٤].

ويؤرخ لقيام دولة بنى الأحمر فى غرناطة، مشيدا بمآثرها وفضائلها بطريقة مبالغ فيها. ويشيد بحاكمها - الذى عاش فى كنفه - محمد الغنى بالله؛ ناعتا إياه بلقب «أمير المسلمين» [٥].

ويتوقف عنده طويلا مدافعا عن سياسته إزاء بلاد المغرب وتدخله فى شئونها بهدف توحيد قبائل البربر للاضطلاع بالجهاد فى الأندلس؛ مختتما العرض بالدعاء له بطول العمر ولدولته بدوام السؤدد[٦].

هذا عرض لمحتوى الكتاب؛ فماذا عن المصادر التى استقى منها المؤلف معلوماته؟

يبدو أن مؤرخنا كان على صلة ببلاط أمير غرناطة محمد الغنى بالله؛ فأتيح له الاطلاع على الكثير من الوثائق، فضلا عن أمهات الكتب بمكتبة القصر. كما يبدو أنه شهد أحداث عصر هذا الأمير؛ وهو ما سنؤكده - بعد قليل - حين نتحدث عن مقاصد تأليف هذا الكتاب. هذا فضلا عن سماعه من شهود العيان. لذلك يمكن الجزم بأن مصادره عن عصره تمثلت فى شهادة العيان والسماع عن شهود عيان والوثائق، واعتمد النقل عن كتب السابقين بخصوص تأريخه للعصور السابقة.

(١) نفسه، ص ١٧٠ - ١٧٥.
(٢) نفسه، ص ١٧٦ - ١٨٢.
(٣) نفسه، ص ١٨٢، ١٨٣.
(٤) نفسه، ص ١٨٥ - ١٨٧.
(٥) نفسه، ص ١٨٧ - ١٩٠.
(٦) نفسه، ص ١٩٠.

أما عن شهادة العيان؛ فمرجعها قربه من الأمير الغرناطى الذى كلفه بتأليف هذا الكتاب. أما السماع، فقد نص عليه مرارا فى ثنايا عرضه؛ إذ قال إنه سمع عن شهود عيان؛ منهم يحيى بن اليسع [١]، ومحمد بن خلف [٢]، والوزير أبى بكر بن عقاب [٣].

أما عن الوثائق؛ فمعظمها رسائل تخص العصور السابقة، قدر له الاطلاع عليها إما من سجلات دواوين الإمارة، وإما من مصادر مهمة تتعلق بعصرى المرابطين والموحدين [٤].

أما عن المصادر التى اطلع عليها؛ فهى مؤلفات ابن الصيرفى والزهيرى والبكرى، ومؤرخ يدعى بجير، وابن القطان، والبيذق وابن سعيد[٥].

تلك هى مصادره التى استقى منها مادة الكتاب؛ فماذا عن منهجه؟

اعتمد المنهج الشائع الجامع بين النظام الحولى والموضوعات المتكاملة؛ فى ترتيب المادة التاريخية وتبويبها [٦].

---

(١) نفسه، ص ٦٢.
(٢) نفسه، ص ٦٦.
(٣) نفسه، ص ٦٩.
(٤) قمنا بحصر لهذه الرسائل، نثبتهاعلى النحو التالى:
١- رسالة من يوسف بن تاشفين إلى عماله بالمغرب (ص ٢٨ ـ ٢٩).
٢ ـ رسالة من يوسف بن تاشفين إلى واليه على الأندلس ص ٣١.
٣ ـ رسالة من فقهاء الأندلس إلى يوسف بن تاشفين كى يجوز إلى الأندلس لمواجهة النصارى ص ٣٥.
٤ ـ رسالة من ألفونسو السادس إلى المعتمد بن عباد ص ٣٨ ـ ٤٠.
٥ ـ رسالة من المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين يستحثه على القدوم إلى الأندلس لإنقاذها من خطر النصارى ث ٤٥.
٦ ـ رسالة أخرى من فقهاء الأندلس ووزراء ابن عباد إلى يوسف بن تاشفين لنفس الهدف ص ٤٧ ـ ٤٩.
٧ ـ رسالة من يوسف بن تاشفين إلى المعتمد بن عباد يعلمه بالاستجابة لطلبه ص ٥٠.
٨ ـ رسالة من يوسف إلى ملوك الطوائف يدعوهم فيها للاستعداد للجهاد ص ٧٥.
٨ ـ مراسلات متبادلة بين يوسف بن تاشفين وبين الخليفة المستظهر بالله العباسى ص ٨٧، ٨٨.
٩ ـ رسالة ابن هود أحد ملوك الطوائف إلى يوسف بن تاشفين كى يجوز إلى الأندلس للجهاد ص ٩٨، ٩٩.
١٠ ـ رسالة من المهدى بن تومرت إلى دعاته ص ١٢٨، ١٢٩.
١١ ـ رسالة من الخليفة المأمون الموحدى إلى ولاته بخصوص العودة إلى مذهب مالك بدلا من مذهب ابن تومرت، ص ١٦٤، ٢١٦.
(٥) نفسه، ص ١٧، ٢١، ١٠٠، ١٠٣، ١٣٨، ١٧٠.
(٦) نفسه، ص ١٨، ٢٨؛ كمثال.

ولم يعتمد الإسناد؛ بل اكتفى بالإشارة لأسماء المؤرخين الذين نقل عنهم. أما ما أضافه من لدنه؛ فقد سبقه بعبارة «قال كاتب هذا ...» (١) وما سمعه سبقه باصطلاحات المحدثين؛ مثل «حدث أبو محمد بن عبدالعزيز؛ قال... » (٢).

وبخصوص عرض الأحداث، فهو مفكك ينم عن عدم دراية بأصول وقواعد الكتابة التاريخية. إذ كثيرا ما خرج عن الموضوع واستطرد فى ذكر موضوعات أخرى، ثم يعود إلى الموضوع الأصلى؛ معتذرا بعبارة «نعود إلى مواصلة الموضوع» (٣).

وفى عرضه، عول على السرد والقص، وكثيرا ما لجأ إلى الأسلوب الحوارى (٤). كما استشهد بالشعر بصورة مبالغ فيها (٥).

ويؤخذ عليه المبالغة أيضا فى تقدير أعداد القتلى والأسرى عقب المعارك بين المسلمين والنصارى(٦).

أما عن مدى صدقه فيما كتب؛ فقد التزم الحيدة والموضوعية أحيانا، وحاد عنها فى معظم الأحيان.

فبرغم كونه سنيا مالكيا؛ لم يتحامل على الموحدين، بل أشاد بجهودهم فى الجهاد. كما نعت ابن تومرت «بالمهدى»، مخالفا معاصريه من مؤرخى السنة الذين اعتبروه زعما لا حقيقة. كما لم يشكك فى نسبه، بل رده إلى على بن أبى طالب؛ كما ذكرنا سلفا. ولم يبالغ فى امتداح المرابطين المالكية، بل عرض لأخبارهم فى حياد ودون انحياز ألبتة.

ولم يتحامل على المرينيين برغم خصومة أميره «الغنى بالله» معهم. ويبدو أنه حاول رأب الصدع وإطفاء نيران الجفوة بين الغنى بالله والمتوكل المرينى دون طائل. لذلك سكت عن ذكر تاريخ بنى مرين مفصلا؛ مكتفيا

---

(١) نفسه، ص ٣٢؛ كمثال.

(٢) نفسه، ص ٥٧؛ كمثال.

(٣) نفسه، ص ١١٩؛ كمثال.

(٤) نفسه، ص ٤٤؛ كمثال.

(٥) مثال ذلك؛ إثبات قصيدة مطولة ذكرها فى ست صفحات.
نفسه، ص ١٢٤ ـ ١٢٩.

(٦) نفسه، ص ١٣٥، ١٣٩؛ كمثال.

بتنويه عارض. وإذ أسرف فى ذكر مناقب بنى الأحمر؛ فالأمر لا يؤخذ عليه لأنه عاش فى كنفهم، ولم يكن بوسعه إلا فعل ما فعل.

أما عن الرؤية؛ فهى أسطورية فى الغالب الأعم، وإن عبر عن نزعة دينية فى استحياء. إذ أخذ بالتنجيم فى تفسير الأحداث والوقائع(١) أحيانا، كما آمن بالكرامات وعلل بها فى أحيان أخرى(٢)، واعتقد فى دلالات الأحلام على سير الأحداث والوقائع(٣).

أما عن مقاصده التى من أجلها ألف الكتاب؛ فلا تعدو توظيفه فى الدعايةالسياسية للأمير الغرناطى، تبريرا لوقائع تدخله فى شئون المغرب وإثارته الشقاق بين بنى مرين وبنى عبدالواد، كذا إحداث تصدع داخل الدولة المرينية؛ كما ذكر محققا الكتاب(٤). ولا غرو؛ فقد ألف كتابه هذا بطلب من أميره الذى روج له بين قبائل البربر فى المغرب الأقصى. وقد اعترف المؤلف ـ ضمنا ـ بمقصده هذا حين قال:

«لولا التاريخ لضاعت مساعى أهل السياسة الفاضلة.. إذ فيه معتبر وموعظة ومزدجر يفيد قارئه حكمة وإلهاما»(٥).

أما عن أسلوبه؛ فهو مسجوع دون تكلف فى مقدمة الكتاب؛ كذا حين تحدث عن مدينة مراكش فى موسطته(٦).

وفيما عدا ذلك؛ اعتمد النثر المرسل؛ فعبر عن المعانى فى وضوح ودون حذلقة أو إنشاء؛ وإن كان حظه من البلاغة جد ضئيل.

هكذا عبر هذا الكتاب عن خصائص الفكر التأريخى الأندلسى أصدق تعبير. تلك الخصائص التى لم تختلف بحال عن نظيرتها فى سائر أقاليم «دار الإسلام». وتنم تلك الخصائص التى رصدناها على مدار هذا السفر عن تدهور الفكر التأريخى فى العالم الإسلامى بأسره؛ نتيجة معطيات ثقافية وتاريخية فصلنا القول فيها فى ثنايا العرض.

(١) نفسه، ص ٥٧.

(٢) نفسه، ص ١١٧.

(٣) نفسه، ص ٥٤.

(٤) نفسه، ص ٨ من مقدمة المحققين.

(٥) نفسه، ص ١٤.

(٦) نفسه، ص ١٨١، ١٨٢.

الببليوغرافيا

(١) ألبان ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، الترجمة العربية، القاهرة ١٩٧٢.
(٢) ألدوميلى: تاريخ العلم عند العرب، الترجمة العربية، القاهرة ١٩٦٢.
(٣) إبراهيم القادرى: تاريخ الغرب الإسلامى، بيروت ١٩٩٤.
(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، القاهرة، د. ت.
(٥) ابن أبى الربيع: سلوك المسالك وتدبير الممالك، القاهرة ١٣٢٩ هـ.
(٦) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط ١٩٧٣.
(٧) ابن أبى الدم: التاريخ المظفرى، القاهرة ١٩٨٩.
(٨) ابن الأثير: أسد الغابة فى معرفة الصحابة، جـ١، بيروت، د. ت.
(٩) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ١٢ جزءا، بيروت ١٩٨٢.
(١٠) ابن الأثير: التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، القاهرة، د. ت.
(١١) ابن الأعرج: تحرير السلوك فى تدبير الملوك، القاهرة، د. ت.
(١٢) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ٢، القاهرة، د. ت.
(١٣) ابن بسام: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، قسم ١، القاهرة د. ت.
(١٤) ابن تخرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج١، ٢، ٣، ٤، القاهرة د. ت.
(١٥) ابن حماد: تاريخ ملوك بنى عبيد، الجزائر ١٣٤٦هـ.
(١٦) ابن الخطيب: كناسة الدكان بعد انتقال السكان، القاهرة، د. ت.
(١٧) ابن حجر العسقلانى: الإصابة فى تمييز الصحابة، جـ٢، القاهرة ١٣٢٨ هـ.
(١٨) ابن حجر العسقلانى: لسان الميزان، جـ٦، القاهرة ١٩٩٦.
(١٩) ابن حجر العسقلانى: إنباء الغمر بأنباء العمر، جـ٣، القاهرة ١٩٧٢.
(٢٠) ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، حيدر أباد ١٩٢٩.
(٢١) ابن خلدون: المقدمة، القاهرة، د. ت.
(٢٢) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة ١٩٨٣.
(٢٣) ابن الديبع: قرة العيون فى أخبار الميمون، القاهرة د. ت.
(٢٤) ابن شاكر الكتبى: إعلام الورى، جـ٢٤، نص محقق فى رسالة ماجستير لسعود محمد العصفور - آداب عين شمس ١٩٨٧.
(٢٥) ابن سعيد: رايات المبرزين وغايات المميزين، القاهرة ١٩٧٣.
(٢٦) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، القاهرة د. ت.
(٢٧) ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازى وشمائل السير، جـ٢، القاهرة ١٣٥٦هـ.
(٢٨) ابن شداد: النوادر السلطانية، القاهرة ١٣١٧ هـ.
(٢٩) ابن طولون الصالحى: إعلام الورى فيمن ولى نائبا من الأتراك بدمشق الكبرى، القاهرة ١٩٧٣.
(٣٠) ابن طولون الصالحى: الفلك المشحون بأحوال محمد بن طولون، القاهرة ١٣٤٨ هـ.
(٣١) ابن عبدالبر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، المنصورة ١٩٦٨.
(٣٢) ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، جـ١، بيروت ١٩٥٠.

(٣٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ١، دمشق ١٩٥١.
(٣٥) ابن الفرات: تاريخ الأمم والملوك، بيروت ١٩٣٨.
(٣٦) أبو سمرة الجعدى: طبقات فقهاء اليمن، القاهرة ١٩٥٧.
(٣٧) أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ١، القاهرة ١٩٨٨.
(٣٨) أحمد أمين: ظهر الإسلام. جـ٣، القاهرة ١٩٦٢.
(٣٩) أحمد الطاهرى: عامة اشبيلية فى عصر بنى عباد، رسالة دكتوراة، آداب مكناس، مخطوطة، ١٩٩٥.
(٤٠) أحمد الطاهرى: عامة قرطبة فى عصر الخلافة، رسالة ماجستير، آداب فاس، مخطوطة، ١٩٨٤.
(٤١) أحمد عبدالرازق: المصادر المملوكية المتأخرة، القاهرة ١٩٧٤.
(٤٢) الإدفوى: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، القاهرة ١٩٦٦.
(٤٣) Aziz Atiya: The Crusades, Historiography and Bibliogna-phy, London, 1962.
(٤٤) إيف لاكوست: العلامة ابن خلدون، الترجمة العربية، بيروت، د. ت.
(٤٥) أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الفقهية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى، القاهرة ١٩٨٨.
(٤٦) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، الترجمة العربية، القاهرة، د. ت.
(٤٧) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسى، الترجمة العربية، القاهرة ١٩٥٥.
(٤٨) Blochet: Histoire des Sultans Mamlouks, Paris, 1919.
(٤٩) بوبه مجانى: النظم الإدارية فى بلاد المغرب خلال العصر الفاطمى، رسالة دكتوراة - مخطوطة، جامعة قسنطينة، ١٩٩٥.
(٥٠) البيذق: أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط ١٩٧١.
(٥١) توفيق محمد لقبابى: التطور السياسى لدولة الغور الإسلامية، رسالة ماجستير، آداب القاهرة - مخطوطة، ١٩٨٦.
(٥٢) جار الله محمد فهد: رسالة فى فضل جدة وشىء من خبرها، معهد المخطوطات العربية، مجلد ٣١، القاهرة ١٩٨٧.
(٥٣) جب: علم التاريخ، الترجمة العربية، بيروت ١٩٨١.
(٥٤) جب: دائرة المعارف الإسلامية، مادة «تاريخ»، جـ٤.
(٥٥) حسين مؤنس: أطلس التاريخ الإسلامى، القاهرة ١٩٨٧.
(٥٦) الخزرجى: العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، جـ١، القاهرة ١٩١٤،
(٥٧) Dozy: Histoire des Musulmanes d, Espagne, Leyden, 1861.
(٥٨) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، الترجمة العربية، القاهرة ١٩٦٠.
(٦٠) سامية مصطفى مسعد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى إقليم غرناطة فى عهد المرابطين والموحدين، رسالة دكتوراة، آداب الزقازيق، مخطوطة، ١٩٨٧.
(٦١) السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، لندن ١٩٢٥.
(٦٢) السخاوى: الذيل على رفع الإصر، القاهرة ١٩٦٦.
(٦٣) السخاوى: الإعلام بالتوبيخ عن ذم التاريخ، أنظر: روزنتال.
(٦٤) سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربى، الإسكندرية ١٩٩٥.

(٦٥) سعيد أبو زيد: الحياة الاجتماعية فى الأندلس فى عصر دولتى المرابطين والموحدين، القاهرة ١٩٩٦.
(٦٦) سلام شافعى سلام: أهم مصادر تاريخ الأقاليم والمدن المصرية فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ٢٠٠٠.
(٦٧) سلام شافعى سلام: المؤرخون النصارى فى مصر الإسلامية، الإسكندرية، د. ت.
(٦٨) السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية ١٩٦٧.
(٦٩) السيد محمد العزاوى: فرقة النزارية، القاهرة ١٩٧٠.
(٧٠) السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة؛ جـ٢، بيروت ١٩٩٧.
(٧١) شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون، جـ١، بيروت ١٩٨٣، جـ٢ بيروت ١٩٨٧. جـ٣، بيروت ١٩٩٠. جـ٤، بيروت ١٩٩٣.
(٧٢) الشماخى: كتاب السير، جـ١، جـ٢، عمان ١٩٨٧.
(٧٣) شيرين شلبى: دراسة تحليلية لكتابات ابن أبى طيى الحلبى فى المصادر الإسلامية، رسالة دكتوراة، كلية البنات، جامعة عين شمس، مخطوطة، ٢٠٠٣.
(٧٤) طيب تيزينى: مشروع رؤية جديدة للفكر العربى فى العصر الوسيط، دمشق، د. ت.
(٧٥) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، القاهرة ١٩٩٠.
(٧٦) عباس العزاوى: التعريف بالمؤرخين، جـ١، القاهرة ١٩٥٧.
(٧٧) عبدالإله بلمليح: الرق فى المغرب والأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، رسالة دكتوراة، آداب فاس، ٢٠٠٠.
(٧٨) عبدالقادر زمامه: أبو الوليد بن الأحمر، الدار البيضاء، د. ت.
(٧٩) عبدالله علام: الدولة الموحدية، القاهرة، د. ت.
(٨٠) عبدالمحسن رمضان: الحروب الصليبية فى الأندلس، القاهرة ٢٠٠١.
(٨١) عبدالمنعم ماجد: الدولة الأيوبية، القاهرة ١٩٩٧.
(٨٢) عبدالواحد ذنون طه: موارد تاريخ ابن عذارى المراكشى عن الأندلس، مجلة المجمع العلمى العراقى، جـ٤، مجلد ٣٧، بغداد ١٩٨٦.
(٨٣) عبدالواحد ذنون طه: دراسات فى تاريخ الأندلس، بغداد ١٩٧٥.
(٨٤) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى خلال القرن السادس الهجرى، بيروت ١٩٨٣.
(٨٥) عفت الشرقاوى: أداب التاريخ عند العرب، بيروت، د. ت.
(٨٦) على أدهم: بعض مؤرخى الإسلام، القاهرة، د. ت.
(٨٧) على بن الوليد: دامغ الباطل وحتف المناضل، جـ١، ٢، القاهرة ١٩٨٢.
(٨٨) عماد الدين إدريس: كنز الأخبار فى معرفة السير والأخبار، الكويت ١٩٦٢.
(٨٩) عمر بن رسول: المخترع فى فنون من الصنع، الكويت ١٩٨٩.
(٩٠) عمر الشبراوى: عامة بغداد من ظهور السلاجقة حتى سقوط الخلافة العباسية، رسالة دكتوراة، آداب عين شمس، مخطوطة، ١٩٨٨.
(٩١) فامبرى: تاريخ بخارى، الترجمة العربية، القاهرة، د. ت.
(٩٢) فؤاد عبدالمعطى الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله، القاهرة ١٩٦٧.

(٩٣) القاضى عياض: ترتيب المدارك فى معرفة أعيان مذهب مالك، الرباط ١٩٨٣.
(٩٤) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، جـ٢، ٣، ٤، القاهرة، د. ت.
(٩٥) الكافيجى: مختصر علم التاريخ، أنظر: روزنتال.
(٩٦) Cahen: Une Cronique Chiite au temps des Croisa de, Paris, 1933.
(٩٧) مجهول: الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية، الدار البيضاء ١٩٧٨.
(٩٨) مجهول: كتاب الاستبصار فى ذكر غرائب الأمصار، الإسكندرية ١٩٥٨.
(٩٩) محمد أنيس: مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى، القاهرة ١٩٦٢.
(١٠٠) محمد بن عياض: التعريف بالقاضى عياض فى المغرب، المحمدية، د. ت.
(١٠١) محمد تضخوت: الحياة الاقتصادية فى العراق وأثرها الاجتماعى والسياسى والثقافى فى العصر البويهى، رسالة دكتوراة، آداب مكناس، مخطوطة، ١٩٩٨.
(١٠٢) محمد عبدالرحمن: كرمان منذ ا لفتح الإسلامى حتى نهاية الدولة الطاهرية، رسالة ماجستير، آداب عين شمس، مخطوطة، ١٩٩٩.
(١٠٣) محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس، القاهرة ١٩٦١.
(١٠٤) محمد كمال عز الدين: التاريخ والمنهج التاريخى لابن حجر العسقلانى، بيروت ١٩٨٤.
(١٠٥) محمد محيى الدين الإدريسى: التطور السياسى للدولة الإيلخانية فى عهد أولجاتيو، رسالة ماجستير، آداب القاهرة، مخطوطة، ١٩٨٧.
(١٠٦) محمد مصطفى زيادة: المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى، التاسع الهجرى، القاهرة ١٩٤٩.
(١٠٧) محمد المنونى: المصادر العربية لتاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الحديث، جـ١، الدار البيضاء ١٩٨٣.
(١٠٨) محمود إسماعيل: الخوارج فى بلاد المغرب، الدار البيضاء ١٩٧٦.
(١٠٩) محمود إسماعيل: قضايا فى التاريخ الإسلامى، الدار البيضاء ١٩٨١.
(١١٠) محمود إسماعيل: نهاية أسطورة، القاهرة ٢٠٠٠.
(١١١) محمود إسماعيل: مغربيات، فاس ١٩٧٧.
(١١٢) محمود إسماعيل: هل انتهت أسطورة ابن خلدون، القاهرة ٢٠٠٠.
(١١٣) محمود قمر: فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية فى آسيا الوسطى، القاهرة ٢٠٠٠.
(١١٤) المراكشى: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، القاهرة ١٩٦٣.
(١١٥) مرجوليوث: دراسات عن المؤرخين العرب، الترجمة العربية، بيروت، د. ت.
(١١٦) هاشم العلوى القاسمى: مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجرى، الرباط ١٩٩٥.
(١١٧) ياسر نور: التأثير المنهجى لعلم الحديث فى مناهج المؤرخين المحدثين، رسالة ماجستير، آداب المنصورة، مخطوطة، ١٩٩٩.

إصـــدارات دار مـصــر المحـروســـة

أهل الدين ... و الديمقراطية	د. سيد القمنى	٢٠٠٥
سوسيولوجيا الفكر الإسلامى		
طور الانهيار (٣) الفكر التاريخى	د. محمود إسماعيل	٢٠٠٥
المجلد العاشر محاولة تنظير	د. محمود إسماعيل	٢٠٠٥
الخطاب الدينى المعاصر بين التقليد والتجديد	د. محمود إسماعيل	٢٠٠٥
مقاربات نقدية فى الفكر والأدب	د. محمود إسماعيل	٢٠٠٥
اخوان الصفا بين الفكر والسياسة	أحمد صبرى السيد	٢٠٠٥
الشعائر بين الدين والسياسة فى الإسلام والمسيحية	روبير بندكتى	٢٠٠٥
لاهوت التحرير رؤية عربية إسلامية مسيحية	الأب وليم سيدهم اليسوعى	٢٠٠٥
المصريون والتشيع الممنوع	د. أحمد راسم النفيس	٢٠٠٥
قضية الأجيال تحدى الشباب المصرى عبر قرنين	د. أحمد عبد الله رزة	٢٠٠٥
الديمقراطية المقيدة إنتخابات الرئاسة الأمريكية	د. منار الشوربجى	٢٠٠٥
سلام النساء ـ ليزيستراتى	لينين الرملى ـ أريسطوفانيس	٢٠٠٥
الفراشة التى خلفت وعدها	أطفال ـ مترجم عن اليونانى	٢٠٠٥
رواية ترميم قضية أحمس	مجيد طوبيا	٢٠٠٥
نور الدين بومبه	ترجمة: ينى ميلاخرينودى	٢٠٠٥
الجماعات الاسلامية (رؤية من الداخل)	منتصر الزيات	٢٠٠٥
شكراً ... بن لادن !!	د.سيد القمنى	٢٠٠٤
الإسلام والعلمنه	د.عاطف أحمد	٢٠٠٤
هيكل بين الجريده والكتاب	د.وحيد عبد المجيد	٢٠٠٤
شيوخ بلا خناجر	د.عبدالعاطى محمد	٢٠٠٤
الأمركه والأسلمه	رضا هلال	٢٠٠٤
فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين	خليل عبد الكريم	٢٠٠٤
الإسلام بين الدوله الدينيه والدوله المدنيه	خليل عبد الكريم	٢٠٠٤
نحو فكر إسلامى جديد	خليل عبد الكريم	٢٠٠٤
جرائم الصفوه فى مصر	د.حنان سالم	٢٠٠٤
إبن البلد	ترجمة: د. نعيم عطية	٢٠٠٤
تجار القطن	ترجمة: د. عبدالمحسن الخشاب	٢٠٠٤
هوكوجكى (يوميات راهب يابانى)	ترجمة: د. عادل أمين	٢٠٠٤
زنوبة اللهلوبة	توفيق خليل	٢٠٠٤
مناهضو العولمه	خالد الفيشاوى	٢٠٠٤
صعلوك يربح المليون	لينين الرملى	٢٠٠٤
أهدافنا الوطنيه	شهدى عطيه . عبد المعبود الجبيلى	٢٠٠٤
حروب أمريكابين بن لادن و صدام حسين	د/ وحيد عبدالمجيد	٢٠٠٣
حكام العالم الجدد	ترجمه/إسماعيل داود	٢٠٠٣
تفكيك أمريكا	رضا هلال	٢٠٠٣
العداله البيئيه فى مصر	د/ عاطف كشك	٢٠٠٣
كلام فى الدين و السياسة	الاب / وليم سيدهم	٢٠٠٣
ثقافه الفساد فى مصر	د / حنان سالم	٢٠٠٣
الصحافه المصريه وقضايا الفساد	د / حنان سالم	٢٠٠٣